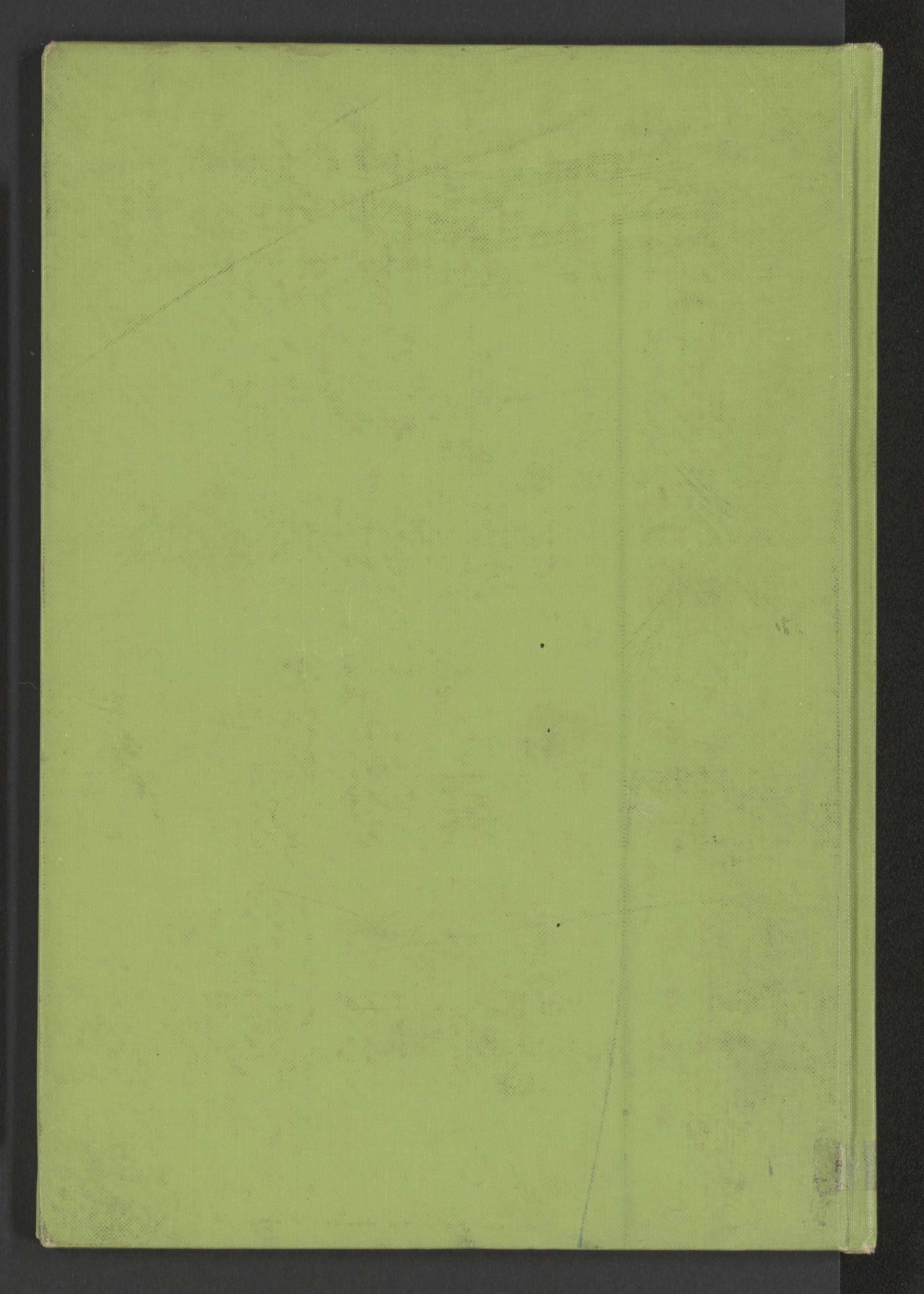
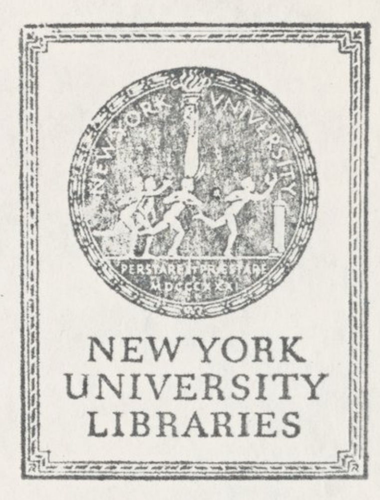
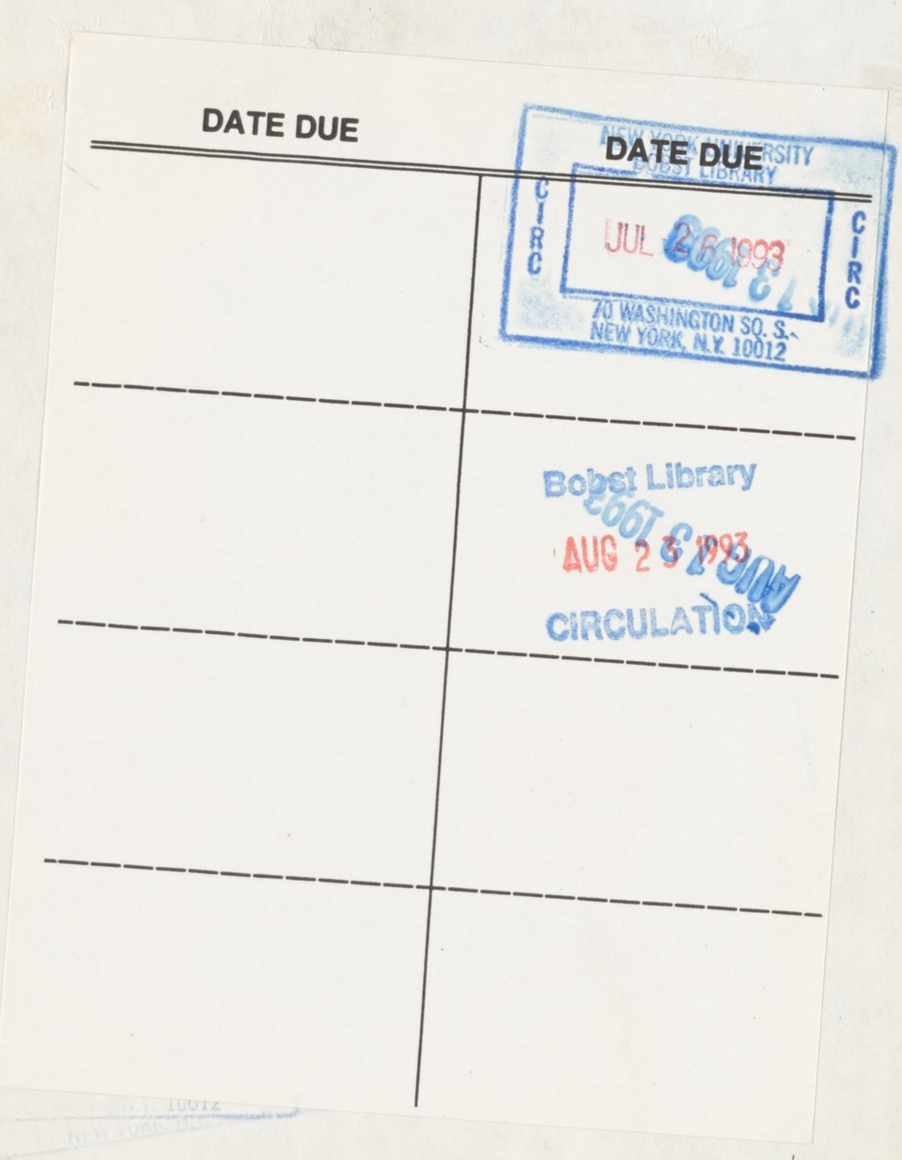
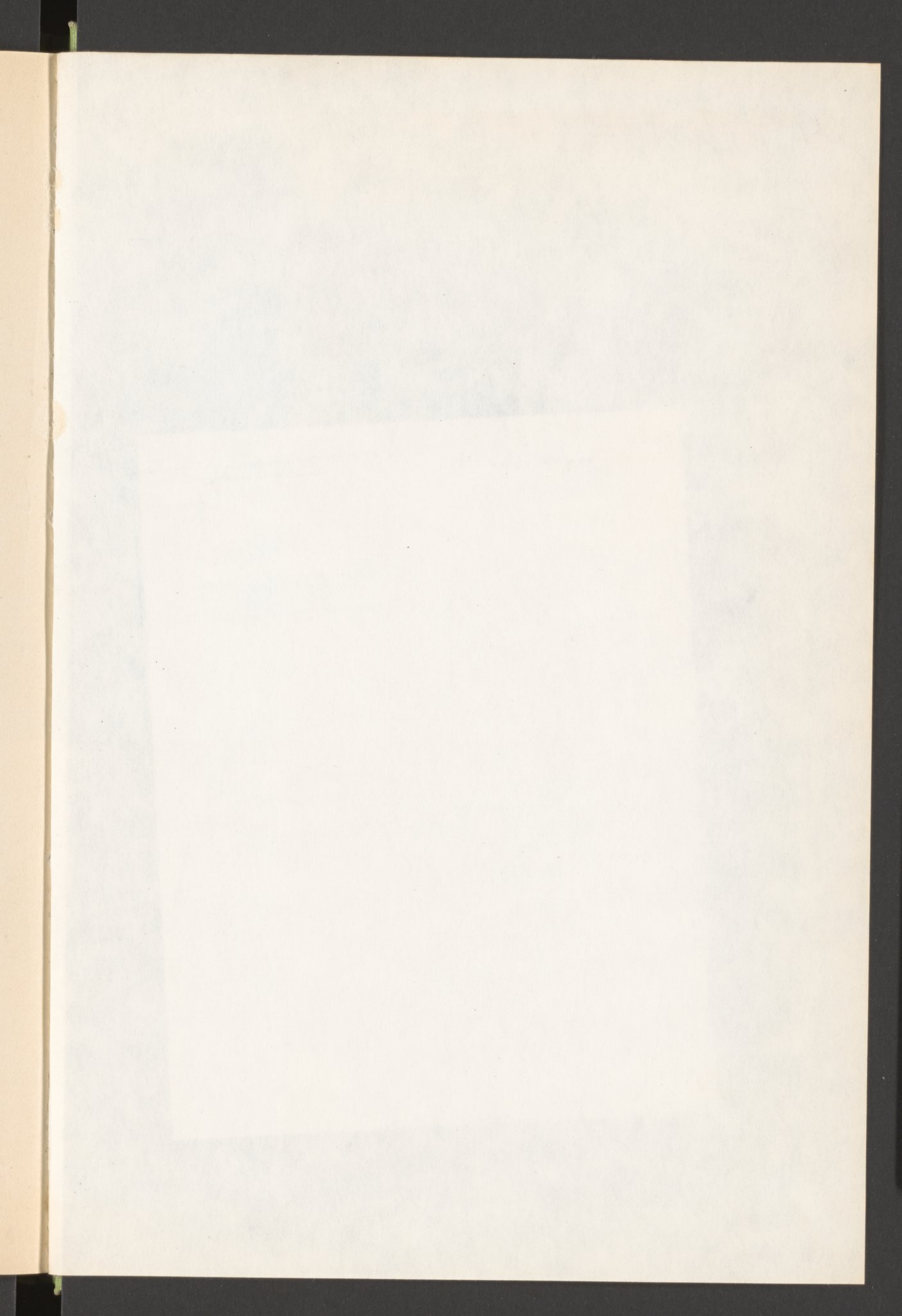





NEW YORK UNIVERSITY
PERSTARE ET PRAESTARE
MDCCCXXXI
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES



DATE DUE
DATE DUE
NEW YORK UNIVERSITY
BOBST LIBRARY
CIRC
JUL 26 1993
CIRC
70 WASHINGTON SQ. S.
NEW YORK, N.Y. 10012
Bobst Library
AUG 23 1993
CIRCULATION



'Alī, Jawād

/Tārīkh al-'Arab fī al-Islām/

تاريخ العرب

في الإسلام

السيرة النبوية

١.٧

تأليف

الدكتور جواد علي

١٩٦١

مطبعة الزعيم — بغداد

مقـــدمة

هذا كتاب في تأريخ العرب في الاسلام ، جعلته صلة وتكملة لكتابي : تأريخ العرب قبل الاسلام . وهو مثله في أجزاء ، سيتوقف عددها على الزمان الذي ستقف ضربات قلبي عنده ، وعلى البحوث التي سأتطرق اليها .

وقد جعلته ـ كما جعلت الأجزاء السابقة المطبوعة ـ وسطاً بين الاطناب والايجاز ، وبين التفصيل والاختصار . خالياً من الهوى والغرض . لم اكتبه جبراً لخاطر ، ولا ارضاء لأحد . وكل ما اردته من كتابته أن يكون رأياً من الآراء ، وصوتاً من الأصوات ولحناً من الألحان التي نسمعها عن تأريخ العرب والاسلام .

وقد حرصت في هذا الكتاب كذلك ، على ألا أهتم إلا بالنواحي التي كان لها شأن وخطر في تأريخ العرب والاسلام ، أما الأمور الثانوية والحوادث التي لم يكن لها شأن خطير في تغيير مجاري الحياة ، فلن أتعرض لها إلا بقدر ماكان لها من صلة بحياة الناس في ذلك العهد .

وقد اضطررت في هذه المرة كما اضطررت في الماضي الى ترك فهارس الأعلام الى الجزء الأخير من الكتاب . أما الموارد التي اعتمدت عليها ، واستقيت علمي منها ، فسأذكرها تامة كاملة عند ورودها للمرة الأولى ، ثم أشير إليها رمزاً واختصاراً ان تكرر ورودها ، حرصاً مني على وقت القارىء من الضياع ، وعلى مساحة الكتاب من الانساع من غير داع ولا سبب مبرر .

ولما كان كتابي هذا كما قلت وذكرت تكملة لكتابي : تأريخ العرب قبل الاسلام ، واستمرار له . لذلك لم أجد في هذا الجزء أي مكان مناسب للبحث في الحياة السياسية أو الدينية أو الاقتصادية أو غير ذلك من نواحي الحياة في الجاهلية القريبة من الاسلام بحثاً مفصلاً مسترسلاً ، فالاسترسال في هذا البحث وفي هذا الموضع معناه إعادة لما كتبته

في تلك الأجزاء وتكرار لكلام سابق واضاعة لوقت غال ثمين . ولهذا فسوف لا اتطرق فى هذا الجزء الى أمور الجاهلية إلا بقدر ما للجاهلية من صلة بالاسلام . وبقدر مالها من علاقة بعصر النبوة وبأيام الرسول .

لذا فسأدخل في موضوع عصر النبوة رأساً ، دون مقدمة ولا تمهيد . أما من يريد الوقوف على الجاهلية ، وعلى أحوال الجاهليين ، قبيل الاسلام وعند ظهوره ، فعليه مقدماً بمراجعة تلك الأجزاء .

وبعد ، فأنا في كتابي هذا ، لست بداعية ولا بمبشر بدين من الأديان ، ولا أعتقد أن باليهودية أو النصرانية أو الاسلام حاجة الى رأيي أو مساعدتي وتأييدي . فالأديان كلها من منبع واحد ، وهي متمم بعضها بعضاً ، مكملة لما قبلها من نبوات ورسالات . والاسلام لا يضيره ولا يثيره قول من يقول إنه مأخوذ عن يهودية أو عن نصرانية أو عن أية ديانة أخرى . إنه يرى أنه رسالة من رب العالمين الى الناس أجمعين ، وأن اليهودية ديانة سماوية ، وان النصرانية ديانة سماوية كذلك ، وان الاسلام ديانة سماوية أيضاً جاءت متممة للديانتين المذكورتين وللأديان الأخرى مكملة لها ، وإنها وحي من الله .

وما دامت هذه الأديان ديانات من الله رب العالمين ، ومن منبع واحد ، فلابد أن يكون فى هذه الأديان مانقتضيه طبيعة الوحي والالهام من ذلك المصدر الذي ألهم هذه الأديان .

وأنا في هذا الكتاب لا أريد أن أسفه رأياً ، أو أن أؤيد رأياً وأتعصب له . فنحن فى زمن صارت هذه الطرق من البحث فيه عتيقة بالية ، لا تفيد أصحابها شيئاً إن لم تسيء إليهم . وسبيلي كما قلت أن أذكر الآراء ، وان أوضح مابلغه اجتهادي من غير تعصب أو تحيز . وآية العلم الهوى والانحياز .

أما بعد ، فلابد لي في هذه المقدمة من تقديم شكري وتقديري هنا الى أستاذي الأستاذ السيد محمد بهجة الأثري نائب رئيس المجمع العلمي العراقي الأول ومدير الأوقاف العام ، لمساعدته إياي في قراءة مسودات هذا الجزء كافة ، وإبدائه ملاحظات عليها ثمينة وآراء قيمة ، أفادتني كثيراً ، ونفعتني نفعاً كبيراً . وقد كان ، كما قلت فى الأجزاء السابقة ، صاحب الفضل الأول في اخراج كتابي هذا ، كما كان وما زال حريصاً على أن

يكون الكتاب في أحسن حالة ممكنة شكلاً وموضوعاً ، وحريصاً أيضاً على متابعة طبع بقية الأجزاء ؛ فهو إذن حقيق بخالص شكري وجزيل تقديري . وأنا إذ أثبت هذا في هذا الجزء أيضاً على سبيل الايجاز ، فانما أثبته تقريراً للحقيقة ، واعترافاً بالفضل لأصحابه .

وأنا في هذا الكتاب أيضاً طالب علم ، مبتدىء في التاريخ لم آت فيه بشيء جديد ، وكل ماذكرته وأوردته فيه هو خلاصة علم غيري . وتاريخ الاسلام بحر واسع ، لم يبتعد حتى الآن عن ساحله كثيراً ، وسيظل كذلك ماشاء الله حتى تتهيأ للعلماء الباحثين فرص الوقوف على الموارد والمصادر ، وهي كثيرة ولا شك ، مبعثرة هنا وهناك ، وحتى يدرس هذا الموجود وينسق وينظم ويرتب . فاذا تم مثل ذلك ، كان من الممكن يومئذ كتابة تاريخ علمي عن الاسلام .

ورجل هذه منزلته وهذه درجته في العلم ، لابد أن يكون كثير الزلات ، كثير الهفوات . ولما كان الانسان لايدرك خطأه إلا بعد الوقوع فيه ، فهو يرجو ممن سيوقعه حظه في قراءته ، والوقوف عليه ، أن يرشد مؤلفه اليها ، ليستفيد منها وليتعلم . والعلم دراسة وتجارب .

ونقد الناس ، مهما كانت أهدافه وأغراضه هو في نظر كاتب هذه الصفحات حكمة وتعليم وتقويم ودرس لمن اعتبر . أما المدح ، فهو تنشيط للعاطفة موقت ، لا يلبث أن يزول أثره ، ولا يفيد منه العاقل ، إن لم يكن في صميمه تثبيطاً وموقعاً للممدوح في الغرور ، تاركاً اياه فريسة للخيلاء ، والخيلاء من أمارات فراغ الرؤوس .

وختاماً لمقدمتي هذه ، لابد من أن أشير الى أن مافي هذا الكتاب من صحيح أو فاسد ، ومن صواب أو خطأ ، هو مني وحدي ، وأنا المسؤول عنه ، لا يؤاخذ به غيري . إنه يمثل اجتهادي ، ولكل مجتهد رأي ونيتي فيه خالصة للعلم ، وإنما الأعمال بالنيات .

جواد علي

الفصل الأول

خطورة تاريخ الاسلام وكيفية تدوينه

يأتي الاسلام بعد النصرانية في عالم الأديان السماوية من حيث العدد ، إذ يبلغ المسلمون عدة مئات من الملايين عدداً ، وهم منتشرون في مختلف أنحاء الأرض ، غير أن غالبيتهم في العالم القديم ، ولا سيما آسية مهد الأديان العالمية .

والمسلمون وإن اختلفوا لوناً ولغة ، هم في نظر الاسلام أمة واحدة ، أفرادها سواء كأسنان المشط ، تجمع بينهم رابطة الاسلام ، وهي رابطة فكرية حسب بمعنى أنها لا تقوم على العقيدة العنصرية التي تستند إليها بعض الديانات ، مثل ديانة يهود .

وقد قرب الاسلام بين الشعوب التي دخلت فيه وألف بينها بخصائص وميزها بعلامات صارت كالعلامات التجارية الفارقة . حتى إذا دخل الغريب أرضاً فيها أكثرية إسلامية ، شعر حالاً بأنه بين قوم دين غالبيتهم الاسلام .

والمآذن هي من أهم العلامات الدالة على وجود الاسلام في المكان الذي ترى فيه . و « الهلال » في نظر الغربيين علامة فارقة تعني الاسلام . وهي في نظرهم في مقابل الصليب ، العلامة الفارقة التي تميز النصرانية عن غيرها من الأديان .

ولكن المئذنة مع هذا لم تكن معروفة في أيام الرسول . أما « الهلال » ، فلم يكن أيضاً شعاراً للاسلام في صدر الاسلام .

وهكذا شأن كثير من السمات التي تميز المسلمين عن غيرهم في هذا اليوم ، هي لواحق . لحقت بالاسلام فيما بعد ، ولم تكن موجودة في أيام الرسول .

ودراسة تأريخ الاسلام دراسة تحليلية تستند الى النقد والتبصر وعمل الفكر والروية ، توصلنا ولا جرم الى نتـــائج قيمة مثمرة ، تكفل لنا التفريق بين الأصول والفروع ، بين الاسلام الصرف ، وما لحق به من لواحق على مر الأيام .

ودراسة تحليلية دقيقة مثل هذه ، تفيدنا اليوم كثيراً ، بل هي ضرورة لازمة . ولا سيما دراسة تأريخ أيام الرسول . فان بين ما يتشكى منه الشرق الأدنى والأوسط لهذا العهد ، وما تشكى منـه في القرنين الســـادس والسابع للميلاد صلة ورابطة وشبهاً في أشياء عديدة . ولتشخيص الشكاوي لابد من الرجوع الى أسبابها وعواملها البعيدة . ومعنى هذا الرجوع الى الماضي للاستفادة منه في مداواتها ومعرفة الأسباب التي أدت الى بقائها حية فعالة حتى الآن .

ويعم العالم الاسلامي اليوم جمود وركود في العقل وفي الجسم . والسواد الأعظم في جهالة عمياء وفي ظلام دامس : تعصب بغيض يشبه تعصب قريش في أيام الرسول ، وكسل وأمراض ، حتى وقع في روع الكثير من الغربيين والشرقيين ، أن ذلك من الاسلام ، وان الاسلام معناه الكسل والاتكال والاستسلام ، وأنه سبب تأخر المسلمين ؛ وأن العالم الاسلامي لا يمكنه لذلك من مجاراة ركب الحضارة ، إلا بابتعاده عن الاسلام ، وبتخليصه من أصوله المسيطرة على العقول ، سيطرة تامة راسخة ؛ وذلك بثورة كاسحة جامحة عليه ، شبيهة بثورة العالم الغربي على الكنيسة وعلى كل ما كان لها من سلطان على عقول الناس .

ودراسة تاريخ الاسلام على الشكل المقترح ، هي دراسة كفيلة بايجاد الأجوبة الصحيحة المقبولة لمثل هذه المشكلات ، وبايجاد الحلول للمعضلات العويصة المتعلقة بتأريخ الاسلام . وهي ستساعد العالم الاسلامي كثيراً ولا شك في معالجة هذه الامراض التي يتشكى منها ، وهي أمراض مزمنة قديمة في الغالب ، ورثها الشرق من عهود سبقت ظهور الاسلام ، وليس للاسلام فيها دخل ولا يد .

ونحن في الوقت الذي ندعو فيه الى وجوب دراسة تأريخ الاسلام دراسة نقد وتحليل ، نعترف بأن تطبيق ما نقوله ليس بأمر سهل يسير . وآفة ذلك أن الانسان مهما حاول تجريد نفسه من نزعات العواطف ، فانه لن يتمكن من التخلص منها تخلصاً تاماً

كاملاً . فليست العواطف ملابس ترمي أو تستبدل ، أو هي شيء يرى ويمكن إدراكه والتغلب عليه . إنها كامنة موروثة في بعض الأحيان ، وحاصل جملة مؤثرات خفية ، قد تستعبد بعض الناس فتستبد بأحكامهم ، وقد تكون خفيفة يسيرة عند بعض آخر ، وقد تكون في حكم العدم عند زمرة . ولكن هذه الزمرة هي أيضاً من لحم ودم ، وهي معرضة مثل غيرها لظروف قد تسوقها الى الخضوع لحكم العواطف من حيث تدري ولا تدري تبعاً للأحوال ولقوة المؤثرات .

ثم إن المؤرخ يجب أن يكون كرجل المختبر ، ذا استعداد عظيم في التحليـل ، وذا حظ عظيم من العلم في المواد التي يريد تحليلها ، وذا ذكاء خارق يمكنه من الاستنباط والاستنتاج ، ومن اجراء المقابلات والمطابقات والمفارقات والمقارنات ، لتكون أحكامه منطقية سليمة ، وآراؤه معقولة مقبولة ، والا صار قاصاً من القصاص ، ومؤرخاً من هذا الطراز القديم الذي يرى أن التأريخ حفظ ورواية ، وتسجيل لما يرويه النـاس ، فهو يسجل كل ما يسمعه ويدون كل ما يقرأه ويعثر عليه في الموارد . يبدي رأياً في موضوع لمجرد اعتماده على خبر وجده في كتاب أو في جملة كتب ، ويقول بأخذ أمة من أمة لمجرد وجود اشتراك في فكرة أو اسم أو أسماء أو تشابه ما . وأنا لا اريد هنا بالطبع أن انكر وقوع الأخذ والاقتباس بين الأمم والأشخاص ، ولكني أدعو الى وجوب استعمال التبصر والروية في أمثال هذه الأحكام ، لئلا نتورط في مزالق العجلة ، والعجلة كما يقول المثل العربي من الشيطان .

ومن هنا أخـذ على بعض المستشرقين تسرعهم في اصدار الأحكام في تأريخ الاسلام ، وتأثرهم بعواطفهم ، لأخذهم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان ؛ وحكمهم بموجبه ، ولاصدارهم أحكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو التشابه ، مع قولهم بوجوب استعمال النقد ، وباحتراسهم في الأمور ، ووجوب التأكد من معرفة الآخذ قبل الحكم عليه ، ولا سيما أن الساميين أسرة واحدة كما يدعي المستشرقون ، يشتركون في كثير من الأمور ، ويتفقون في كثير من الآراء ، ومن الصعب تعيين الناقل عن الأصل الذي يرجع الكل اليه .

وآية ذلك أن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين ، أو من

المتخرجين من كليات «اللاهوت» ، وانهم إن تطرقوا الى الموضوعات الحساسة من الاسلام، حاولوا جهد امكانهم ردها الى أصل نصراني. وطائفة المستشرقين من يهود ، وخاصة بعد تأسيس «اسرائيل» وتحكم الصهيونية في غالبيتهم، يجهدون أنفسهم ارد كل ما هو إسلامي وعربي إلى أصل يهودي وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والاهواء.

لقد غالى كثير من المستشرقين في كتاباتهم في السيرة النبوية ، واجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك فى السيرة . وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول. ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي . وطريقة مثل هذه دفعتهم الى الاستعانة بالشاذ والغريب. فقدموه على المعروف المشهور ، استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا الى نشوزه . تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ ، هو الأداة الوحيدة فى إثارة الشك . ومهما قالوه في نسبة التأريخ الصحيح فى سيرة الرسول ، فأن سيرة الرسول هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سير جميع الرسل والأنبياء .

ومن هذه الطائفة المستشرق « شبرنكر A. SPRENGER » والمستشرق الايطالي « الامير كيتاني » . والأول هو مؤلف كتاب : DAS LEBEN UND DIE LEHRE DES MOHAMMED في السيرة النبوية ، وهو في ثلاثة مجلدات . وقد حاول جهد امكانه الاحاطة بكل ماكان معروفاً في زمانه من موارد عن السيرة ، ومناقشته وتدقيقه ونقده ، على وفق طرق البحث الحديثة التي كانت معروفة في ذلك العهد . وهو مشكور على جهده هذا وعمله من هذه الناحية . كما يشكر كل مؤرخ وباحث يسير على هذا النهج ويتبع طريقة النقد الخالص ، ولكنه ويالالأسف لم يتمسك بالنقد العلمي تمسكاً صحيحاً ، بل جرى مع عاطفته وذهب مذهباً شاذاً جعله يأخذ بالخبر الغريب الضعيف ، لمجرد أنه غريب غير مألوف ، ثم يقدمه على الأخبار المشهورة أو المتواترة، ويبني عليه أحكاماً ، ويأتي بآراء تبدو لمن ليس له علم بالأخبار وبالروايات المتعددة فى كتب السير والتواريخ والتفسير والحديث ، أنها آراء جديدة حسنة ، تشف عن عمق في البحث وتوسع في النقد وصبر على غربلة الأخبار عجيب مقدر. فهو يذكر الآراء ، ويدون الروايات قديمها ومتأخرها ، ثم يناقشها ويفندها ويصححها ، ويطعن في هذا الراوي ويقوم هذا الخبر، ولكنه ، وهذا هو الغريب فيه ، أخذ في كثير من الأماكن بالخبر الغريب

المتأخر الشاذ وبالروايات الاسرائيلية والأخبار المدسوسة ، فاقام لها وزناً وجعل لها اعتباراً ، ثم بنى عليها أحكامه ، وكان عليه التفريق والتمييز بين المتأخر والمتقدم من الأخبار ، ودراسة سند كل خبر ورواية ، والتعرف الى آراء العلماء في اولئك الرواة وحملة الخبر من حيث صدقهم وكذبهم ، ودراسة كل نص دراسة عميقة من الناحيتين : انطباق مضمون الرواية والخبر على روح الاسلام وأحكام القرآن والحديث وروح عصر الرسول ، ودراسة النص من الناحية اللفظية ، لينظر إذا كان صحيحاً ينطبق على اسلوب الزمن الذي ترجع الرواية اليه .

ومن هنا جاء بآراء مغلوطة ، قد تكون سرته وأعجبته وأقنعته بانه قد كشف هفوات وأغاليط في السيرة ، وأنه قد نجح في إثارة كثير من الشكوك سيقف عليها الناس في تأريخ الرسول . ولكنه في الواقع لم يأت بشيء جديد ، فان ما ذكره وأورده لم يكن من لدنه ولا من ظفره به في موارد لم تكن معروفة ، بل هو مسطور في كتب السير المطبوعة والمخطوطة ، وقد قرأه الناس ، لم يجدوا في ذلك حرجاً ولا غضاضة . وكل ما فعله هو أنه ـ كما قلت ـ اختصر تلك الأخبار ثم ناقشها ونقدها وبين مافيها من قوة أو ضعف، إلا أنه بدلاً من أن يستمر في نقده على وفق الاسلوب العلمي ، ركبه هوس حب الخبر الغريب النادر ، فقدمه على المشهور المتواتر ، وأخذ بالروايات الضعيفة وبالقصص الاسرائيلي وبروايات الضعفاء ، مع نص العلماء على فسادها ،فقواها وساندها وأقام لها وزناً ، واستند الى أخبار « السيرة الحلبية » كثيراً ، وفي هذه السيرة كما هو معروف حشو وقصص اسرائيلي نبه عليه العلماء ، فكان عليه أن يدرك ذلك، ولكنه لم ينتبه ، ولم يأخذ بوجوب تطبيق أصول النقد عليها ، فوقع ويا للأسف عمداً أو سهواً في أغاليط ، وفي أحكام فندها جماعة من المستشرقين .

وأما (كيتاني) ، فقد سلك أيضاً مسلك (شبرنكر) في دراسة السيرة من ناحية الرجوع الى موارد كثيرة ومن الاحاطة جهد إمكانه بكل ما ورد عن سيرة الرسول ومن دراسة كل خبر ونقده والبحث عن رواته، ووقع في مثل أغلاطه فقد أولع بالخبر الغريب، وأخذ بالروايات المتأخرة الضعيفة التي لا نجد لها أصولاً في كتب السيرة القديمة وفي

الموارد الأخرى ، وأبدى فيها آراء مبنية على العاطفة في الغالب ، فوقع من ثم في تلك الأغلاط . وقد أثار (كيتاني) كثيراً من التحفظات والشكوك في الذي كتبه عن الرسول أعجبت المعجبين المولعين بطريقة المستشرقين في البحث وفي كتابة التاريخ ، دون أن يطلعوا بالطبع على مواطن الضعف عند هؤلاء المستشرقين ، كما أنه تهجم على بعض الرجال مثل (ابن عباس) فاتهمه بالكذب ، لورود روايات يرجع سندها اليه ، وهي متناقضة أو غير صحيحة ، فحكم عليه حكمه القاسي من غير أن يفطن الى أن كثيراً مما أسند الى ابن عباس هو مما دس عليه ، وليس له دخل فيـــه ، لأنه أضيف اليه فيما بعد لأسباب عديدة سياسية وغيرها لا مجـــال هنا للبحث فيها . وقد بحث فيها بعض العلماء وأشاروا الى « سلسلة الكذب » ، التي يصلها الرواة الضعفاء بابن عباس ، كما بحثوا في الاسرائيليات التي أضيفت اليه ؛ وقد أخذها « كيتاني » وغيره على أنها أخبار صحيحة وردت عنه حقاً !

وطريقة هذه الطائفة وتلك من المستشرقين في النقد جعلت بعض المؤرخين الاسلاميين يتهيبون أساليب أصحابها ويرمون الداعين اليها بتهمة الغرض والقصد السيء وهم لا يقصدون من ذلك الاعراض البات عن النقد ، وعدم تمحيص الروايات وجرحها بل هم ينكرونها لأنهم يرون في هذا النوع من النقد الذي يدعون اليه مخالفة لقواعد النقد وأصول البحث ، لأنه تعد قائم على قصد معين ، ورأي مقرر ، وليس ذلك النقد إلا وسيلة مصطنعة لاثبات ذلك القصد .

والذين يؤآخذون المستشرقين على سلوكهم هذا المسلك من النقد ، يؤاخـــذون كذلك كل من يحاول من المسلمين كتابة التأريخ متأثراً بعاطفته وهواه ، فهم لا يريدون توجيه اللوم الى المستشرقين وحدهم ، لتأثرهم بعاطفتهم ، ثم يتركون من يركب هذا المركب من الشرقيين دون لوم ولا تعنيف .

ومن هؤلاء كان الشيخ محمد الخضري رحمه الله ، في صـدر محاضرته الأولى التي ألقاها في الجامعة المصرية والمطبوعة بعنوان : « محاضرات في تأريخ الأمم الاسلامية » . فقد أنحى باللائمة على المؤرخين المندفعين في كتابة تواريخهم بحكم عواطفهم التي تتحكم فيهم ، فيجعلون « كل ما ليس بحسن حسناً ، ويجتهدون في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه

غضاضة ، حتى ما أدي منها الى سقوط فاعله وخيبته ، وعاطفة الكراهة تدعو الى ضد ذلك ، فتجعل الحسن قبيحاً ، وتستنبط من الخير شراً ، ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التأريخ ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلا نفر قليل جداً . » الى أن قال : « فلابد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تأريخ أمم إن كانت أخطأت في بعض تصرفاتها ، فليس علينا من تبعة ذلك الخطأ شيء . وليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه ؛ وإن كانت أصابت المحجة ، فان ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم ؛ لذلك يحتاج دارس التأريخ إلى سعة صدر يحتمل كل مايرد على تأريخ قومه من نقد ، حتى لاتبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض » (١)

ويجب علينا أن نعترف أن هنالك سلطاناً آخر يخضع المؤرخ في كثير من الأحيان اليه ، هو سلطان الرأي العام . فالمؤرخ مضطر بحكم مقامه بين مواطنيه أن يراعي شعورهم وإلا عرض نفسه للمكروه من قول أو أذى، ولهذا يضطر أن يمر بالقضايا الحساسة منه مراً خفيفاً ، أو دون نقد ولا إبداء رأي .

ومادة المؤرخ وعلمه من الموارد التي تتوفر لديه ، والوثائق التي تكون قد تكدست بين يديه . ولما كان موضوع هذا الجزء هو تأريخ أيام الرسالة ، فقد وجب علينا البحث عن الوثائق التي تتصل بتلك الأيام ، والموارد التي يرجع تأريخها الى أيام الرسول أولاً ، لنستمد منها علمنا بأحوال العرب في عهد الرسالة ، ولنقف منها على كيفية انتشار الاسلام .

وقد أجهد المؤرخون أنفسهم في البحث عن نصوص مكتوبة تعود الى القرنين السادس والسابع الميلاديين ، فلم يعثروا على نص مدون بأية لغة له علاقة بسيرة الرسول وبكيفية انتشار الاسلام في زمنه . وكل ماوصل الينا هو مما يعود عهده إلى مابعد انتقال النبي الى الرفيق الأعلى . فهو إذن من النوع المتأخر .

حتى أرض اليمن ، وهي أرض كريمة سمحة أغنت المؤرخين بالآلاف من الكتابات ، بخلت علينا هذه المرة بخلاً شديداً ، فلم تتكرم علينا بنص عن هذا العهد ،

---

(١) الخضري : محاضرات تأريخ الأمم الاسلامية ، الجزء الاول « الطبعة السابعة » ص ٣ ومابعدها .

أو عن العهد الذي يلي عهد استيلاء الحبشة على اليمن . فكان عهد احتلال الحبش لتلك البلاد ، هو آخر عهد ، تفضل فأكرمنا بعدد من الكتابات .

أما مكة والمدينة ، وطنا الاسلام ؛ فقد لاذا ويا للأسف بالصمت وما زالتا عليه ، مع وجود الكتابة فيهما فى أيام الرسول ، ووقوع حوادث الاسلام فيهما . وكتابة واحدة من ذلك العهد ، يعدها المؤرخ ثروة قيمة . وليس لنا تجاه هذا الوضع إلا الانتظار ، فلعل الأيام تجود على عشاق التأريخ بنص مدون أو نصوص مدونة تعود الى أيام الرسول . حتى القراطيس والألواح التي دون كتاب الوحي عليها آيات الله ، لم يبق منها شيء ، مع أهميتها وقدسيتها . أما نسخة القرآن الكريم التي كانت لدى حفصة بنت الخليفة عمر ابن الخطاب ، أو نسخة عثمان وبقية النسخ التي أمر بتوزيعها على الأمصار . فلم يبق منها شيء كذلك . ولم يبق كذلك أي أثر لنسخ المصاحف الأخرى التي كان الصحابة قد كتبوها لأنفسهم . ومنها نسخ كتبت فى أيام الرسول . وأما ما يقال عن وجود نسخة أو نسخ مكتوبة بخط الامام علي أو نسخة عثمان ، فكلام يحتاج الى دليل مقنع ، والى حجة دامغة تقوم على أساس من الاقناع والبرهان .

وليس في يد أحد هذا اليوم أصل من أصول كتب الرسول الى الملوك والرؤساء والى القبائل والعمال الذين بعثهم الى اليمن أو الأماكن الاخرى ، ولا نملك كذلك أصلاً لكتابة من الكتابات المدونة في أيام النبي أو خلفائه ؛ وهو أمر يبعث الأسف حقاً . ولو كان للناس فى ذلك الزمن علم بقيمة ما كان لديهم ، وبأهميته بالقياس الى من سيأتي بعدهم ، لحافظوا عليه ولا شك ، ولساعدوا فى وصوله الينا سالماً . واذا اردنا لومهم على تساهل ظهر منهم ؛ فعلينا لوم أنفسنا أولاً ، فاننا ونحن في القرن العشرين لم نزل في جهل عميق أصيل في ادراك قيم الوثائق والسجلات ، فأضعنا بذلك وثائق خطيرة من تاريخنا القديم والحديث ، وأتلفنا أثمن الآثار والمخلفات ، ومزقنا كثيراً من القرارات الخطيرة عمداً وعن غرض ، وسيأتي يوم ولا شك يجد فيه الناس أنفسهم فى هذا الوضع المؤسف الذي نتحدث عنه . فما الذي سيقوله عنا أولئك الخلف حينما نكون فى الذاهبين الهالكين . أما أنا ، فأعطيهم الحق مقدماً في كل ما سيقولونه عنا ، وما سيكتبونه لمن سيأتي بعدهم من الناس الواعين .

وكل ما وصل الينا عن ايام الرسالة ، مكتوب بالعربية التي نزل بها الوحي ، أي بعربية القرآن الكريم ، ولم يصل الى علمي عثور أحد على مورد عربي مكتوب بلهجة عربية أخري غير هذه اللهجة التي يطلق العلماء عليها « العربية الفصحى » وأقدم ما وصل الينا بالعربية الفصحى . يعود عهده الى أيام العباسيين . وليس فيه مؤلف مكتوب في عهد الأمويين .

وقد فقدت أصول كل ما ألف في العهد الأموي، وفي جملة ذلك ما ألف في سيرة الرسول . ولم يبق منها غير اقتباسات ونتف ؛ تجدها في بطون كتب السير والمغازي ، وفي بطون كتب التواريخ والأدب . وهو بالطبع أمر يؤسف عليه الأسف كله . وكأن الزمان الذي تنكر للأمويين ، فقضى على حكومتهم في الشرق ، أراد ان يقضي على كل ما ألف في ذلك العهد وصنف ، حتى ولو كان في أمور أخرى لا تتصل ببني أمية ؛ فأزاله من عالم الوجود جملة وتفصيلا .

أما أيام الرسول ؛ وأيام الخلفاء الراشدين ، فلم يرو أحد أن أحداً قد ألف فيها أو دون وجمع . وكل ما وصل الينا هو فيما يخص جمع كتاب الله . وأما ما يخص حديث رسول الله ، فتكاد تجمع الروايات على أن الناس كانوا يتهيبون تسطيره في كتاب، وجمعه في أجزاء ، خوفاً من أن يكون مع كتاب الله كتاب آخر ، كالذي حدث عند يهود ، وشفقة على المسلمين من أن يتخذوا حديث رسول الله قرآناً ثانياً يقرؤونه ، ثم يقولون بعد ذلك إنه وحي أوحي اليه ، تنزل به الروح الأمين من عند الخالق رب العالمين .

ولكن أكل ماورد في بطون الكتب وما جاءت به الأخبار المحفوظة هو قول منزل حق لا ريب فيه ولا شك . أنؤمن بما آمن به غيرنا ، فنقول إن الصحابة ، لم تؤلف ولم تدون ولم تجمع ؟ وبين الصحابة والتابعين جماعة كانت تشتري الكتب من بلاد الشام ومن أماكن أخرى ، وجماعة كانت على حظ عظيم من الحكمة والعلم ، وجماعة كانت تراجع أحبار يهود ورهبان النصارى تسألهم وتجادلهم وتقارعهم الحجج وتحكم بين الناس فيما هم فيه مختلفون .

قد يقول الناس : نعم، إن ماجاء في الروايات حق ، وإن ماذكره القدماء عن إحجام الصحابة والتابعين عن الكتابة والتصنيف والتأليف حق لاريب فيه ، لا يأتيه الباطل أبداً ، وقد يقولون أكثر من ذلك . أما أنا ، فأقول: أيها الناس ، أنا لا أشاركم رأيكم هذا ، ولكم دينكم ولي دين . ولن يدخل في عقلي توقف أحد من الصحابة أو التابعين عن التأليف والتصنيف والجمع ، ولهم ماتقولونه عنهم من العلم والحكمة والقابليات ، وبينهم أناس أوتوا حظاً من العلم قبل الاسلام ، وقد تعلموا القراءة والكتابة في الجاهلية ، ورووا لقومهم قصص الماضين وأخبار الفرس والروم .

هل يعقل عدم تدوين الصحابة شيئاً ، وقد ابتدأ الوحي بـ « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق . إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم . » ؟ (١) وقوم يبتدىء الوحي عندهم بهذا الابتداء ؛ لايعقل أبداً أن يتركوا القلم وينامو ؛ ثم لاينشط واحد من بينهم فيكتب أو يدون شيئاً .

نعم ، قد يكون احجام الصحابة عن جمع حديث رسول الله وتدوينه بسبب ماذكره الرواة والمؤرخون ، وهو بسبب خشيتهم من ظهور كتاب مع كتاب الله . ولكن ما الذي خشيه الصحابة من تدوين سيرة رسول الله ، أو أحوال الماضين أو أمور أخرى من الأمور التي قد لا تحمل على هذا المحمل والتي تفيد القوم وتنفعهم ؟ قد يكون غلاء القراطيس وارتفاع أسعار مادة الكتابة من بين هذه العوامل التي حالت بينهم وبين التدوين . وهذا سبب معقول مقبول جداً في بيان سبب عدم انتشار الكتابة في ذلك العهد : ولكن هل كان جميع الصحابة من الفقراء المعوزين ؟ لا : لقد كان من بين الصحابة والتابعين أناس لم تكن أحوالهم المالية سيئة ، حتى تحول بينهم وبين التدوين . ومن له شغف وولع بالعلم لا يثني عن الاشتغال به مهما كانت أحواله المالية سيئة .

وأنا في هذا المكان لا أريد أن أحمل القارىء على الاعتقاد بأن ذلك العصر الذي نتحدث عنه كان عصر تأليف وكتابة ، وأنه كان عصر كتبة ومؤلفين ، فقد كانت

---

(١) سورة العلق ، الآية الاولى وما بعدها ، السيرة الحلبية (٢٧٦/١) « باب بدء الوحي صلى الله عليه وسلم » .

لتلك الأيام مشكلاتها وشواغلها، وقد كان للقوم عمل مرهق وواجبات كثيرة ، تحول بينهم وبين التأليف والكتابة ، وكل ما أريد أن أقوله هو أن من غير المعقول تصور خلو ذلك العصر من كتبة ومن مؤلفين ومدونين وجماعين ، ومن أناس انصرفوا الى تدوين أحوال أيامهم على الأقل . وإذا كنا عاجزين أن نأتي بأدلة تؤيد ما نقوله ، فان عجزنا لن يكون دليلاً على عدم وجود التأليف في ذلك العهد . ثم إننا لم نجهد أنفسنا اجهاداً في البحث عن آثار ذلك العصر ، ولم نكبد أنفسنا مشقة التنقيب في مظانها وفي مواطنها أو في الأماكن الأخرى فاذا فعلنا وعجزنا وأيسنا ؛ جاز لنا حينئذ اليأس، وساغ لنا قطع الأمل ، وحق لنا بعض الحق القول بعدم اشتغال أحد ممن نعنيهم بالكتابة . أما وأننا لم نفعل من ذلك شيئاً ، فليس لنا إلا الانتظار ، فقد يكون فيه الفرج ، وقد يأتي منه خير كثير .

والمؤرخ الحصيف الناقد ، لا يكتفي في بحثه عن تأريخ عصر الرسالة ، بما اكتفى به أكثر المؤرخين من توجيه جل عنايته الى الناحية السياسية والغزوات ، بل عليه أن يتخطى حدود هذه الناحية إلى نواح أخرى ، إلى دراسة أحوال السواد الأعظم من الناس ، والى التطورات الفكرية والاقتصادية والحياة الاجتماعية والدينية والثقافية في ذلك العهد ، والى أثر الأفراد البارزين في مجتمع ذلك اليوم . والى أثر الاسلام في الحجاز وفي العرب أجمعين .

فليس الاسلام ثورة قامت لقلب نظام ووضع نظام جديد ، وليس الاسلام ديانة صرفة بالمعنى المفهوم عند الغربيين في الزمن الحاضر ، أي مجرد عبادات حدودها الكنيسة والبيت لا يتعداها الى الحياة العامة والسياسة والادارة ، وليس الاسلام ناحية واحدة من نواحي هذه الحياة ؛ ولكن هذه النواحي كلها وغيرها . إنه في نظر أهله ، عبادات ومعاملات ، دين ودنيا ، دين ودولة ، لا تفريق فيه بين أي كان من ذلك .

والاسلام ينظم للمسلمين أمورهم الدنيوية ، كما ينظم أمورهم الدينية وواجباتهم تجاه الخالق ؛ لا تخلو ناحية من نواحي الحياة المعروفة إلا نظمها على وفق قواعده وأسسه، ولهذا لزم أن يكتب تأريخه على وفق هذه القواعد والاسس ؛ وأن تدرس كل النواحي التي أحاطت به ؛ وبالحجاز وبجزيرة العرب في الجاهلية وعند ظهور الاسلام .

العربية ، هو تحامل الموارد الأعجمية على الاسلام وتلفيقها بعض الأخبار على الرسول زاعمة أن ما تذكره هو حق واقع ،وهو في الواقع باطل مبعثه الجهل والعصبية الدينية والسياسية ليس غير .

وقد كتب هذا المذكور عن الاسلام في زمن كان الاسلام فيه قد قضى على الانبراطورية الساسانية ، واقتطع أغنى أجزاء الانبراطورية البيزنطية وأخصبها وأهمها . وكان النصارى فيه يدخلون أفواجاً افواجاً في دين الله ، مما أفزع رجال النصرانيـــة وأذهلها ، حتى صور اليها أن الاسلام سيقضي على دين المسيح ؛ وأنه يتتبعه في كل مكان ، وهذا مما جعلهم يحقدون عليه ويرمون النبي والاسلام بالكذب وبالتهم الأخرى لعواطفهم التي تغلبت عليهم ، ولتصورهم أن في هذا النوع من التشنيع ابعاداً للنصارى عن التقرب الى الاســـلام ، وتنفيراً لهم عن الدخول فيه ؛ وذلك على نمط ما تفعله المذاهب السياسية في هذا اليوم من تشنيع بعضها على بعض ، لاعتقادها أن في ذلك كسباً ونجاحاً وظفراً .

وعندي أن عدم مبالاة البيزنطيين بالعرب ، واستصغارهم لهم ، كانا من العوامل التي ادت الى عدم اهتمام مؤرخيهم بتدوين تأريخ العرب والمسلمين ؛ والى ضياع بلاد الشام ومصر منهم ، نتيجة ذلك الجهــــل . فـلم يكن العرب في نظر الروم الا قبائل ضعيفة تابعة ، كل ما تتمكن أن تفعله هو غزو بعضها بعضا ، وغزو حدود الروم والفرس ، ولهذا لم تحفل بها إلا من هذه الناحية ، ولم يتحدث مؤرخوهم عن العرب إلا في المناسبات المتصلة بأمثال هذه الشؤون .

وعلينا أن نعترف أن كتابة التأريخ نفسها لم تكن نشطة في هـــذه الأيام بين البيزنطيين ، وأن هذا الخمول قد كان له أثره في عدم تدوين شيء عن العرب والاسلام في أيام الرسول وفي أيام خلفائه الراشدين .

كما أن علينا أن نبين أن جل من إشتغل بتدوين هذا التأريخ كانوا من رجال الدين ، وقد أثرت دراستهم الدينية القائمة على العقيدة والايمان في طريقـــة تدوينهم للتأريخ وتفسيرهم للحوادث . حاولوا جعل التأريخ في خدمة الكنيسة والعقيدة ، ولهذا تضاءل النقد ، ونزل الجزم عندهم منزلة الصدارة ، وتضاءلت الملاحظات والتأملات

التي عرف بها المؤرخون السابقون ، وأصبح التأريخ مجرد سرد حوادث وتدوين أرقام ووقائع ، جافة مملة في الغالب ، لا رواء فيها ولا حياة . تمثل طبائع كاتبيها ، الذين تزمتوا وقسوا على أنفسهم ، وانصرفوا عن الحياة نفسها إلى عالم قاس يقوم على التدوين والتسجيل ، دون نقد ولا مناقشة ولا تعليل .

ومن رجال هذه الطبقة أسقف عاش بمصر وألف بها ، اسمه « يوحنا النيقي» John of Nikiu » . وقد ولد على ما يظن في أيام فتوح المسلمين لمصر . وكان رئيساً للأديرة في سنة « ٦٩٦ » للميلاد . وقد غاضه ما رآه من إقبال المصريين على الاسلام ، ومعاونتهم للمسلمين على إخوانهم في الدين الروم ، وحنق عليهم لهذا السبب . ونرى آثار هذا الحنق في تأريخه المؤلف باليونانية ، المنقول الى الحبشية عن ترجمة عربية ضاع أصلها ، ولم يبق منها إلا قليل . وعن هذه الترجمة الحبشية عملت الترجمة الانكليزية (١) .

وللحكم على مبلغ حنق صاحب هذا التأريخ على الاسلام ، وعلى مقدار تأثره بعاطفته ، لا بد لنا من عرض بعض ما ذكره عنه . وقد نعت الاسلام بـ "The Faith of the beast" . وقال ما معناه عن كيفية إنتشار الاسلام بين المصريين :

« وفي أيامنا هذه ، ارتد كثير من المصريين ، ممن كانوا نصارى كذباً ، فهجروا الديانة القويمة ، وتركوا التعميد ، ودخلوا في الاسلام دين أعداء الله ، وقبلوا دين الوحوش : دين محمد ، وتعاونوا مع عباد الأصنام ، وحملوا معهم السلاح ، وحاربوا النصارى .

ومن هؤلاء : « يوحنا الخلقدوني John the chalcedonian » من رهبان سيناء . دخل في الاسلام ، وجنح عن الرهبانية ، فحمل السيف ، وتعقب النصارى المؤمنين المخلصين لربنا يسوع المسيح (٢) » .

وقد فسر هذا الراهب انتصار الاسلام على النصرانية ، وانهزام البيزنطيين في مصر ، بانه عقاب من الرب للنصارى ، لابتعادهم عن دينه القويم ، وخروجهم على أوامر الرب (٣) . وهو تفسير طالما نقرؤه في التواريخ المكتوبة على هذا الطراز . ففسرت

(1) The Chronicle of John, Bishop of Nikiu. Translated from Zotenberg's Ethiopic text, by R. H. charles, 1916.

(2) P. 201.

(3) P. 203.

ودراسة على هذا النحو توجب على المؤرخ التوسع والتبسط في مراجعة المظان والموارد . وهو كلما توسع فيها ، كانت إحاطته بأحوال العصر أشمل وأحسن وأعم .
والقرآن الكريم ، هو سندنا وملاذنا في معرفتنا بتأريخ الاسلام ، وبأحوال العرب في ذلك العهد . ثم كتب التفاسير وأسباب النزول وكل الكتب المؤلفة حول كتاب الله ، لشرحه وإيضاحه للناس . ثم الحديث ، حديث رسول الله وعمله ، وكتب السير والمغازي ، والتواريخ من عامة وخاصة .

ويحمل الجشع المؤرخ على التهام مصادر أخرى ، والبحث عن موارد تفيده في زيادة علمه وتعينه على الاحاطة بأحوال العرب المعاصرين للاسلام ، ليس في الحجاز حسب ، بل في أنحاء أخرى من جزيرة العرب وفي خارج الجزيرة أيضاً . فهو يرد الشعر من ناحية مايخص الحياة العامة ، ويرد كتب الأدب ليرى ماورد فيها مما يخص أحوال القوم في أيام الرسالة . وكتب الأدب في العربية مزيج من أدب وتأريخ ، حتى ليصعب عليك أحياناً البت في الفرع الذي يقع الكتاب فيه : أهو في فرع التأريخ ، أم في فرع الأدب . وهو يرد كل مايخص هذا العصر ؛ وان كان أسطورة أو مثلاً ، لأن في الذي تقوله تعبيراً عن نفسية العصر واتجاه الناس ، عبر عنه بهذا النسق من التعبير ، لسبب من الأسباب . فهو إذن ضرب من ضروب الكلام ، ونوع من أنواع التعبير عن كوامن النفس .

والأمثلة العربية القديمة والقصص الجاهلي والاسلامي مصدر مهم في معرفة تأريخ الاسلام وفي معرفة الظروف والأحوال التي كانت تسيطر على العرب عند ظهور الاسلام . فيها وفي أمثالها ثروة تأريخية ربما لايظفر بها المؤرخ في الموارد التأريخية المعروفة المتداولة بين الناس .

ولكل ماتقدم وجب على المؤرخ لتأريخ الاسلام أن يتوسع في موارده جهد امكانه ، وأن يفتش عن منابع جديدة ليضيف مايرد فيها إلى هذا الذي نعرفه عن تأريخ الاسلام ، حتى يتمكن من تكوين صورة واضحة صحيحة صريحة لهذا التأريخ .

والكلام على كل مورد من هذه الموارد ، نوع من الفضول ، يخرجنا عن حدود عملنا في هذا الكتاب إلى عمل آخر ، يجب أن يكون في حد ذاته في مجلدات ، لكثرة

ما يجب التحدث عنه . فليس لنا مانصنعه في هذا المكان إلا الاكتفاء بهـــذا التنويه ، ولاسيما أننا سنذكر أسماء الموارد التي سنأخذ منها في هوامش الصفحات .

وبعد ، فان مادة تاريخ صدر الاسلام وموارده ، وان كانت عربية خالصة ، عليها يجب أن يكون اعتماد المؤرخ ورجوعه ، غير أن على المؤرخ أن يرجع الى ما كتبه غير العرب في الاسلام أيضاً ، وان كانوا قد كفروا به وجحدوه ، فان الاسلام لم يقتصر على جزيرة العرب وحدها فلم يتعدها ، ولم ينتشر بين العرب وحـــدهم فلم يغادرهم الى شعب آخر ؛ بل وجـــه رسالته منذ يومه الأول الى العالم ، وشرع فى نشره بين الأمم الأخرى فى حياة الرسول ، وتجاوز حدود بلاد العرب فى أيام الراشدين ، فطهر أرض الساسانيين وقضى على الانبراطورية ، وفتح أرضين عظيمة واسعة كانت في حكم البيزنطيين . ولهذا وجب علينا أن نعرف ما قاله الساسانيون والبيزنطيون والأقباط والسريان والأرمن وكل من احتك أو أصطدم بالاسلام ، وما كتبوه في الاســـلام وفي فتوحه وانتشاره وما وعوه وفهموه عنه . إن خيراً كتبوا ، وان شراً ، ففي النوعين فائدة للمؤرخ وللقارىء . وفى الذى كتبوا ولا سيما عن الفتوحات ، بعض امور تفيدنا كثيراً في سد الثلم الكثيرة التي نجدها فى كتب المؤرخين الاسلاميين ، لبعد هؤلاء المؤرخين عن المواضع التي وقعت في تلك الفتوح ، ولعدم اهتمامهم فى الغالب اهتماماً كلياً بها ، لأنها لم تكن بالنسبة اليهم من الأمور التى تستوجب هذا الاهتمام ، بينما هي على جانب كبير من الخطورة بالنسبة لغيرهم ، لوقوعها فى ارضهم وفي بلادهم ، ولهذا صارت أخبارهم عنها ذات أهمية فى تدوين تأريخ الاسلام .

وعلي قبل أن اتكلم على أي مورد من هذه الموارد أن اعترف للقارىء بأني لا أستطيع أن أذكر له أسم مورد واحد من الموارد الأعجمية بما يرتقي عهده الى زمن النبي. فليس بين الموارد التأريخية التي وصل علمها الينا مما يرتقي تأريخه الى هذا العهد ، كما أني لا استطيع أن اقول له إن فى الموارد المؤلفة فيما بعد شيئاً جديداً عن الاسلام في أيام النبي بالنسبة الى القارىء . ولذلك فليس له أن يطمع في أن آتى له بشىء جديد قاله كتبة النصرانية فى النبي في هذا العهد وهو لم يرد فى الموارد الاسلامية . ولكني أستطيع أن أؤكد له من ناحية أخرى أن في هذه الموارد شيئاً جديداً بالقياس الى قراء الموارد

وقـــد تعرض : « يوحنان بن بنكاية Johanan bar Penkaye » ، حوالي سنة ٦٨٥ م » في الفصلين الرابع عشر والخامس عشر من تأريخه العام لأمور المسلمين ، والتغير الذي طرأ على العالم بظهور أبناء « هاجر » أي العرب ، واندحار الساسانيين وزوال ملكهم ، بعد أن كانوا يرفعون أنوفهم فوق الأنوف غطرسة وكبرياء .

وقد نسب انتصار المسلمين إلى إرادة الله وقضائه وقدره . فقد أراد الله أن يرغم أنف المملكة المتغطرسة الظالمة العاصية لأمره بأن سلط عليها قوماً « حفاة ، أكثرهم أشباه عراة ، لا يملكون سلاحاً يقاتلون به ولا قـوة ، فاجتاحوا الانبراطورية ، وتغلبوا على أقوى محاربي العالم في أيامهم ، ولم يكن لينتصر « أبناء هاجر » لولا قدرة قادر ، وأمر من الله (١) ».

وقد تعرض لنزاع علي ومعاوية ، وأثنى على معاوية كثيراً ، وذكر أنه كان عادلاً قديراً ، انتشر الأمن في زمانه ، وعامل النصارى معاملة طيبة ، ولم يفرق في المعاملة بين رعيته . ووصفه بالكفاية والحزم . ونجد في تأريخه ثناء على المسلمين ، لعدلهم ، ولحسن معاملتهم للنصارى ، وإنصافهم لهم (٢) .

وقد تطرق « يعقوب الرهـاوي Jakob von Edessa » في كتاباته لأحوال المسلمين وأحـوال النصارى في حكمهم . وهو من « المنوفيزيتين Menophysitian » ، أي القائلين بالطبيعة الواحدة . وتفيدنا كتاباته في تشخيص أحوال النصارى في القرن الثامن للهجرة (٣).

وفي دار كتب الفاتيكان نسخة خطية لكتاب في التأريخ في أربعة أجزاء ، كتب سنة « ٧٧٥ » للميلاد ، في « رهبانيـة زقنين Kloster von Zuqnin » . وقـــد تناول الجزء الرابع منه حوادث أيام المؤلف المجهول ، وتعرض فيه لأحوال الاسلام والمسلمين ، وتشكى من الجزية الباهظة التي فرضها الحكام ، ومن الضرائب التي تؤخذ من السكان ، حتى أثقلت كاهلهم ، وأضرت بجميع الناس (٤).

---

(1) Dionysius, S. 5, A. Mingana, Sources Syriaques, Leipzig, 1908, Vol., I, P. 146, Baumstark, S. 40,

(2) Mingana, P. 1455, Dionysius, S. 8.

(3) Dionysius, S. 8, 16, chronican Jocobi Edesseni ed., E. w. Brooks.

(4) Geschichte der christlichen Litteraturen, S. 52.

وكانت لـ « ثيموثايوس الكاثوليكي Catholicos Timothy » « Katholikos »

« Timotheus » ، وهو من النساطرة ، مناظرات دينية في حضرة الخليفة المهدي سنة

« ٧٨٣ م » . وقد كان كما يتبين من كتاباته من الواقفين على أحوال الاسلام(١).

وزار رجل دين آخر الخليفة المهدي ليجيبه عن بعض أسئلة كانت قد أشكلت

عليه . وإسمه « ثيوفيلوس بن توماس الرهاوي Theophilus sohn des Thomas aus

Edessa » وهو من المارونيين ، وصاحب مؤلف في تأريخ الخليقة والعالم . وقد نقل

« الأليـاذة والأوديسة Ilias and Odyssee » الى السريانية (٢).

وقد حوي التأريخ العام لـ « ثيوفانس Theophanes the Confessor » المتوفي سنة

(٨١٧) أو (٨١٨ م) ، أموراً عديدة في التاريخ الاسلامي ، خاصة ما يتعلق منها بصلات

العرب مع الروم والفتوحات الاسلامية . والمؤلف من رجال الدين ، ومن المدافعين

عن عقيدة تقديس الصور والحاملين على خصومها ، ولدفاعه هذا سجن ونفي ؛ لأن

الحكومة ، وعلى رأسها القيصر ، كانت تري تحريم الصور . فأمر القيصر « ليون

الخامس » بسجنه ونفيه . وقد شغل هذا الرأي البيزنطيين مدة تزيد على مئة عام ، من

سنة (٧٢٦) الى سنة (٨٤٢ م) . وكان لعقيدة الاسلام في تحريم التقرب الى الصور

وتقديسها أثر كبير في ظهور هذه المشكلة عند البيزنطيين .

ولم يكن « ثيوفانس » من المؤرخين المنصرفين الى التأريخ ، بل كان رجل دين ،

اضطره صديق له اسمه « Georgios synkellos » الى التأليف ، حينما أخـذ عهداً

عليه وهو على فراش الموت أن يتم كتابه في التاريخ الذي شرع في تأليفه ، فلم يكن

أمام « ثيوفانس » ، وقد أعطى العهد إلا إتمام الكتاب .

وقد استند هذا التأريخ إلى موارد سابقة ، فقدت ، ولم تبق من أكثرها لسوء

الحظ بقية ، كما حوى أموراً لا نجدها في موارد أخرى ، ولاسيما مايتصل منها بحوادث

السنين الواقعة مابين (٧٦٩) و (٨١٣ م) . ويكاد يكون المورد البيزنطي الأكبر في

التأريخ لهذا العهد .

---

(1) Dionysius, S. 8, Woodbrooke, studies Christian documents in Syriac, Arabic and Gershumi, Edited by, A. Mingana, Vol., II, cambridge, 1928.

(2) Dionysius, S. Geschichte der christlichen Litteraturen, S. 52.

الثورة الفرنسية مثلاً في بعض الكتب وظهور نابليون بأنها غضب من الله على الشعب ، لأنه ابتعد عن الكنيسة ، وخالف أوامر الرب .

وقد فزع رجل دين آخر من انتشار الاسلام ومن دخول النصارى فيه أفواجاً أفواجاً ، فكتب بحوثاً في اليونانية لارشاد إخوانه في الدين ، ولتعليمهم أمور دينهم ، ولرد الشبهات التي تكونت عندهم من انتشار الاسلام في بلاد الشأم . وقد حمله عمله هذا على التعرض للاسلام ، والاستشهاد بالقرآن الكريم وبالحديث على صحة النصرانية . وفي الذي ذكره فوائد للمؤرخ ، تيسر له الوقوف على وجهة نظر رؤساء النصرانية في الاسلام وفي شرح بعض الحوادث التي لم يرد لها ذكر في مؤلفات المؤرخين الاسلاميين.

ويعرف هـــذا الرجل الذي أتحدث عنه بـ « القديس يوحنـــا الدمشقي » « St. Johannes Damacenus » . وقد ولد حوالي سنة ٦٧٥ م ، وتوفي في الرابع من ديسمبر ٧٤٩ م . وهو من أسرة كانت في أيامها شهيرة معروفة . فكان أبوه في خـــدمة الخلفاء الأمويين، وله منزلة وحظوة عندهم . وكان هو نفسه من المقربين اليهم والمتصلين بهم ومن الذين يستشيرونهم في مهمات الأمور . وقد يسرت له ثروة أبيه سبيل التثقف بثقافة عالية ، فتضلع بالسريانية ، وأتقن اللغة اليونانية حتى صار كاتباً بارعاً فيها مع أنه لم يكن من أصل يوناني ، ولعله كان من البارعين بالعربية كذلك(١).

وقد نسب « يوحنا » الاسلام الى الهرطقة « Heresy »، وادعى أن الرسول أخذ علمه من رجل من أهل الكتاب ، أو من رجل من الهراطقة الأريوسيين « Arian » . وهو قول سبق أن زعمته قريش قبله ؛ وأشير الى زعمهم في القرآن الكريم(٢) . وزعم ايضـــاً أن الرسول كان قد نظر في التوراة والانجيـــل ، وأنه تعلم منها وتنبـــأ

---

(١) توفي قبل سنة ٧٥٤ م راجع :

Bilderstreit und Arabersturm in Byzantu z das 8 Jahrhundert (717-813) aus der weltchronik des Theophanes S. 136, Basilius Studer, Die, Theologische arbeitsweise des Johanes von Damaskus, 1956, S. 12, Hieronymus, menges, Die Bilderlehre des hl. Johannes von Damaskus, 1937.

(2) De Haeresibus. in Migne Patrologia graeca, vol. 94, 1864, the Muslem world, Vol., XLI, No.,2, April 1931, October, 1934, PP. 392.

« Pseudo-Prophetes » ، كما زعم أن الاسلام إنما انتشر بحد السيف ، لا بالحجج والاقناع . وفى جملة ما قاله : يتهم المسلمون النصارى بعبادة التماثيل المصنوعة من الحجارة والخشب ، مع أنهم هم أنفسهم يقبلون الحجر الأسود ، ويتقربون اليه ، وهم فى عملهم هذا لا يختلفون عن النصارى في تقبيلهم التماثيل أو الصليب (١) .

ورأى في ظهور الاسلام علامة من علامات الدجال « Anti-Christ ». وقد أثرت نظرية ظهور الدجال تأثيراً كبيراً فى عقلية نصارى بلاد الشام فى هذا العهد . وقد ورد في بعض المؤلفات السريانية أن من علامات الدجال انطلاق العرب من يثرب ، وتغلبهم على الروم (٢) .

ويعد « يوحنا الدمشقي » ، عهد الجادة للمستشرقين المعروفين بتحاملهم على الاسلام . فأكثر ما يزعمونه ويذكرونه عنه ، هو مما كان قد قاله ودونه قبلهم بما يزيد على ألف عام .

وجرأة « يوحنا » هذه على الاسلام ، مع قربه من الخلفاء واشتغاله موظفاً عندهم ، كل ذلك من دلائل تسامح المسلمين ، وعدم إهتمامهم بما يقال عنهم وإن كان غثاً .

وقد حوى تاريخ الأسقف « سبيوس » Bishop Sebeos » ، وهو مؤرخ أرمني الأصل ، على أمور تاريخية مهمة عن الاسلام . ويبتدىء تاريخه بأيام « فيروز Peros » « ٤٥٩-٤٨٤م » ، وينتهي بتولي معاوية الحكم سنة ٦٦١م ، وقد حوى حوادث عديدة شهدها وأدركها المؤرخ بنفسه . ومن هنا كان لتاريخه شأن كبير من هذه الناحية ، ويمتاز تاريخه أيضاً بطريقة عرضه للحوادث ، وسيره على طريقة المؤرخين اليونان والرومان القديمة « الكلاسيكية » في تدوين التأريخ . وفي تأريخه وصف لفتوح العرب لايران وأرمينية والأرضين التي كانت خاضعة للبيزنطيين ، وكيفية سقوط الانبراطورية البيزنطية (٣) .

---

(١) حضارة الاسلام : تأليف كوستاف فون كرونبوم ، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ، (ص ٦٥ وما بعدها) .

(2) The Muslim world, Vol., XLI, No. 2, April, 1951, P. 88, October, 1934, PP. 22.

(3) Geschichte der Christlischen Litteraturen, S. 104, Hastings, Encyclopaedia of Religion and Ethics, Vol., 8. P. 872.,

بلاد الاسلام ، وكان لأصحابها صلة وثيقة برجال الحكم ، ومنزلة محترمة لديهم . وقد كانت لبعضهم مناظرات في أمور الدين مع علماء المسلمين بحضور الخلفاء أو الوزراء ، وهذا غاية في التسامح عند المسلمين .

وتساعدنا مؤلفات من ذكرناهم مساعدة كبيرة في فهم أحوال الفرس والروم ، وفهم مواطن الضعف لديهم ، وفهم صلاتهم بالعرب وأثرهم في جزيرة العرب . وقد كان لهم أثر بارز في سياسة العرب وفي توجيههم في القرنين السادس والسابع للميلاد .

وقبل أن نختتم كلامنا على المؤلفات الأعجمية ، لابد لنا من الاشارة الى كتب « الجدل والمناظرات Polemic » المؤلفة في الرد على المسلمين . وهي وإن كانت قد تميزت بالتحامل على الاسلام ، قد تضمنت أموراً تفيد المؤرخ وتنفعه ، ولاسيما من ناحية علاقة المسلمين بالروم وبالنصارى ، وأموراً أخرى وردت مقتضبة في التواريخ الاسلامية ، أو لم ترد فيها إطلاقاً .

وفي طليعة من ألف في الرد على المسلمين ، يوحنا الدمشقي الذي تحدثت عنه سابقاً ، و « ثيودور أبوقرة » « ٧٤٠-٨٢٠م» أسقف «حران » ، وهو مشهور معروف ، وله صلة بالخلفاء . وكان في جملة ماتطرق إليه نظرية الخلاص التي حاول توضيحها للمسلمين ، وحرية الارادة ، ومشكلة « الطبيعتين » في المسيح . وجدله ترديد لآراء يوحنا الدمشقي . وقد تطرق أيضاً الى الاسلام والرسول (١) .

ويدل مؤلف الراهب (برثلمياوس الرهاوي Bartholomaios von Edessa) ، على علم بالاسلام واطلاع على سيرة الرسول . وقد اختلف في زمانه ، فقيل : هو من رجال القرن التاسع للميلاد ، وقيل كان بعد ذلك بقرون قد تصل الى القرن الثالث عشر للميلاد، لورود مصطلحات لم تظهر إلا بعد القرن التاسع، مثل « Muusoulmanoi » بمعنى المسلمون « Muslims » ، وهو مصطلح لم يظهر في اليونانية على ماذهب إليه بعض العلماء إلا في القرن الرابع عشر للميلاد ، ومثل مصطلح : « Porakides » .

Bilderstreit, S. 136, Gutterbock, der Islam im lichte der Byzantinische (1) Polemik, 1915.S.15,

« Phorakides » الذي أطلقه اليونان على فرقة الدراويش ، وأمثال ذلك(١) .

وهو يجادل المسلمين بعنف، يدل على مبلغ الحقد الذي كان قد ظهر بين النصارى في ذلك العهد على الاسلام ، والكراهية الشديدة له التي ولدتها الحروب بين الروم والمسلمين وبين النصرانية والاسلام . ويظهر من قوله في رده على المسلمين « لقد قرأت كل كتبكم واكتشفت كل شيء بنفسي » أنه كان قد اطلع على موارد إسلامية ، ولعله كان قد قرأ ترجمة من ترجمات ذلك العهد للقرآن الكريم .

هذا ويظهر أن الفتوحات الاسلامية ، وانتشار الاسلام ، قد أثارا الخوف في نفوس الروم ، وجعلا حكامهم يأمرون بتأليف الكتب في الرد على الاسلام ، ويشجعون من يؤلف في ذلك . فأمر القيصر المدعو « باسليوس Basileios » المتوفي سنة (٨٨٦م) ، أحد الكتاب المدعو « نكيتاس Niketas » بتأليف كتاب في الرد على المسلمين . وقد تعرض هذا الكاتب لعقيدة الثالوث ، وتحدث عنها طويلاً محاولاً البرهنة على صحتها ، وقارن بين آراء النصارى وما يقابلها في القرآن الكريم . وتدل ترجمته للآيات ، على علم بالاسلام ، واحاطة بالقرآن ، فهو لم يخطىء في الترجمة إلا قليلاً .

وللمؤلف رسالتان تحملان اسم القيصر « ميخائيل الثالث Michael III » في الرد على أحد المسلمين « Agarene »(٢) .

وقد استمرت حركة الرد على المسلمين زمناً طويلاً عند الروم ، وساهم فيها قيصر من قياصرتهم ، هو القيصر الراهب : « Johannes Kantakuzenos » المتوفي سنة ١٣٨٣م ، وساهم فيها أناس آخرون يطول الحديث عنهم . ونحن لا يهمنا من كلامهم غير مايفيدنا من ناحية مافيه من جديد يتصل بتواريخ العرب والاسلام ، وعلاقة الروم بالمسلمين . وفي أسماء من ذكرنا الكفاية ، ولمن أراد المزيد أن يراجع الكتب المؤلفة في الجدل والمناظرات مع المسلمين(٣) .

---

(١) حضارة الاسلام (ص ٦٨) .

(2) Bilders reit, S. 138.

(3) Bilderstreit und Arabersturm in Byzantz, Das 8 Jahrhundert « 717-813 » aus der Weltchronik des Theophanes, uberzatz Eingeleitet und erklart von Leopold Breyer, graz 1957.

ويمتاز هذا التأريخ باحتوائه على جداول تقويمية لسني حكم القياصرة وملوك إيران والخلفاء والبابوات وبطاركة القسطنطينية وبطاركة القدس والاسكندرية وانطاكية، مرتبة أحياناً على وفق التقويم الاسكندري والتقويم الميلادي ، وقد ضبطت فيه المدد بالسنين والأشهر والأيام في بعض الأحيان ، ورقمت على طريقة البيزنطيين (١) .

ويدل ماكتبه « ثيوفانس » في النبي والاسلام أنه كان قد وقف على موارد في تأريخ الاسلام ، أو أنه راجع بعض المسلمين ، وربما راجع بعض المسلمين الأسرى الذين كانوا في بلاد الروم ، ولكنه مزج ما عرفه بالبغض الذي كان شائعاً يومئذ للاسلام وللرسول ، وخلط في بعض الأمور . وهو يجاري يوحنا الدمشقي في آرائه في الاسلام ، ويتفق معه ، ولهذا فان من المفيد جداً موازنة ماذكره « يوحنا » بما ذكره « ثيوفانس » لمعرفة الصلة بين آراء « ثيوفانس » و « يوحنا » المذكور . (٢)

وزادت زيارات « البطريرك ديونيسيوس التلمهري » « التلمخري » « Patriarch Dionysius von Tellmahre » للخلفاء والحكام ، وصلاته بهم ، من معارفه بتأريخ المسلمين وأحوالهم . وقد كان بحكم مركزه السامي في الكنيسة اليعقوبية ، إذ كان (بطريركاً) لديهم ، على إتصال بكبار رجال الحكم ، ومضطراً الى الترحال والتجوال لتفقد أحوال رعيته ، فزار مصر حيث إتصل بحاكمها محمد بن طاهر في سنة «٨٢٨ م» ، وزار بغداد فرأى الخليفة المعتصم فى سنة (٨٣٥ م) ، وألف كتاباً فى التاريخ الى أيامه ، وقد توفي فى ٢٢ اغسطس من سنة ٨٤٥ م . ثم أكمل تأريخه الأسقف « يوحنا الداري » « Bishop Johannes von Dara » ووصله ، غير أن الزمان عبث به ، وتحكم فيه ، فلم يترك منه إلا بقية (٣).

و « البطريرك » فى تأريخه جرى على سنة غيره من المؤرخين النصارى بالنسبة الى تأريخ الاسلام . غير أن في تأريخه أموراً مفيدة جداً عن الأمويين والعباسيين

---

(1) Bilderstreit, S. 16. f.

(٢) راجع عن « ثيوفانس » Der Islam, Bd. 23 ," 1936 ", S. 134.
chronographia, Bd. I, S. 333. ff. (De Boor), Leipzig, 1883.
حضارة الاسلام (ص ٦٦) .

(3) Rudolf Abramowski, Geschichte der christlichen Litteraturen, S. 53, Dionysius Von Tellmahre, Leipzig, 1940.

وأحوال الخلافة إلى أيام المعتصم ، وهي أيامه أيضاً . وقد تطرق الى الفتوح الاسلامية والى اخراج الروم من بلاد الشأم ، والى الفتن في أيام عثمان وعلي واختلاف علي ومعاوية ، والى فتح جزيرة قبرس والجزر الأخرى التي كانت في أيدي الروم . وأورد أموراً لانجدها في التواريخ الاسلامية ، لبعد هذه الأماكن عن مسامع المؤرخين المسلمين .

وقد عد مثل غيره من المؤرخين النصارى ، إنتصار المسلمين على الفرس ، بسبب إرادة الله وأمره ، انتقاماً من الفرس ، لغطرستهم ، ولاساءتهم معاملة رعيتهم النصارى وظلمهم لهم (١).

وجاء في كلام لـ « يولوجيوس القرطبي Eulogius of Cordova »(٨٥٩ م) هذر في حق الرسول والاسلام ، وفي أسباب كراهية الاسلام للكلاب .

ولم تبق من تاريخ « الياس بن شنجا Elias bar Schinja » (٩٧٥/ ٥٠ ١م)، إلا بقية . وتنتهي حوادث هـذا التأريخ بسنة (١٠١٨-١٠١٩ م) . وللمؤلف مناظرة جرت له في حضرة الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي في سنة ١٠٢٦ م (٢) .

وتوجد مقتبسات من تأريخ « الياس » في تأريخ « يشوع أبكر » « Jeshua Abger » من معاصري الياس المذكور .

وهناك تواريخ أخرى ، ولكنها متأخرة عن تواريخ من ذكرت . وقد اعتمدت في حوادثها عن صدر الاسلام والأمويين على المتقدمين ، ولهذا لم أجد في ذكرها إلا إطالة لهذا الفصل ، وإضاعة للوقت . فأجلت البحث فيها إلى المكان المناسب ، الى تأريخ بني العباس أو من بعدهم ، حيث يكون لها مقام وموضع ، إلا إذا ورد في بعض منها مافيه طرافة وجدة ورواية لم تردلدى المتقدمين ، فأشير عندئذ إليه وأذكره في مكانه . ولهذا سيكون لتأريخ « ميخائيل الملطي » المتوفي سنة ١١٩٩ م ، وتأريخ ابن العبري المتوفي سنة ١٢٨٦ م وأمثال هذه ، مواضع أخرى .

فأنت ترى مما تقدم أن جل هذه المؤلفات وإن كتبت بلغة أعجمية ، قد ألفت في

(1) Mingana, XI, 7, Dionysius, S. 48.

(2) Christ., S. 56, Dionysius, S., 14, Fr. Baethgen, Fragmente Syrischer, und Arabischer Historiker, Leipzig, 1884.

ولا يصح في نظري اتخاذ الحاضر مقياساً للماضي، ومرآة صافية له . فالحاضر مهما قيل في مشابهته وفي مماثلته للماضي ، لن يكون صورة طبق الأصل له . ومن هنا يخطىء حكم من يحكم على الاسلام قياساً على حالة المسلمين ومظاهرهم في القرن العشرين . فبين الذي يزاوله المسلمون ويمارسونه في الزمن الحاضر ، ما لا يتفق والاسلام الصرف الخالص في عهد الرسول ، ويتعارض صراحة مع القرآن . وفيه ما لم يكن معروفاً ولا موجوداً في صدر الاسلام .

ومن رأيي أن يكون المؤرخ كالمصور ، يحاول جهد إمكانه وقدر طاقته وعلمه وصف الشيء الذي يريد أن يحكيه ويدونه وصفاً صادقاً مستمداً من المنابع والموارد الأساسية ، وأن يبذل أقصى ما لديه من جهد للوصول الى كنه الحادث الذي يبحث فيه ، وأن يصل الى روحه وسببه بأن يجعل نفسه كأنه واحد من حضوره وشهوده ومن رجاله . وعندئذ يحكى ما وصل جده وادراكه اليه وما استنتجه لبه منه .

ويكون ذلك في تأريخ الاسلام بأن يفهم المؤرخ الحادث من منابعه ومجاريه ، وأن يتقصاه ويفهم روحه من فهم الاسلام له ، وأن يسعى جهد إمكانه للاحاطة بجميع أسبابه وما ورد عنه ، وألا يكتفي برواية واحدة وبخبر واحد ، بل عليه أن يتقصى الأخبار ، وأن يبحث عن كل شيء في الخبر يرى أنه سيوصله الى نتيجة أو الى خبر آخر أو أخبار أخرى ، وأن يناقش ويفهم ظروف صاحب الخبر ومذهبه وهواه ، والعصر الذي عاش فيه ، وامكانية وقوع ذاك الخبر في مثل ذلك العهد . ثم يحكى ما حصل عليه على أنه لسان معبر عن الحادث لا مساهم فيه ومشارك أو خصم وصاحب رأي وفكرة ، إستقرت في رأسه ، فهو يريد أن يجد من الأسباب ما يؤيدها ويقويها ليقولها للناس .

ومن هنا نجد بعض المؤرخين والكتاب يرسمون القصد في أدمغتهم ويضعون الأهداف في رؤوسهم قبل الشروع في الكتابة . فاذا كتبوا عمدوا الى ما يروقهم من خبر أو أخبار ، وما يلائم قصدهم من رواية أو روايات ، واستندوا اليه ، وبنوا حكمهم على ذلك ، وقالوا إن الاسلام كيت وكيت ، وأن في صلبه هذه الفكرة ، أو تلك ، وإنه مع هذا المذهب وضد ذاك ، وإنه تنبأ بهذا الرأي وقال به . وكلام كهذا مهما قيل في أغراضه وأهدافه وفي طريقة بحثه ، هو في نظري توجيه ودعاية ، يراد منه هدف خاص ، لا بحث علمي غايته البحث في تأريخ الاسلام حسب .

وقد ظهرت في هذه الأيام عشرات من الكتب في تأريخ الاسلام ، حاول كل مؤلف من هؤلاء صبغ الاسلام بالصبغة التي يريدها ويحملها ويعتقد بها ، مستشهداً بذلك بخبر أو بأخبار ، مفسراً إياها ، وشارحاً لها على وفق رغبته وهواه . والاسلام في نظري بعيد كل البعد عن هذه الآراء الغريبة ، إنه يعالج الأمور والمشكلات بنظرته الخاصة الى الحياة . وقد التجأ أصحاب هذه الكتب الى الخبر الضعيف والأخبار المردودة في اثبات أن ذلك مما ورد في الموضوع الفلاني وفي الموضوع الفلاني ، والواجب في مثل هذه الأحوال الاحاطة بالخبر من جميع وجوهه قبل الاستشهاد به . ومن هذا القبيل في نظري تفسير القرآن بالأهواء ، أعني ما يطلقون عليه « الطريقة العصرية » للموافقة بينه وبين العلم الحديث . كأن يأتي الشارح والمفسر أو المؤلف برأي أو بآراء من آراء العلماء « الفيزيائيين » أو « الكيمائيين » أو غيرهم ، ثم يأتي بآية أو حديث فيفسرهما تفسيراً موافقاً لآراء أولئك العلماء ، وهو في الواقع سخف وهراء ، يعرض الاسلام النقد والجدل . وهذه الآراء العلمية مهما قيل فيها قابلة في كل وقت للتبدل والتغيير ، ومعنى هذا أننا سنضطر تبعاً لذلك الى تغيير تفسير الآية أو الآيات وتبديلها على وفق ذلك ، ثم إن القرآن كتاب إلهي ، نزل هادياً ونذيراً ، ولم ينزل ليعلم الناس الكيمياء والفيزياء والطب وما الى ذلك من علوم .

هذا ، ولا يزال المؤرخ يلاقي صعوبات جمة فى أثناء تدوينه تأريخ الاسلام من ناحية الاستفادة من الموارد والاستعانة بها فى تدوين هذا التأريخ ، فعلى المؤرخ أن يقرأ كتباً ضخمة مؤلفة من أجزاء عديدة طبعت طبعاً سقيماً فى الغالب ، للعثور على مادة تفيده فى تدوين ما يحتاج اليه ، وذلك لعدم وجود فهارس منظمة للكتاب تساعده فى وصوله الى غايته ومراده بسهولة ويسر . وقد طبعت أكثر الكتب الأمهات ويا للأسف طبعاً سقيماً خالياً من التحقيق والضبط والفهارس ، جعلت أكثر المؤرخين يحجمون عن الاقدام عليها ، ويتهيبون قراءتها ، فاكتفوا بهذا المطبوع السهل المتداول ، والموارد التأريخية المعروفة ، وطريقة مثل هذه لا يمكن أن تأتي للقارىء بالطبع بشيء جديد .

ثم إن أكثر المطبوع ما زال مادة خاماً ، لم تمسه أيدي النقاد ، ولم تتناوله أقلام النقلة المتعمقين ، فهو ينتظر المتخصصين الثقات ليقوموا بغربلة هذا الكثير الوارد فيه .

وقد عاش كثير ممن ذكرت من المؤرخين النصارى ومن رجال دينهم في بيأة إسلامية ، أو بيأة كانت فيها جماعة من المسلمين ، وكان في إمكانهم الرجوع الى المسلمين للاستفسار منهم عن الاسلام وعن سيرة الرسول ، ولكنهم لم يفعلوا في الغالب إما عمداً وإما جهلاً ، وقد اعترف بعضهم بسذاجة علمهم بالاسلام ، وبعدم وقوفهم على موارد دقيقة عنه ، إلا أنهم لم يحاولوا مع ذلك تصحيح علمهم وتحقيق تلك المعارف التي أخذوها من الموارد النصرانية عن الاسلام (١) .

ولم يكن من الممكن في ذلك العهد وفي بيأة كتلك البيأة قيام رجل بتأليف علمي صحيح عن الاسلام ، أو تصحيح أغلاط الكتاب النصارى ومفترياتهم عنه . إذ كان مثل هذا العمل بمثابة دفاع عن الاسلام وتحد للكنيسة ، ومعارضة صريحة لسياسة الحكومات ، وهو عمل يعاقب عليه الانسان عقاباً صارماً ، عقاب من يتهم بمحاولة تحدي الحكومات أو احداث انقلاب ثوري في نظام حكم دكتاتوري . ثم إن هذا العمل هو ضد الايمان ، ومعظم الكتاب بحكم معيشتهم في مجتمع للكنيسة عليه سلطان ونفوذ ، وبحكم نفوذ الايمان المسيطر عليهم ، مضطرون الى مجاراة الوضع ، والى مداراة السلطات ، وإلا عرضوا حياتهم للخطر ، ثم أن بعضهم كانوا يرون في تفنيد الاسلام والافتراء عليه وأخذ كل مايقال عنه من سوء ثواباً يثاب الانسان عليه ، وأجراً يتقربون به الى الله ، يرفعهم إلى السماء ، وتقديراً عظيماً ينالهم من الكنيسة والمجتمع ، يضعهم في مصاف الممتازين الموهوبين وعباقرة الكتاب والعلماء .

هذا ، ولابد لي هنا من وجوب التنبيه على ضرورة مناقشة الحوادث التأريخية وسيرة الرسول في ضوء القرآن . ومعنى هذا وجوب الرجوع الى كتب التفسير وكتب أسباب النزول في ضبط الحوادث الواردة في كتب السير والتأريخ . ونحن ان فعلنا ذلك ، فاننا سنصون انفسنا كثيراً ولاشك من الوقوع في مغالط تسربت الى أصحاب السير وكتب التأريخ من جراء رواياتهم كل ما قيل من روايات وأخبار ، وتدوينهم له دون مناقشة وتطبيق ومقارنة ، بما ذكره علماء التفسير أو الحديث وما أوردوه هم وغيرهم من أسباب وأخبار في نزول آي القرآن الكريم . ولهذا لابد لنا من أن نرجع

---

(١) حضارة الاسلام (ص ٦٩) .

اليوم الى هذه الموارد لسد الثلم وتلافي الأخطاء الواقعة فى المراجع الأخرى ، ليكون بحثنا فى هذا التأريخ قريباً من الواقع بقدر الاستطاعة .

وبعد ، فان طريقتي في هذا الكتاب هي طريقتي نفسها التي اتبعتها في تأريخ العرب قبل الاسلام : رسم الماضي كما رسخ في ذهني ، واستقر في فهمي ؛ وثبت في فكري ، مع تقريب وتوضيح له جهد الامكان من غير زيادة عليه أو نقصان منه . وتجنب شديد من ابداء الآراء الشخصية أو اعطاء الاحكام فالتأريخ في رأيي رسم الماضي وتشخيصه وعرضه من غير تحزب أو تعصب ، أو ابداء رأي وحكم ، تاركا أمر الأحكام الى القراء ، يكونون آراءهم كما يرون ويشتهون ، وعلى النحو الذي توصل اليه اجتهادهم من قراءتهم للموضوع .

فأما في هذا الكتاب مصور حسب ، أحاول تقديم صورة صافية نقية لتأريخ الاسلام . لا أريد إدخال شيء غريب عليها ، ولا أريد انتقاص شيء منها . ثم إن هذه الصورة التي أريد عرضها للناس ، هي صورة الاسلام فى أيامه الأولى ، فى أيام الرسول ، اي فى أيام صفائه ونقائه ، وقبل دخول مواد زائدة عليه ، كدرت صفاءه ، وجعلت فيه ما ليس منه .

واكره شيء عندي أن ينصب المؤرخ نفسه قاضياً يقضي فى الحوادث الماضية ؛ يعطي الأحكام ، ويبت فيها ويقول كلمته فى الماضين ، وهو يعلم أن التأريخ لا يستند الى بديهيات مسلم بها ، ولا الى أرقام لا يمكن أن يجادل عليها . وأن الحادث ليقع فى الحاضر ثم نرى الناس مذاهب فى تفسيره وفى وصفه وقصه . فاذا كان هذا شأن الحاضر ، فكيف يكون شأن الماضين اذن ؟

ومن هذا القبيل قياس الماضي على الحاضر ، والحكم على الماضي بناء عليه ، ونقد الماضي ومآخذته وفقاً لمقاييس القرن العشرين ومفاهيمه ، أو القرن الذي يكون فيه الناقد . وقد قرأنا أحكاماً عديدة من هذا القبيل صدرت في أمور من تأريخ الاسلام ، تدل على ان أصحابها حكموا بدون فقه لروح الزمن الذي وقع فيه الحادث ، وافتوا دون علم بالاسباب الموجبة وبأحوال الزمن يومئذ ، فكانوا في أحكامهم جد مخطئين .

وتصنيف هذه المادة الغزيرة المكونة له . وإذا تم هذا العمل ، سهل على المؤرخ عندئذ عمله ، وصار في إمكانه الاعتماد على المراجع بثقة واطمئنان . ومن تكوين رأي يطمأن إليه ويوثق به .

وما يرد في الكتب التأريخية هو في حكم الحقائق في نظر بعض الناس ، في حكم الأعداد مثلاً في الرياضيات . فكما أن الأعداد هي حقيقة مسلم بها ، كذلك الروايات والأخبار هي حقائق لا يرتقي اليها الشك ولا سيما إذا ما أدعمت بسند الرجـــال ، وكانت مما ورد في الكتب المعتبرة المشهورة ٠ وخبر واحد من هذه الأخبار يكون سنداً لدى هؤلاء يبنون حكماً عليه . ومثل هؤلاء وإن لم يكونوا من المؤرخين بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من التأريخ هم كتبة على كل حال ومن الكاتبين في التأريخ والقارئين له . أحكامهم مستمدة من العاطفة ، بعيدة عن العلم والعقل . إنهم يقدمون الرواية على الدراية ، والحفظ على المناقشة بالمنطق . ومثل هؤلاء لعمري لا يناقشون ولا يجادلون .

ويلاحظ أن الموارد المتأخرة قدجاءت بأخبار لم ترد في الموارد القديمة . اضافتها إلى ما أخذته من الموارد المتقدمة . وفي أغلب الذي أضافته إغراب وقصص من هـــذا النوع الذي يسميه العلماء بالاسرائيليات ، أو بالقصص الاسرائيلي ، حشر حشراً ، وروي عن نية طيبة من اولئك الكتاب ، وهو بين واضح يمكن معرفته وكشفه من قراءته لعدم ملاءمة طبعه مع روح الاسلام وأحكام القرآن وما ورد فيه عن الرسول .

وفي أغلب الروايات التي يتصل سندها بكعب الأحبار ، أو محمد بن كعب القرظي أو النعمان السبائي وهم من مسلمة يهود (١) أو غيرهم من مسلمة أهل الكتاب طابع القصص الاسرائيلي . وفي أغلبه دس على الرسول وعلى الاسلام كما في قصة الغرانيق وفي أمور أخرى سأتحدث عنها في الأماكن المناسبة من هذا الكتاب . ويظهر من دراسة هذا النوع من القصص أن أصحابه كانوا يريدون من روايته ونشره وادخاله بين المسلمين أمراً ، وإن قلوبهم لم تكن مسلمة كألسنتهم ، وإنهم كذبوا على التوراة والانجيل أحياناً وذلك على سبيل التودد إلى المسلمين والتقرب اليهم على ما يبدو .

وقد ربط ووصل سند أكثر القصص الاسرائيلي بابن عباس . وهذا الربط يجب

(١) السيرة الحلبية ، ١/٢٥٠ .

أن يكون موضع دراسة خاصة . فما الذي ربط بين هذا القصص وابن عباس ؟ وهل كان ابن عباس راوية حقاً لهذا القصص الاسرائيلي ؟ ومن أين جاء به ؟ وهل كان ابن عباس من القارئين للعبرانية وللسريانية ولكتب اليهود والنصارى ؟ والغريب أننا نجد في معظم الأحيان أن رواة هذا القصص الذين ذكروا أنهم سمعوه من فم ابن عباس ، وأنهم أخذوه منه ، هم من مسلمة يهود ، فهل يعقل أخذ هؤلاء قصصهم من ابن عباس ؟ إن المعقول أن يكون العكس هو الصحيح . وأنا لا أريد أن أعالج هنا هذه الناحية من البحث . فالمعالجة هنا معناها الخروج عن الموضوع ، والدخول في بحث آخر متشعب طويل لاعلاقة له بهذا الكتاب فى هذا المكان . ولكني سأتحدث على كل حال عن هذه المشكلة فى اثناء كلامي على القصص الاسرائيلي وعلى ابن عباس :

ويلاحظ أن معظم هـذا القصص المتقدم هو مما يرد في الكتب المتأخرة ، أما الكتب الواصلة الينا من أول عهد المسلمين بالتدوين ، فقد كانت تتحاشاه في الغالب ، ولا تميل إليه ، ولا إلى الخوارق والمعاجز . وهو قصص يخالف لما جاء في القرآن الكريم عن الرسـول ولحديث الرسول ولروح الاسلام ولهذا وجب أن يكون اعتماد المؤرخ على هذه الموارد المتقدمة المحترمة في نظر النقاد من أمثال كتب الصحاح في الحديث وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتأريخ الطبري . وسندنا الأول بالطبع ومرشدنا قبل كل هذه هو القرآن .

قال الامام مالك عن محمد ابن اسحاق صاحب السيرة الشهير : « هـذا دجال من الدجاجلة ، يروي عن اليهود » . وقد قدح فيه مالك ، لأنه كان ينكر عليه تتبعه غزوات النبي من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خيبر وقريظة والنضير وما أشبه ذلك من الغرائب عن أسلافهم . وكان ابن اسحاق يتتبع ذلك عنهم ، ليعلم ذلك من غير أن يحتج بهم . وكان مالك لا يرى الرواية إلا عن متقن صدوق (١) . وإذا كان مالك وأمثاله قد آخذوا ابن اسحق على أخـذه أخبار غزوات النبي لخيبر وقريظة ، فماذا يجب أن يكون موقف المؤرخ من هذا القصص الاسرائيلي البحت الذي أدخله في السيرة أناس قضوا معظم حياتهم أو بعض حياتهم وهم علي دين يهود ؟

(١) عيون الاثر (١٧/١) .

وعلى المؤرخ اجمالاً أن يكون حذراً جداً تجاه هذا القصص الاسرائيلي خاصة ، وتجاه الأخبار المتأخرة التي لا نجد لها أثراً في الموارد القديمة . فلا يرد معينها إلا بحذر، وإلا بعد فحص وتدقيق ونقد . وعليه أن يلاحظ دائماً أن المؤرخين والأخباريين المتأخرين ، لم يكونوا على شاكلة قدماء المؤرخين وأوائلهم في التشدد في قبول الأخبار وروايتها وادخالها في مؤلفاتهم . وعلى المؤرخ أن يكون يقظاً نشطاً متوقد الذهن ، فلا يقبل من الأخبار والروايات إلا مايتلاءم مع روح القرآن الكريم وأحاديث الرسول وما هو من أمر الاسلام من نبذ الأساطير والقصص والخرافات . فاذا فعل ذلك جنب نفسه الأغاليط والمزالق التي وقع فيها نفر من المستشرقين ومن المؤرخين الاسلاميين من قبلهم بقبولهم كل خبر سمعوه من غير نقد ولا فحص وتمحيص .

وستزعج هذه الطريقة خلقاً من الناس ، لم يتعودوا فهم السيرة النبوية إلا من التفسير الاسرائيلي والسير المحشوة بالقصص والخوارق ، حتى غلب عندهم على التأريخ . وليس لهؤلاء من جواب الا احالتهم على القرآن الكريم ، ففيه جوابهم . ولو كانت رسالة الرسول قصصاً وخوارق على نمط قصص بني اسرائيل ، لجاء ذلك في كتاب الله . وقد نزل الوحي بتأنيب قريش حينما ألحوا على الرسول واسرفوا في الحاحهم بمطالبته بالمعجزات ، على نمط يهود وبوحي وتعليم من يهود . وأنب اليهود والنصارى لاضافتهم الى أنبيائهم أشياء لا تصح نسبتها في دين الاسلام إلا الى الله .

وبعد ، فأنا لا أريد أن أطيل على القارىء فأجره الى حديث طويل عن كيفية كتابة السيرة وعن مواردها وأمثال ذلك ، لان ذلك يخرجنا عن صلب الموضوع ، وسيدفعنا الى الدخول في صلب عمل المؤرخ في طريقة تدوينه للتاريخ ، وهو خارج نطاق عملنا وواجبنا في هذا الكتاب . ولهذا أنتقل الى السيرة رأساً ، فأبحث فيها فصلاً فصلاً ، وسأتعرض في أثناء ذلك حتماً لكثير من الأمور التي أشرت اليها إشارة موجزة في هذا الفصل .

الفصل الثاني

مكة المكرمة

لابد لنا لفهم سيرة الرسول وتأريخ الاسلام من التحدث عن مكة ، ومن التعرض لأحوال سكانها وحالة الناس فيها فى ذلك الزمن : زمن ميلاد الرسول ، وإلا كان بحثنا بحثاً ناقصاً عاجزاً عن تفسير كثير من الأمور التي نجدها في الاسلام .

ولسنا نملك مرجعاً نرجع اليه للوقوف على أحوال مكة فى هذا العهد الا القرآن الكريم والحديث وكتب التفسير والسير . أما موارد كتابية ونصوص مدونة من أيام الرسول ، فلم يصل منها الينا شيء حتى الآن . وأما ما قبل ذلك ، فلم يرد فيها عن مكة شيء . لم يرد منها أي شيء عثر عليه في الحجاز ولم يرد عنها أي خبر في المسند ولا في الكتابات الجاهلية الأخرى . ولهذا لا نعرف من شأن مكة شيئاً ورد فى نصوص مكتوبة في أيام الجاهليين .

أما اليونان واللاتين والسريان وغيرهم ، فلم يشيروا الى اسم موضع اسمه قريب من اسم مـــكة ، الا « بطلميوس Ptolemy » ، وهو من علمــاء الفــلك والجغرافيا في القرن الثاني للميلاد . فقد أشار ، الى اسم مدينة دعاها « Macorba » ذكرها بعد موضع دعاه «Carna» وهو مكان ذكره بعد « Iathrippa »« Lathrippa» وقبل موضع « Thumata» . وقد ذهب الباحثون في أسماء هذه المواضع الى أن مراد « بطلميوس » من « Macoraba » مدينة (مكة) . كما شرحت ذلك مفصلاً في الفصل

السادس من الجزء الثالث من كتابي (تأريخ العرب قبل الاسلام) في الكلام على العرب وبطلميوس . (١)

أما ما ذهب اليه بعض الباحثين من أن المعبد الشهير الذي ذكره « ديودورس الصقلي» « Diodorus » ، في أرض قبيلة عربية دعاها « Bizomeni »(٢) وقال إنه مكان مقدس له حرمة وشهرة بين جميع العرب ، هو مكة (٣) ، فهو رأي لا يستند الى دليل مقبول معقول . فالموضع الذي يقع المعبد فيه هو موضع بعيد عن مكة بعداً كبيراً ، وهو يقع في « حسمى » في المكان المسمى « روافة » و « غوافة » على رأي « موسل » (٤) . وقد كانت في هذه المنطقة وفي المحلات المجاورة لها معابد أخرى كثيرة أشار اليها الكتبة اليونان والرومان ، ولا تزال آثارها باقية ، وقد وصفها السياح الذين زاروا هذه الأمكنة والبقاع (٥) .

واذا صح رأينا في أن موضع (Macoraba) هو مكة ، دل ذلك على أنها كانت قد اشتهرت بين العرب في القرن الثاني بعد الميلاد ، وأنها كانت مدينه مقدسه يقصدها الناس من مواضع بعيدة من حضر ومن بادين . وبفضل هذه القدسية والمكانة بلغ اسمها مسامع هذا العالم الجغرافي اليوناني البعيد . ودل أيضاً على أنها كانت موجودة ومعروفة قبل أيام (بطلميوس) إذ لا يعقل أن يلمع اسمها وتنال هذه الشهرة بصورة مفاجئة بلغت مسامع العالم الساكن في موضع بعيد ، ما لم يكن لها عهد سابق لهذا العهد.

ولفظة (مكربة Macoraba) ، لفظة عربية أصابها بعض التحريف ليناسب النطق اليوناني ، أصلها (مكربة) أي (مقربة) من التقريب . وقد رأينا في أثناء كلامنا على حكومة سبأ القديمة ، أن حكامها كانوا كهاناً ، أي رجال دين ، حكموا الناس باسم آلهتهم . وقد كان الواحد منهم يلقب نفسه بلقب (مكرب) أي (مقرب) في لهجتنا . فهو أقرب الناس الى الآلهة ، وهو مقرب الناس الى آلهتم وهو مقدس لنطقه

---

(١) ص ٣٥٣ وما بعدها .

«٢» C. H. oldfather, Diodorus Siculus, Bibliotheca Historica, Book III, XXXI, Booth, The Historical Library of Diodorus the sicilian, P. 105.

«٣» Gerald de Gury, Rulers of Mecca, London, 1951, P. 12.

«٤» تأريخ العرب قبل الاسلام «٣/٣٥٣»

«٥» المصدر نفسه

باسم الآلهة ، وفي هذا المعنى جاء لفظ (مكربة) ، لأنها مقربة من الآلهة ، وهي تقرب الناس اليهم ، وهي أيضاً مقدسة و (حرام) . فاللفظة ليست علماً لمكة ، وانما هي نعت لها ، كما في (بيت المقدس) و (القدس) اذ هي نعت لها في الأصل ، ثم صارت علماً للمدينة عندنا .

ونحن لا يعنينا هنا من تاريخ مكة إلا ما كان له صلة بتاريخ الاسلام وبالايام التي ولد فيهـا الرسـول . أما ماقبل ذلك فليس له شأن في هذا المكان ولهذا سنطوي الحديث عنه آسفين ولمن يريد العلم به أن يرجع الى الكتب الأخرى ، فقد تكون فيها فائدة للمستزيد .

وقد ورد اسم مكة في القرآن الكريم ، ورد بالصورة التي نعرفها (١) وورد بصورة أخرى لا تختلف عن الأولى إلا في حرف واحد ، هو الميم ، وهو الحرف الأول من الاسم ، فحلت الباء في هـذه التسمية محل الميم المثبتة في التسمية الأولى ، فوردت (بكة) في موضع مكة (٢) وهما في الواقع تسمية واحدة ، وليس هـذا الاختلاف اختلافاً بالمعنى المفهوم ، وإنما هو لهجة من لهجات القبائل ، تضع الباء في مكان الميم ، فتنطق بالباء بدلاً من الميم . وفي لهجات العرب أمثلة عديدة من هذا القبيل ، وبينها لهجات العرب الجنوبيين . وهي لهجات نعرفها في الزمن الحـاضر ، ونجدها في مختلف الأماكن من الوطن العربي .

وقد دعيت مكة بـ (أم القرى) في القرآن الكريم (٣) ، ودعيت (قرية) كذلك «٤» . وقورنت بها (الطائف) في سورة الزخرف : (وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) «٥» ، وقد ذهب علماء التفسير الى أن المراد بالقريتين : مكة والطائف .

«١» الفتح : ٢٤ .

«٢» آل عمران ٩٦ ، نشوان بن سعيد الحميري ، شمس العلوم ودواء كلام العرب مـن الكلوم « ليدن ١٩٥١ » ، الجزء الاول القسم الاول « ص ١١٧ »

«٣» الشورى الآية ٧ .

«٤» سورة محمد الآية ١٣ .

«٥» الزخرف الآية ٣١ .

وقد كان أهل مكة عند ظهور الاسلام يرجعون نسبهم إلى قريش . ومعنى هذا أن غالبية أهلها كانت على هذا النسب حين تنتسب ، جرياً على عرف الناس في ذلك العهد في رجع نسبهم الى جد أعلى يفتخرون ويتباهون به . يتساوي في ذلك أهل الوبر وأهل المدر . فأمر مكة إذن في أيدي قريش في القرن السادس للميلاد ، أخذته من جماعة كانت هي المسيطرة عليها قبلها تدعى « خزاعة » ، والذي مكن قريشاً من خزاعة وسلمها مكة ، هو زعيم من زعمائها عرف بالكياسة والسياسة والحذر ، هو « قصي » . وكان قصي زعيماً وتاجراً . جمع مالاً كثيراً ، وولى عنايته « البيت الحرام » وثبت حكم قريش في المدينة حتى صار لقومه نفوذ على سائر القبائل ، فقصي هو إذن هو أول من أقام ملك قريش في مكة .

وإذا صح نقل « مينكانا A. Mingana » ماذكره اللاهوتي السرياني « نرسي Narsai » المتوفي سنة ٤٨٥ الميلاد ، عن غزو قام به « أبناء هاجر » « على بيت عرباية » ، فان ذلك يكون أول خبر يرد في كتابي قديم عن (قريش) ، ولذلك أهمية تأريخية خاصة ، لأنه يشير إلى وجود قريش في شمال جزيرة العرب في القرن الخامس قبل الميلاد داخلة ضمن القبائل العربية الشمالية المعروفة يومئـــذ عند السريان باسم (أبناء هاجر) وبـ (الاشماعيليين) . وهذا خبر لم نكن نعرفه من قبل . ذكر نرسى أن هذا الغزو كان عنيفاً قاسياً ، وانه كان في شدته وهوله أقسى من فتك الحيوانات الضارية بالانسان . وقد ترك ألماً شديداً وخسائر كبيرة في أهل تلك المنطقة . وذكر أن أشد أولئك المهاجمين الهاجريين في القسوة والغلظة هم ، قريش (١) .

وهذه الاشارة تتفق مع روايات الأخباريين وأهل الانساب من ارجاع نسب قريش إلى اسماعيل . وهي تدل على أن قريشاً كانوا بدواً رحلاً في القرن الخامس للميلاد ، وأنهم كانوا يعيشون في بادية الشأم مع قبائل أخرى تتنقل في البادية الفسيحة الواسعة بين حدود الروم والساسانيين .

وقد يفيد هذا الخبر في الربط بين تحرك قريش وتنقلها في البادية في هذا العهد

«1» A. Mingana and A. S Lewis, Leaves from three Ancient qurans, Cambridge, 1914, P. XIII, A. Mingana, Narsai Homiliae et Carmina, 1905, Vol., I, PP, 115.

وبين سكنها واستقرارها فيما بعد في مكة ، وأخذها السلطة من خزاعة في أيام سيدها ورئيسها (قصي) .

وإذا صح ماقاله أهل الأخبار عن خزاعة وقصي وعن استشار قريش بمكة ، فان ذلك يعني أن قصياً لم يكن بعيد عهد عن الاسلام ، وأن قريشاً أثرت وربحت وتزعمت في وقت لم يبعد كثيراً عن أيام مولد الرسول ، وأن قصياً كان أبرز وأول زعيم فيها ، ولم يذكر الأخباريون زعيماً من قريش قام بمثل الأعمال التي نسبوها إلى قصي .

وقصي من الأسماء الواردة في الكتابات العربية الشمالية . وقد ورد في بعض الكتابات أن كاهناً اسمه : (ملكو بن قصيو) (مالك بن قصي) أقام معبداً في منطقة (حوران) ، وذلك في سنة (٤٧) للميلاد . وورد اسم (روحو بن قصيو) (روح بن قصي) ، وقد اقام معبداً لعبادة (اللات) في (صلخد) كما ورد في بعض الكتابات الصفوية (١)

والطريف أن قصياً المذكور في هذه النصوص النبطية ، وكذلك أبناؤه وحفدته ، كانوا رجال دين مثل قصي قريش . فكانوا سدنة (للات) ، أقاموا لها معبداً : وشيدوا لها بيتاً . واللات من الآلهة العربية الشمالية ، وقد عرفت عبادتها في أعالي الحجاز وبين عرب بلاد الشام منذ عهد طويل قبل الاسلام . ولعلها زحفت من هذه المنطقة الى الجنوب ، فدخلت أواسط الحجاز وجنوبها حتى صارت من أهم الأصنام المعبودة في مكة وفي الطائف قبل ظهور الاسلام .

وورد في نص شمالي آخر اسم رجل يقال له (قصي تعجلت (تعجلة) بن كعمت (قعمة) بن ربو بن اودو بن رديف بن نطرو بن عبدو) وذلك لاقامته قبراً لزوجه وحبيبته رحيلت (رحيلة) في سنة ٣٠٨ من التقويم النبطي (٢) وورد اسم رجل آخر يقال له (قصي بن سودي) في نص آخر من النصوص النبطية (٣) .

ويلاحظ أيضاً أن أسماء أهل مكة والحجاز هي أسماء ترد بكثرة في النصوص

«١» العرب في سورية قبل الاسلام ؛ تأليف رنيه ديسو «ص ١١٥ وما بعدها » ؛

Cis, II, 170, 174, 182, Ency, II, P. 1159

«2» Rep. Epi., IV, P. 181, Num. 805, Littmann, Semiti. Inscrip., P. 90, Lidzbarski, Ephem., II, 258.

«3» Rep. Epi., IV, P. 55, Num. 2117.

العربية الشمالية : النبطية ، والثمودية ، والصفوية ، واللحيانية . أما النصوص العربية الجنوبية ، ولاسيما النصوص القديمة منها ، فهي قليلة الورود فيها . فعبد الله ومحمد وعبد مناف وعبداللات وقصي وهاشم وكلب وعمرو وأمثالها ، هي من الأسماء التي ترد في النصوص العربية الشمالية ، بينما لانكاد نجد لها أثراً في نصوص المسند . وعدم ورودها بكثرة في هذه الكتابات ، يحملنا أيضاً على تأييد رأينا في هذا الاتصال الثقافي الذي جمع شمل أهل الحجاز بالعرب الشماليين .

وقد وردت لفظة (قربش) اسماً لرجل عرف بـ (حبسل قريش) . وذلك في نص حضرمي من أيام الملك (العز) ملك حضرموت (١) .

ويلاحظ أن أسماء معظم الأصنام التي كانت في مكة وفي الطائف وأماكن اخرى من الحجاز عند ظهور الاسلام ، هي أسماء أصنام معروفة معبودة قبل الاسلام ، بل قبل الميلاد عند العرب الشماليين ، أي العرب الساكنين في العراق وبادية الشأم وأعالي نجد وبلاد الشأم . وفي هذا التوافق دلالة صريحة على الروابط الروحية بين عرب الحجاز وعرب بلاد الشأم والعراق ، وعلى أن صلة أهل الحجاز بالعرب الشماليين كانت أقوى وأمتن منها بالعرب الجنوبيين الذين كانت لهم ثقافة خاصة بهم ، ولاسيما في الأيام البعيدة عن الاسلام ، ميزتهم عن العرب الشماليين وعن عرب نجد والحجاز .

ولم يكن قصي رجل سياسة وزعامة حسب ، بل كان رجل دين كذلك ، ينسب إليه أهل الأخبار جملة أشياء زعموا أنه شرعها لقريش ، فاتبعتها ، وصارت من سنن أهل مكة ومذاهبها في الدين (٢) . وقد سبق « قصياً » جملة رؤساء جمعوا مثله بين سياسة الدين وسياسة الدنيا ، وكانت لهم بذلك زعامتان . وقد ذكر أهل الأخبار لبعضهم أثراً في الوثنية ، باستحداثهم أصناماً جديدة ابتدعوها أو جلبوها من الخارج من أسواق بلاد الشأم خاصة ، لوجود التماثيل الجميلة المصنوعة من المرمر فيها ، بعضها من صنع تلك البلاد ، وبعض آخر مستورد من بلاد الروم أو من ايطاليا . وقد كان رؤساء مكة يذهبون الى بلاد الشأم للتجارة أو للاستجمام فتقع أعينهم على هذه التحف ، فيجلبون منها الى مكة ، يضعونها في البيت ، ويزيدون بذلك في عدد الأصنام ، حتى بلغت (٣٦٠) صنماً عند البعثة على مايذكره أهل الأخبار .

«1» Rep. Epi., VII, III, P. 323, Number : 4693.

«٢» « وكان أمر قصي عند قريش ديناً يعملون به ولا يخالفونه . ولما مات دفن بالحجون . فكانوا يزورون قبره ويعظمونه » . البلاذري « ١/٥٢ » .

وقصي في تأريخ مكة ، مثل « تيزيه Thesee » ،او « رومولوس » وأضرابهما ممن أثروا تأثيراً خطيراً في حياة بعض المدن القديمة ، فارتبطت أسماؤهم بأسماء تلك المدن ، واحتلت قصصهم مكاناً بارزاً في الاساطير المروية عنها (١). ومن يقرأ أخبار مكة ، ير أن اسم قصي قد غطى أسماء من سبقوه ، حتى ليكاد تأريخ هـــذه المدينة القديمة التي سبقت قصياً في الوجود ، يبتدىء به .

وقد شك بعض المستشرقين في شخصية قصي ، فذهبوا الى أنها أسطورة من الأساطير التي ابتدعتها مخيلة أهل الأخبار وأساطير أهل الأخبار في نظرهم كثيرة عديدة . ولكننا لو دققنا ما روي عنه وقيل فيه ، لوجدنا أنه لا يدعو الى الذهاب هذا المذهب ، فليس فيه تهويل كثير ولا مبالغات بعيدة ، فكل ما ورد عنه وان جاء بأسلوب أهل الأخبار يدل على أن قصياً كان رجلاً حقاً ، سيطر على شؤون مدينته ، وأوجـــد لقريش عشيرته كياناً في مكة وفي جوار مكة ، في زمن لم يكن بعيدُ عهد عن الاسلام ، ولذلك بقي من ذكراه ما علق بذاكرة المعاصرين للرسول ، وقد نسي منه شيء ، وذلك حينما بلغ أهل الأخبار ، الذين قاموا بتسجيله حتى وصل الينا بهذا الشكل المدون المكتوب .

ونجد في تأريخ مكة وفي تأريخ غير مكة أسماء رجال أقوياء أصحاب شخصيات قوية مثل قصي ، فرضت ارادتها على الناس فرضاً ، وقامت باعمال مفيدة ، اقتبست بعضها من النظم القائمة في الانبراطورية الرومية ، وفي انبراطورية الساسانيين . ولكنها لم تنظر ويا للأسف الى الأمور نظرة واسعة شاملة تتجاوز حدود القبيلة وحـــدود العواطف والمنافع الشخصية ، ولم تكن مبنية على دراسة طبيعة المشكلات وعواملهـــا الأساسية ، وأسسها البعيدة القديمة ، ولم تكن مقرونة بعزم وارادة وفكرة جماعية عامة تنظر الى عرب الجزيرة كلها على أنهم أمة واحدة تجمعهم رابطة الجنس والوطن واللغة ، ولهذا كان تأثيرها في الغالب وقتياً ومحلياً ، ولم نسمع بأمر قام به رجل من أولئك ، ونجح فيه كالأمر الذي قام به الرسول .

وتقع مكة في واد ضيق غير ذي زرع (٢). وموقعها هذا لا يستهوي الأفـــدة

---

(١) هنري ماسيه ، الاسلام ، ترجمة بهيج شعبان « ص ٤١ » .

(٢) « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » ، سورة ابراهيم : الآية ٣٧ .

اليه ولا شك ، فسفوح الجبال المشرفة المطلة عليها عابسة لا خضرة فيها ولا ثلوج ولا أشجار عالية تكلل هاماتها ، وليس فيها شلالات هادرة تتساقط من صخورها ، وكل ما فيها يدل على شدة وشظف وقسوة . ولوقوعها في واد ، ارتفعت حرارتها في الصيف ارتفاعاً يضايق من لم يعتده ، ولم يجلب الناس اليها إلا نشاط أهلها ، نشاط قصي وعبدالمطلب من بعده فى خدمة « الكعبة » والبيت الحرام ، وفى خدمة من يقصد هذا البيت الذي ضم عدداً كبيراً من الأصنام . يكاد يجمع شمل أصنام أكثر القبائل يومئذ ، حتى صار البيت « بانثيونا » أو متحفاً أو مخزناً تكدست فيه الأوثان من مختلف الأحجام والمواد ، فيها المهذب المهندم المنسق ، وفيها الوثن البدائي ، وفيها الصور المستوردة من الخارج المصنوعة في بلاد الشام من أصل نصراني يمثل القديسين والأولياء والأنبياء والملائكة ، فتحولت في مكة إلى أوثان معبودة اختص كل واحد منها أو كل مجموع بقبيلة ، إذا جاء أفرادها الى مكة توجهوا إليها لتحيتها ولمناجاتها ، ولاكتساب عطفها ورحمتها ، ولتكون لها شفعاء عند الله .

وقد كان عدد أصنام مكة عام الفتح ثلاث مئة وستين صنماً وضعت حول الكعبة موصصة بالرصاص ، وهبل أعظمها ، وهو وجاه الكعبة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون . عدا الصور العديدة الكثيرة والتماثيل التي كانت تزين بيت الله الحرام . وقد أزيلت الأصنام ومحيت الصور بأمر الرسول في هذا العام (١) .

ولم تع ذاكرة أهل الأخبار شيئاً من تأريخ الوثنية في مكة على وجه صحيح مضبوط . وقد نسب بعضهم ادخال الأوثان وتغيير دين اسماعيل الى رجل زعموا أنه « ربيعة » ، وهو عمرو بن لحي أبو خزاعة ، قالوا إنه أول من غير دين اسماعيل ، ونصب هبل في الكعبة ، ودعا العرب الى عبادة الأصنام ، وسيب السائبة ، وبحر البحيرة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي (٢) ونسب الأخباريون ذلك الى أشخاص آخرين ، ولم يستمد الأخباريون أخبارهم هذه من أثر قديم جاهلي مكتوب أو من أثر تأريخي مدون ، وإنما أكثر أخبارهم روايات بنيت على السماع والمشافهات .

---

(١) امتاع الأسماع (٣٨٣/١ وما بعدها) ، جامع الاصول (٢٦٦/٩) .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق هرشفيلد ، (١٩١٠) ، (ص ١١) ، أخبار مكة (ص ٧٢ ، ٤٠٢) « تحقيق وستنفلد » .

ولا نجد - ويا للأسف - في كتب أهل الأخبار وصفاً دقيقاً واضحاً صحيحاً للبيت الحرام في أيام الجاهليين ، بل حتى في أيام الرسول . وخلاصة مايستخرج منها أن أول من جدد بناء الكعبة بعد ابراهيم هو (قصي » ، وأنه سقفها بخشب الدوم وجريد النخل (١) ، وأن الكعبة كانت الى عهد قصي قائمة في فلاة ، لايبني أحد حولها إعظاماً لها . فلما آل اليه أمر مكة ، اختط ساحة حولها عدها حرماً آمنا ، علم معالمها ، ووضع رواسمها وحدودها ، وأباح للناس البناء وراء تلك الحدود ومن ثم انتشر البناء الى هذه المواضع (٢) .

وفي وصف هذه الكتب لبيت الله الحرام قبيل الاسلام ، وفي أيام الرسول غموض واضطراب أيضاً ، وخلاصة ماجاء فيها ، أن بنيان الكعبة قبل أن بنتها قريش كان برضم يابس ليس بمدر تنزوه العناق ، وتوضع الكسوة على الجدر ، ثم تدلى من خارج ، وتربط من أعلى الجدر من بطنها . وكان بابها بالأرض ، ولم يكن لها سقف . وكان في بطنها عن يمين من دخلها جب ، يكون فيه مايهدى الى الكعبة من مال وحلية ، كهيئة الخزانة . وكانوا قد علقوا قرني كبش في بطنها بالجدر تلقاء من يدخلها ، يخلقان ويطيبان اذا طيب البيت . وكان فيها معاليق من حلية كانت تهدى الى الكعبة ، أمثال لجم البهم ، يدخل الخايف فيها يده ، فلا يريبه أحد . وقد أصيبت الكسوة بحريق ، فتضعضع البنيان ، ثم تأثر بسيل أضر به ، فهدمته قريش وأعادت بناءه في أيام الرسول . وقد استعملت الحجارة والخشب فيه ، وسقفوه ، ورفعوا الباب ، وكبسوها حتى لاتدخلها السيول ، ولا ترقى إلا بسلم ، وبنوها بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة كما تذكر بعض الموارد ، وجعلوا سقف الكعبة مسطحاً وجعلوا فيها ست دعائم في صفين ، في كل صف ثلاث دعائم . وزادت قريش في ارتفاعها فجعلته ثمان عشرة ذراعاً من خارجها من الأرض الى أعلاه ، وكانت قبل ذلك تسع أذرع . وبنوها من أعلاها الى أسفلها بمدماك من حجارة ومدماك من خشب . وكان الخشب خمسة عشر مدماكا ، والحجارة ستة عشر مدماكاً ، وجعلوا ميزابها يسكب في الحجر ، وجعلوا درجة من خشب في بطنها في الركن الشامي ، يصعد منها الى ظهرها وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها ،

---

(١) في منزل الوحي (ص ٢٠٨) .

(٢) أحمد السباعي ، تأريخ مكة (ص ١٤) .

وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة ، فكان فيها صورة ابراهيم ، شيخ يستقسم بالأزلام ، وصورة عيسى بن مريم وأمه ، وصورة الملائكة . وذكر بعض من أدرك الكعبة قبل عام الفتح أنه رأى في البيت تمثال مريم وعيسى مزوقاً في حجرها عيسى ابنها قاعداً مزوقاً . ورأى في البيت أعمدة ست سواري . وكان تمثال عيسى بن مريم ومريم في العمود الذي يلي الباب . وأعادوا اليها هبل وقرني الكبش ، وكسوها حين فرغوا من بنائها حبرات يمانية وبالوصائل (١) .

وفي بعض الروايات ما يفيد أن جدر الكعبة كانت من حجر ، وانها كانت مسقوفة كالذي ذكرته عن تسقيفها في أيام قصي ، أي عكس ما ورد في الروايات الاخرى التي ذكرت ملخصها فيما ذكرت .

وقد ورد أن قريشاً كانوا يفتحون البيت في الجـاهلية يوم الاثنين والخميس ؛ وكان حجابه يجلسون عند بابه . لا يسمحون لأحد بالدخول اليه بحـذاء ، تعظيماً واحتراماً للكعبة ، ويضعون نعالهم تحت الدرجة . وكان أول من خلع الخف والنعل ، فلم يدخلها بهما الوليد بن المغيرة ، اعظاماً لها فجرى ذلك سنة (٢) .

ولم تذكر كتب الاخبار - ويا للأسـف - أصول تلك الصور . أكانت صوراً مستوردة استوردت من بلاد الشام أو من العراق ؟ أم كانت صوراً محلية ، نقشها رسامون ومصورون كانوا يسكنون مكة على حائط البيت أو على ألواح علقت على الجدران ؟ وربما لا يستبعد أن تكون تلك الصور من مخلفات تلك السفينة اليونانية التي تحطمت عند « الشعيبة » في ساحل الحجاز كما تذكر كتب السير والاخبار ، فاشترى أهل مكة بقاياها ونقلوها الى مكة ، كما استعانوا ببعض من كان فيها لمساعدتهم في بناء الكعبة ، فقد ورد في بعض الأخبار أن تلك السفينة المنكوبة كانت تحمل صوراً ورخاماً وفسيفساء لاستعمالها في كنائس اليمن . فلعل قسماً منه ، وهو القسم الذي خلص من الغرق ، نقل الى مكة ، وكان نصيبه وضعه في الكعبة .

وقد أزيلت الاصنام والأوثان وصور الأنبياء والملائكة عام الفتح ، أزيلت كلها

---

(١) أخبار مكة (ص ١٠٤ وما بعدها) .

(٢) اخبار مكة ص (١١٨) .

وطمست معالمها كلها في معظم الروايات الواردة عن عام الفتح ، الا روايات تذكر أن الرسول أمر بثوب ، فبل بالماء ، وأمر بطمس تلك الصور ، ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه ، وقال : أمحوا جميع الصور ، الا ما تحت يدي . فبقيت صورة عيسى . وروايات أخرى تذكر أن تمثال عيسى ومريم بقي الى أن هلك في الحريق الذي وقع في أيام ابن الزبير . ورواية تذكر أن امرأة من غسان حجت في حاج العرب ، فلما رأت صورة مريم في الكعبة ، قالت : بأبي وأمي ! إنك لعربية . فأمر رسول الله أن يمحو تلك الصور ، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم . وروايات أخرى تذكر أن الرسول قد أمر بطمس جميع الصور حتى صورة مريم وعيسى . ولكن الطمس لم يزل الصور تماماً ، فبقي أثر بعضها ، حتى أزيل في زمن الخليفة عمر (١) .

ولم يكتف أهل مكة بالتقرب الى اصنام البيت الحرام وأوثانه وحدها ، بل وضعوا أصناماً في بيوتهم ، تقربوا اليها في الليل والنهار . وقد كان سائر الناس في الحجاز وفي جزيرة العرب يفعلون ذلك ، حتى الأعراب كانوا يحملونها معهم ، فاذا تنقلوا نقلوها معهم . ولما كان عام الفتح ، أمر الرسول أهل مكة بكسر أصنام البيت الحرام وأصنام البيوت . وكان عكرمة بن أبي جهل حين اسلم ، لا يسمع بصنم في بيت من بيوت قريش ، الا مشى اليه حتى يكسره . ولم يكن في قريش رجل بمكة إلا وفي بيته صنم ، إما مستورد ، وإما من صنع مكة . وكان في مكة رجل يقال له أبو تجارة ، يعمل الأصنام في الجاهلية ، ويبيعها . وقد كان أهل مكة يطوفون بها في الأسواق ، فيشتريها منهم أهل البدو ، فيخرجون بها الى بيوتهم . وكان صاحب الصنم اذا دخل بيته يمسح الصنم ، واذا خرج يمسحه تبركاً به (٢) .

وليست بي حاجة ، على ما أظن ، الى لفت نظر القارىء الى هذا التضارب الغريب في عبادة قريش ، في هذا التضارب المتمثل في وجود هبل والأصنام الأخرى التي ترمز عن الوثنية مع صور الأنبياء والملائكة التي تمثل النصرانية في قاعة واحدة وفي بيت يعد أقدس مكان على وجه الأرض في نظر المكيين الوثنيين يومئذ . في بيت

---

(١) أخبار مكة « ص ١١٠ وما بعدها »

(١) أخبار مكة « ص ٧٨ » .

لم يكن الا غرفة واسعة ، جمعت الوثنية والنصرانية في هدا المحل . وليس هذا التناقض في الواقع إلا صفحة من كتاب يجمع متناقضات عديدة نراها في حياة قريش .

لقد كانت وثنية قريش ، وثنية متطورة ، تقبل كل تطور ، ما دام التطور في حدود الوثنية وإطارها . كانت تتقبل كل صنم أو وثن أو تمثال أو صورة ، تضمها الى الأعداد المكدسة في الكعبة ، وتتقرب اليها لا يهمها أصلها ومصدرها ، ما دامت تقدمة وهبة الى رب البيت ، قدمت اليه على أنها شفيعة تقرب أصحابها من ذلك الرب . فعبادة مكة في هدا العهد عبادة شفعاء ووسطاء ومقربين ، تتمثل في تماثيل وأصنام وصور وأوثان على نحو ما ذكرت .

وفي جزيرة العرب محجات عديدة أخرى ، قصدها الجاهليون للتبرك والتقرب الى آلهتها . وقد سبق أن تحدثت عنها في أثناء كلامي على الحياة الدينية عند العرب قبل الاسلام ، بعضها كبير قصدها المؤمنون بها المعتقدون بقدسيتها من مواضع بعيدة ، وحجت اليها قبائل متعددة ، وقد ضمت جملة أصنام وأوثان ، وبعضها صغير اختصت بعبادتها قبيلة واحدة أو مدينة واحدة أو قبائل محدودة . وقد كانت في الحجاز وفي اليمن جملة منها ، أشار اليها الاخباريون . وقد عثر الرحالون والمنقبون على آثار تلك المعابد وبقاياها ووجدت فى انقاض بعضها كتابات ، أمر بتدوينها المؤمنون بأرباب تلك المحجات .

وقد أثارت كثرة هذه الأوثان والصور في مكة ، وتهالك الناس في التقرب اليها ، انتباه بعض المفكرين من أهل مكة ومن القادمين اليها ، ومن المحتكين بأهل الكتاب ، فتساءلوا عن قيمتها وفائدتها بالنسبة الى الانسان ، وهى حجارة وصور لا تسمع ولا تعي ولا تنفع ولا تضر ؛ صنعها الانسان بنفسه ، واحاطها بهالة التقديس والتعظيم ، حتى جعل لها قوة ، وأضاف اليها مقدرة ، ثم زعم أنها تؤثر وتشفع للانسان عند الله . وقد تنكروا لعبادة قومهم هذه ، واجتنبوا تلك الأوثان واعتزلوها ، واشاروا على قومهم بفساد زعمهم ، وبطلان ما ذهبوا اليه فيها ، برفق ولين وسكون ، دون أن يثيروا قومهم عليهم . جرى ذلك في زمن كان الناس فيه في عاصمة الروم يتجادلون ايضاً فى شرعية تقديس صور الأنبياء وصور المسيح وأمه والقديسين وغيرها وفي موافقتها لأصول الدين.

جدال هز الانبراطورية هزاً عنيفاً فيما بعد ، وأوجد جدلاً فيما بين رجال الكنيسة في حرمة وضع هذه الصور في الكنائس أو إباحتها فصاروا في ذلك شيعتين : شيعة معارضة تعتقد أن ذلك كفر وضلال وإلحاد ، وشيعة تتحمس للصور ولا ترى فيها مخالفة للعقيدة بل على العكس ترى فيها تذكرة للانسان تذكره بأولئك الأنبياء والرسل ، وتجعلهم وكأنهم أمامه ، فهي إذن خدمة للدين والايمان في نظرهم هذا .

ومن يدري ، فقد يكون لهذا الجدل النصراني العنيف على تحريم تقديس الصور أو اباحتها علاقة برأي الأحناف في تقديس أهل مكة للاصنام والاوثان والصور . فقد كان هؤلاء كما ذكر الأخباريون على اطلاع باليهودية والنصرانية ، وكان لهم أو لبعضهم علم بالعبرانية والسريانية . وقد لازم بعضهم رجالاً من الأحبار والقسيسين والرهبان ، فلا يستبعد أن يكونوا قد تأثروا به ، إذ كان الجدل عنيفاً عاماً ، ولم يكن خاصاً بالقسطنطينية أو بقطر واحد من الأقطار الخاضعة للانبراطورية البيزنطية . ولا أستبعد وصول هذا الجدل الى نصارى جزيرة العرب ووقوفهم عليه واشتغالهم به ، وانقسامهم على أنفسهم فيه ، كما انقسم نصارى الانبراطورية في هذه القضية الى شيعتين .

وبعض هؤلاء الراغبين عن ديانة قومهم ، المتنكرين للأصنام والأوثان ، كانوا كما تقول الأخبار على علم بالعبرانية والسريانية ، وقد قرأوا كتب أهل الكتاب ، ووقفوا على آرائهم ، لكنهم لم يدخلوا في يهودية ولا نصرانية ، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، كما تجنبوا الأعمال المضرة التي كان يقوم بها بعض الجاهليين ، واعتزلوا قومهم ، وصبوا عن دينهم ، وعرفوا بالأحناف . وقد عاشوا في عزلة ، في تأمل وتفكير ، في حالات انفرادية ، إذ لم يكن هؤلاء شيعة وفرقة ولا كان لهم دين له قواعد معينة ثابتة ، وانما كانوا أفراداً أنكروا عبادة قومهم ، ولم يرتضوا عن أعمالهم ، وكان لكل في الاصلاح رأي ووجهة .

والحديث عن هؤلاء وعن آرائهم وعن النحل والمذاهب الدينية التي كانت عند أهل الحجاز والجاهليين عند ظهور الاسلام ، حديث طويل ، لايمكن سرده هنا ، وقد تحدثت عنه في كتابي تأريخ العرب قبل الاسلام واليه مرجع من يريد الاستزادة في هذا الموضوع .

وقد اكتفى الأحناف ، على ما يظهر من روايات أهل الأخبار ، بالابتعاد عن المجتمعات وبالنفرة من تقديس الأوثان ، فلم يتقربوا اليها ، اكتفوا بذلك ورضوا بعقيدتهم هذه وباقتناعهم بفساد معتقدات قومهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الجهر بآرائهم والمناداة بها علناً في المحلات العامة ، ظلوا على ذلك الى مماتهم ، ولهذا لم تكن علاقتهم مع قومهم سيئة ولم يصطدموا معهم . بل نظر اليهم نظرة تقدير واحترام ، وكانوا يأتونهم للاستفسار عنهم عن كثير من المعضلات والمشكلات ، لما لهم من اطلاع ووقوف على الكتب والأخبار . ولا أستبعد اشتغالهم بأمور أخرى ، مثل الفلسفة والتطبيب والمنطق وما شابه ذلك من أمور برع بها رجال الدين في ذلك العهد .

وقد اعتكف الرسول كما اعتكف هؤلاء الأحناف ونفر من تقديس قومه للأوثان والصور والأصنام ، ولكنه لم يكتف كما اكتفوا بالاقتناع بصحة رأيه وفساد رأي قومه وكفى . ولو اكتفى بذلك ، كان واحداً مثلهم لا يمتاز عليهم بشيء . بل عاب قومه على فساد عقيدتهم ، وندد بعبادتهم حجارة لا تعي ولا تسمع ، ومن هنا وقع الاصطدام ، وثار القوم على الرسول قاصدين قتله أو اسكاته على نحو ما سنرى من بعد . فالرسول كان صاحب فكر ودين ورسالة ، مكلفاً وحياً بوجوب الدعوة الى الله وابلاغ رسالته الى العالمين . أما هم ، فكانوا أصحاب فكر ودين وعقيدة ، لهم وحدهم رسالتهم وعقيدتهم ودينهم ، ولمن أراد الدخول في بيأتهم الرحب والسعة . وفي ذلك الطمأنينة على الحياة والأمن والسلامة . فكان ما عندهم في حدودهم وحدود الأصدقاء والأتباع إن كان لهم أتباع وأشياع .

وخدمة « البيت الحرام » هي خدمة كبرى ، وهي شرف عظيم ، تجلب لصاحبها المال والاحترام والتقدير ، كما تجلب له الغنى من الهبات والنذور والاطايب التي يحملها المؤمنون الى بيت ربهم ، لاسترضائه وكسب عطفه ووده ورضاه ، ليبارك فيهم وفي أموالهم وماشيتهم وزروعهم . خدمة اختصت بها أسرة من قريش ، توارثتها عن قصي ، وقد تنقلت في أفرادها من الآباء الى الأبناء . تخول صاحبها وأسرته التقدم على سائر الناس والتصدر فيهم . وقد كان حاجب الكعبة عام الفتح عثمان بن طلحة . والحاجب هو سادن البيت ، وبيده مفتاح البيت (١).

---

(١) امتاع الأسماع « ١/٣٨٥ ، ٣٨٧ » ، جامع الأصول « ٩/٢٦٧ ، ٣٤٢ » .

وقد جلب « البيت الحرام » « بانثيون » مكة ، الرزق والأمن لأهل مكة . جلب لهم الرزق بقدوم الحجاج اليهم لحج البيت والتقرب الى الأصنام في مواسم الحج ، وفي غير هذه المواسم . جاؤوها أفراداً وجماعات . ولكل من القادمين اليها صنم مفضل ووثن يتقرب به الى ربه ، راجياً به المغفرة والرضوان والبركة والعمر الطويل والرزق الوافر له ولأسرته . جاؤوها يحملون معهم نذورهم وهداياهم الى أصنامهم والى سدنتها وخدام البيت ، ومعهم سلعهم وما عندهم من ناتج فائض عن حاجتهم لبيعه في أسواق مكة ، أو لمقايضته بسلع أخرى يحتاجون اليها ، فربح أهل مكة بذلك ، وعاشوا على هذه المناسبات ، وأطعموا من جوع ، وهيأ لهم سبل الاتجار مع الخارج .

وحرم مكة حرم آمن ، من دخل فيه كان آمناً ، لا يجوز فيه قتال ولا اعتداء . جلب لأهله وللقادمين اليه الأمن والطمأنينة . وبذل أهل مكة جهدهم في خدمة الزائرين والحجاج ، والمحافظة عليهم ، وضمان كل وسائل الراحة لهم وضمان ذلك هو نفع لهم وخدمة لمصالحهم بالطبع ، لضمان مجيء الحجاج والقاصدين اليهم بعدد وافر . وقد جاهدوا واجهدوا أنفسهم في عقد المعاهدات مع القبائل وسادات الأماكن المحيطة بهم ، لضمان الأمن لهم وللقادمين اليهم . مجنبين انفسهم التورط في الحزازات والخلافات القبلية جهد استطاعتهم ، متخذين طريق الحياد ، والاستعداد للتوسط بين المتخاصمين في حل الخصومات ، واحلال السلام ، وفي السلم خدمة لمكة . تضمن لهم قدوم الحجاج والمعتمرين . وفي الحروب تعويق لهم ومنع من الوصول اليها ، وهذا ما يقطع عنهم التجارة والرزق .

والى رزق قريش من « البيت الحرام » ، وحصولها على أمنها أشير في القرآن الكريم في سورة قريش : « لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

وأشير الى حرم مكة والى قدسيتها وأمنها في آية العنكبوت ٦٧ : « أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم » ، وفي آية القصص ٥٧ : « وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء » .

وليس في مكة نهر أو جدول أو عين جارية ، فكل مافيها بئر تستقي منها ، حفرتها بنفسها في هذا الوادي الجاف ، عرفت بـ « بئر زمزم » . تذكر الروايات أن عبدالمطلب انتزحها بعد انسدادها قبله ، فأعانت مكة ، وقدمت لها الماء ، وصارت حقوقها في أولاده جزاء قيامه معهم في اعادة احتفارها . ثم آبار صغار خارج مكة على مسافات منها ، ونقل الماء من هذه الآبار الى مكة أمر شاق مضن ولاسيما في أيام الصيف حيث تشتد حاجة الناس الى الماء . ويتعرض الانسان لحر شديد كوهج النار ، والى ظمأ شديد لا يعرفه إلا من أقام في مكان يشبه هذا المكان .

وأمطار مكة قليلة ، وقد تحتبس عنها سنين عدة ، وقد تنهمر أنهاراً فتفتح أبواب السماء عليها كأفواه القرب ، تنتج سيلاً يجرف مايعترضه ويلحق الأذى بالناس ، وهي لا تفيد أهل مكة ولا تنفع أرضهم شيئاً ، ولا تنشيء لها خضرة تلطف من منظر الصخور الجرد في جبالها وأرضيها .

فزمزم إذن نعمة كبرى لأهل مكة وللقاصدين اليها ، ومال لأصحابها الذين آلت اليهم ، ولا عجب إذا عدت وظيفة « السقاية » في مكة من درجات الشرف الكبرى تساوي الحجابة في المنزلة . ولا عجب أيضاً إذا اقترن اسم زمزم بالبيت الحرام ، وعد ماؤها مقدساً ، فلهذه البئر علاقة وصلات بهذا البيت .

وقد أثر موقع مكة وجوها في طباع أهلها ، فغلب على أهلها الجد والشدة ، وظهرت عليهم الصرامة والعزم ، وبانت عليهم اليبوسة والغلظة ، واضطروا الى خدمة من يأتيهم حاجاً ، وتقديم كل ما أمكنهم من مساعدة إليهم ، لحملهم على العودة اليهم ، وعلى الامتيار منهم ، للتخفيف بذلك من انحباس كرم الطبيعة عنهم ، وبخلها الشديد عليهم . ولم يكتفوا بذلك ، بل ارتحلوا الى مختلف الأنحاء تجاراً أو وسطاء في تجارات غيرهم ، طمعاً في كسب كثير أو قليل ، فكانوا أعظم التجار وأكثرهم حركة ونشاطاً عند ظهور الاسلام .

وقد تكدس في مكة عدد كبير من الأحابيش أي الرقيق الأسود المستورد من إفريقية من الحبشة ومن غيرها . وقد عرف هؤلاء بالأحابيش ، لصلة الحبش بجزيرة العرب قبل الاسلام بزمان طويل ، ولحكم الحبش لبقعة كبيرة من الساحل المقابل لبلاد

العرب ، ولكونهم المستوردين لهؤلاء الى أسواق النخاسة في ساحل إفريقيا وفي جزيرة العرب . وقد استعمل هؤلاء في أكثر الحرف الشاقة والأعمال المرهقة ، ونيطت بهم الحراسة ، فكانوا حراساً لكبار التجار يحمون قوافلهم ، ويصدون عنهم غارات الأعراب وقطاع الطرق ، كما كانوا خداماً يخدمون سادات هذه القوافل : يهيئون لهم طعامهم وشرابهم ، ويعملون في متح الماء من الآبار ، للشرب وللسقي ، ويشرفون على رعي الابل والماشية ، الى غير ذلك من الأعمال التي لاتحتاج الى مهارة واختصاص ولا الى ذكاء كبير .

أما الأعمال التي تحتاج الى مهارة وذكاء وخبرة ، فقد تولاها أناس أستوردوا من الشمال : من العراق ، ومن بلاد الشأم ، ومن أوربة أيضاً . أوقعهم حظهم في الأسر ، فبيعوا في أسواق النخاسة ، ونقلوا الى جزيرة العرب ، لأداء هذه الاعمال لمشتريهم . فهم في حكم الآلة ، تشتري من مستوردها لتقوم بالعمل الذي خصصت به . وليس لها الا الدهن والوقود والادامة . وهؤلاء استوردوا لأداء الاعمال التي تخصصوا بها وأتقنوها والتي يصعب على الافريقي القيام بها . وناتجه وعمله لغيره لمالكه ، وليس له غير القوت واللباس لادامة عمله وضمان بقائه حياً للاشتغال والانتاج ونجد بين هؤلاء نفراً أشار اليهم أهل السير والاخبار لعلاقة لهم بسيرة الرسول ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، وفيهم أناس قيل أنهم من أهل « نينوى » أي من منطقة الموصل ، أناس من الفرس ، وأناس من بلاد الشأم ومن الروم .

وحالة الموالي والعبيد حالة مزرية مؤسفة ، ولا سيما حالة من كان منهم في ملك أشخاص قساة القلوب غلاظ الاكباد . فقد كان هم أصحابهم الاستفادة منهم ، وتسخيرهم في الاعمال المرهقة الشاقة من غير تفكير في حالهم وماهم عليه من بؤس وتعاسة وشقاء . اذا مات المملوك كان مايملكه وما عنده من زوج وأطفال ملكاً للمالك ، باعتبار أن المملوك هو نوع من الملك ، وأن حق المتملك والملكية حق دائم مستمر متصل غير منقطع مادام للمالك أو ورثته رغبة وحق في المملوك . وهكذا نرى العبودية عبودية دائمة مستمرة تنتقل من الرقيق الى أبنائه ، إلا اذا تنازل من له حق شرعي عنه فحرر رقبته ، ويكون عندئذ في حماية مولاه وفي كنف قبيلته .

ولما كان الوضع على هذا الحال والمنوال أعني وجود قلة غنية جاهلة متعجرفة

متحكمة في كثرة فقيرة ضعيفة ، لاترحم فقيراً ولا تعطف على يتيم ، فلابد أن يكون هوى الفقراء والضعفاء في واد آخر في غير مصلحة ساداتهم . ولكن ما الذي كان في إمكان اولئك صنعه ، وهم طبقة ضعيفة لاحول لها ولا قوة ؟ لم يكن في امكانهم عمل شيء إلا التضرع الى آلهتهم بأن يفرج عنهم وينقذهم من هذا الوضع السيء فليس بعجيب إذن اقبالهم على الاسلام ، وانخراطهم فيه ، وتأييدهم للرسول ، وتفانيهم في الدفاع عنه. وفيه حث على انصاف المظلومين ، وإعطاء حقوق اليتامى والمساكين ، وفرض على الأغنياء في مساعدة الفقراء : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم » ، (١) و « والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » (٢) .

ونجد في القرآن الكريم حثاً شديداً على مساعدة السائل والمحروم والعطف على اليتيم وتقريعاً وتعنيفاً للذي يغتصب أموال اليتيم ، ويعتدي على مال القصير ، ولمن لايساعد الفقراء ، وفي هذا التعنيف والتشديد والتقريع دلالة على حالة اجتماعية سيئة كانت في مكة في ذلك العهد ، هي الحرص على المال والفقر المدقع ، والفقر هو السبب في ظهور مثل هذه الحالات . وفي سلب حقوق الضعفاء وعدم مساعدة الفقراء . بل حمل الفقر بعضهم على قتل أولادهم خشية إملاق . وما الوأد المذكور في القرآن الكريم إلاحالة من هذه الحالات . حالات الفقر الملعون الذي كان منتشراً يومئذ ، « ولا تقتلوا اولادكم من إملاق . نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن » ، (٣) « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم واياكم ، إن قتلهم كان خطأ كبيراً » ، (٤) « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسؤولا ، (٥) « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، واوفوا الكيل والميزان بالقسط » (٦) .

والفقر والاملاق وانتهاز الفرص للاثراء ، كل هذه وأمثالها جعلت الناس

---

(١) التوبة (الآية ١٠٤) .

(٢) المعارج (الآية ٢٤ وما بعدها) .

(٣) الأنعام ، الآية ١٥١ .

(٤) الاسراء ، الآية ٣١ .

(٥) الاسراء ، الآية ٣٤ .

(٦) الأنعام ، الآية ١٥٢ .

ينتهزون الفرص للحصول على ربح ومغنم ، دون تفكير في الوسيلة وفي الطريقة . فمادام الربح هو الغاية فلا تفكير في السبل الموصلة إليه ، والغاية تسوغ الواسطة . ولهذا نجد البائع يلجأ الى مختلف الوسائل للحصول على ربح ولو كان يسيراً جداً . يلجأ الى الغش والتزوير ، ويلجأ الى الميزان فيلعب به ، وينقص الكيل ليحصل على فرق يسير لا يساوي عندي وعندك شيئاً ، إلا انه فرق ملحوظ عند أناس تلك الأيام ، بسبب أحوالهم المزرية ومستوى معيشتهم المنخفض في ذلك العهد ، نجد صداه في القرآن الكريم في آية : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » (١) ، وفي سورة المطففين : « ويل للمطففين ، الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم » .

وهناك آيات أخرى تشير الى هذا الجشع الذي عم الناس في ذلك العهد . وكلها وعد ووعيد وتقريع للغشاشين الجشعين الطامعين ، وفيها أمر وتحتيم للمسلمين المؤمنين بوجوب تجنب هذا الجشع ، وانصاف الناس ، والتفكير فيهم ، تفكير الانسان في نفسه. ونزولها دليل على تلك الأوضاع والحالات السيئة التي كانت في ذلك العهد . الفقر، والضيق ، والحاجة ، والأنانية متغلبة على النفوس بسبب ذلك الفقر . والفقر كافر ملعون .

وهذا الفقر أيضاً والشح في العيش والضيق في المكان ، جعل أهل مكة يحسد بعضهم بعضاً ، ويغتاب بعضهم بعضاً ويلمزه ، فاذا جالس بعضهم مع أصحابه عظموه ، حتى اذا فارقهم سلقوه بألسنة حداد وغمزوه . ولو كان لهم شغل يشغلهم وعمل يلهيهم ، وأعمال دائمة وأرباح وافرة ينالونها بالكد والاجتهاد ، لكان الأمر شيئاً آخر ولاشك . ومن هنا تفسير ما نجده في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي من تقريع وتعنيف لأفراد ذلك المجتمع الجاهلي المتصف بالنفاق والحسد والمراءاة .

ويصور القرآن الكريم ، غني مكة وغني عهد النبي في أماكن أخرى من الحجاز ، رجلاً همه جمع المال وتكديسه وتكثيره . المال في نظره جاه وشرف وحسب ، يفتخر به على غيره ممن لا يملك مثله مالاً ، ويتباهى به وبذريته وبأولاده . وفي الآية : « وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً ، وما نحن بمعذبين » (٢) . وصف لحالة الغني الكثير المال ،

---

(١) الأنعام : الآية ١٥٢ .

(٢) سبأ : الآية ٣٥ .

يفتخر على غيره بكثرة ماله وبعدد أولاده ، ووصف لصلفه وخيلائه وادعائه أن ماله شفيعه يشفع له حتى من العذاب . وكيف لا يكون شفيعه ومنقذه من العذاب ما دام يرى بعينيه أثر سحر ماله في الناس، وكيف لايجلب له التقدير والاحترام ويحقق له كل حقوقه ودعاواه ، بينما يرى الضعيف الفقير ، وهو ضعيف مهاناً لا قدوله في مجتمعه ولا شأن له بين أهله وجماعته ، بسبب فقره وضعف حاله . حقه ضائع مهدر ، ان طالب به لم يجد له والياً ولا نصيراً ، على حين يعطى الغنى حقه ولا يناله دون جهد وتعب . كل ذلك بسبب ماله وغناه .

وفي سورة الهمزة : « ويل لكل همزة لمزة ، الذي جمع مالاً وعدده ، يحسب أن ماله أخلده » وصف آخر لغني ذلك الزمان . ان همه جمع المال وتعديده المال في نظره ، هو الذي يعظم الانسان ويخلده . وجوابه على نظرته هذه الى المال : « كلا ، لينبذن في الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ؟ نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم موصدة ، في عمد ممددة » . وهذه الآيات الكريمة ، هي رد الاسلام على هذه النظرة الجاهلية ، وهي نوع من انواع الصراع المهم الذي وقع بين الجاهلية والاسلام يمثل اختلاف المبادىء بين العهدين .

ولم تكن ثروة قريش موزعة توزيعاً عادلاً ، بل كانت مكدسة مكتنزة عند نفر ، احتكر لنفسه المال والثراء ، أما الأكثرون ، فكانوا فقراء ، حتى ذوو قرابة هؤلاء المثرين ، كان أغلبهم فقراء ، لا يجدون منهم عوناً . ومجتمع مثل هذا ، لا يمكن أن يتطرق اليه الانسجام وتخامره الألفة والمحبة الصادقة ، مهما ربط بروابط الطاعة والتسليم الى القدر والى العرف والعادة وآداب الآباء والأجداد . وهذا هو الذي جعل الاسلام يحض على مساعدة الجار ورعاية الفقير وايواء اليتيم ونحو ذلك من المثل الانسانية الرفيعة ، كما نرى خبره في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول .

وقد كان لهذا البون الشاسع بين « عظماء » أم القرى ، وسوادها الاعظم أثر خطير في الاسلام ، كما كان لهذا السواد أثر كبير في دخولهم في الاسلام ونشره . فقد كان المستضعفون من أكثر الناس اسلاما ومن اكثرهم التفافاً حول الرسول ، حرصوا على نشر الاسلام والدعوة اليه . وفي دخولهم فيه خلاص لهم من تحكم سادتهم فيهم ،

وفيه ضمان لمستقبلهم وأمن لهم ولحريتهم من هذا المجتمع المتحكم في المستضعفين ، المستغل لهم لمصالح أرباب البيوتات المتحكمة في الناس . ولم تكن مصلحة الفئة القليلة الغنية الاستجابة للاسلام ، لما رأته في الاستجابة الى دعوة رجل فقير يتيم من ذلة ومهانة ، ولذلك سخرت من الرسول ومن الذين استجابوا لدعوته ، وكانوا يستهزؤون ويضحكون حين يرون الرسول وحوله أولئك المستضعفين .

ومكة وإن كانت مجتمعاً مستقراً حضرياً ، أهله أهل مدر في الغالب ، غيرأنها لم تكن حضرية تامة الحضارة بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، لأن الحياة فيها كانت مبنية على أساس العصبية القبلية : المدينة مقسمة الى شعاب ، والشعاب هي وحدات اجتماعية مستقلة ، تحكمها الاسر ، وبين الاسر نزاع وتنافس على الجاه والنفوذ . حاربه الاسلام وقد بقي مع ذلك متحكماً في النفوس حتى اليوم ، لا في مكة وحدها ، بل في العالم العربي كله . نزاع بين بني هاشم وبين أمية على الرئاسة في مكة ، ثم على الرئاسة والزعامة في الاسلام ، آذى الجاهليين كما آذى المسلمين (١) . ونزاع بين أسر أخرى على الزعامة والرئاسات .

لقد حاول بعض رؤسائها ووجوهها التحكم بأمر مكة ، واعلان نفسه ملكاً عليها ، يحلي رأسه بالتاج شأن الملوك المتوجين ، ولكنه لم يفلح ولم ينجح . حتى ذكر أن بعضهم التجأ الى الغرباء ، لمساعدتهم بنفوذهم السياسي والمادي والعسكري في تنصيب أنفسهم ملوكاً عليها ، فلم ينجحوا ، كالذي ذكروه عن عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، المعروف بـ « البطريق » ، من أنه طمع في ملك مكة ، فلما عجز عن ذلك ، خرج الى قيصر ، فسأله أن يملكه على قريش ، وقال : احملهم على دينك ، فيدخلون في طاعتك » . ففعل ، وكتب له عهداً وختمه بالذهب . فهابت قريش قيصر ، وهموا أن يدينوا له ، ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة ، فصاح ، والناس في الطواف : ان قريشاً لقاح ! لا تملك ولا تملك ، وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى : ألا إن مكة حي لقاح . لا تدين لملك ، فاتسعت قريش على كلامه ، ومنعوا عثمان مما جاء له ، ولم يتم له

---

(١) « . . . قال جعفر : سألته عما عنده في أمر علي وعثمان ، فقال : هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم . وقد كان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم وكان أبو سفيان يحسد محمداً وحاربه . . . » ، شرح ابن أبي الحديد (٢٢٠/٢ ، ٤٠١ ، ٣٨٢/٣) .

مراده ، فمات عند ابن جفنة . فاتهمت بنو أسد بن جفنة بقتله » (١) وابن جفنة هو عمرو بن جفنة الغساني (٢) .

ولم يكن عثمان بن الحويرث أول زعيم جاهلي فتن بالملك وبلقب ملك الحبيب الى النفوس ، حتى حمله ذلك على استجداء هذا اللقب والحصول عليه بأية طريقة كانت ، ولو عن سبيل التودد الى الأقوياء الغرباء والتوسل بهم ، لمساعدتهم في تنصيبهم ملوكاً على قومهم ، ففي كتب الأخبار والتواريخ أسماء نفر كانوا على شاكلته . فتنهم الملك وأعماهم الطمع وحملهم ضعف الشخصية وفقر النفس حتى على التوسل الى الساسانيين والروم ، لتنصيبهم على قومهم ومنحهم اللقب الحبيب ، ووضع التاج على رأسهم ، في مقابل وضع أنفسهم وقومهم في خدمة السادة المساعدين أصحاب المنة والفضل .

لقد استماتت عثمان بن الحويرث في سبيل الحصول على ملك مكة ، حتى ذكر أنه تنصر وتقرب بذلك الى الروم ، وحسنت منزلته عندهم . ومن يدري ؟ فلعله كان مدفوعاً مأموراً حرضه الروم ودفعوه للحصول على المدينة المقدسة ، ليتمكنوا بذلك من السيطرة على الحجاز والوصول الى اليمن والسيطرة بذلك على العربية الغربية والعربية الجنوبية ، وإخضاع جزيرة العرب بذلك لنفوذهم . جمع القوم ورغبهم وأنذرهم وحذرهم بغضب الروم عليهم إن عارضوا مشروعه وقاوموا تنصيبه ملكاً عليهم ، قائلاً لهم : « يا قوم! إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه ، وقد ملكني عليكم ، وأنا ابن عمكم واحدكم ، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب ، فأجمع ذلك ، ثم أذهب اليه . وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام ، فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه »(٣) . وبعد أفترى تهديداً أشد من هذا التهديد ، وتصميماً على التملك بأية طريقة كانت أقبح من هذا التصميم .

ولعل لقبه « البطريق » الذي عرف عثمان بن الحويرث به ، هو من افضال اليونان عليه ، اعطوه اياه فعلاً أو قولاً ، لاسترضائه وكسبه . ولا يعقل أن يكون لقباً دينياً له بالطبع . وقد كان الروم يغدقون الألقاب على الرؤساء وسادات القبائل

(١) نسب قريش ، (ص ٢٠٩ وما بعدها) ، الروض الأنف (١٤٦/١) .
(٢) المصدر نفسه ، وجمهرة ابن حزم (ص ١٩٠) .
(٣) العقاد : العبقريات الاسلامية (ص ١٣٠) الروض الانف (١ / ١٤٦) .

لكسبهم وشرائهم، وهي ألقاب اسمية فخرية، ليست لها بالطبع الدرجة والمنزلة التي يتمتع بها من يحمل هذه الدرجة من الروم.

ولم تكن هنالك ألفة ومحبة، ولا وحدة جامعة بين الناس. فالأنانية والروح القبلية التي هي نفسها أنانية متوسعة، لم تكن تساعد على ظهور مجتمع متوحد كبير. وكل رئيس كبير يرى أن الرئاسة يجب أن تكون له، وأن التسليم برئاسة آخر عليه، معناه مذلة وإهانة. ثم ان التعاون مفقود، بسبب الوضع المالي السيء، ووجود فقر عام. والمجتمع الفقير لابد أن تعمه الفرقة وأن يظهر فيه الحسد والتطاحن بين الناس في سبيل العيش الضيق والرزق. وقد أشير الى هذه الظاهرة في القرآن الكريم. وقد ذكرت هذه الآيات المؤمنين بذلك الوضع الذي كانوا فيه. وحثهم على الوحدة وعدم العودة الى تلك الحياة الجاهلية: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته اخواناً» (١)، «هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم» (٢).

فعد الاسلام هذه الوحدة التي قامت مقام الفرقة والتشتت نعمة من نعم الله على المؤمنين، وطلب من المسلمين الاعتصام بالاسلام وعدم الفرقة فيه، وأن يذكروا نعمة الله هذه عليهم التي جعلتهم بفضله إخواناً.

ولم تكن في مكة حكومة مركزية بالمعنى المفهوم المعروف من الحكومة، فلم يكن فيها ملك له تاج وعرش، ولا رئيس واحد يحكمها على أنه رئيس جمهورية أو رئيس مدينة، ولا مجلس رئاسة يحكم المدينة حكماً مشتركاً أو حكماً بالتناوب، ولا حاكم مدني عام أو حاكم عسكري. ولم يتحدث أهل الأخبار عن وجود مدير عام فيها واجبه ضبط الأمن، أو مدير له سجن يزج فيه الخارجين على الأنظمة والقوانين أو ماشابه ذلك من وظائف نجدها في الحكومات وكل أمرها أنها قرية تتألف من شعاب، كل شعب لعشيرة، وأمر كل شعب لرؤسائه هم وحدهم أصحاب الحل والعقد والنهي والتأديب.

---

(١) آل عمران: الآية ١٠٣.

(٢) الأنفال: الآية ٦٣.

وليس في استطاعة متمرد مخالفة أحكامهم ، وإلا أدبه حيه ، وملؤه أي أشرافه . هؤلاء الرؤساء هم الحكام الناصحون وهم عقلاء الشعب .

وقد أشير الى رؤساء مكة في القرآن الكريم في آية الزخرف ٣١ : « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . ويراد بالقريتين مكة والطائف . وأشير في الآية التالية لها الى وجود درجات من الناس بعضهم فوق بعض . وفي هذه الآيات شرح للحالة الاجتماعية لأهل مكة والطائف والمواضع الأخرى في ذلك العهد. فرؤساء مكة هم عظماؤها وساداتها ، وهم أعلى الناس منزلة ودرجة ومكانة فيها . و « عظماء مكة » أو « عظماء الطائف » هم الطبقة « الارستقراطية » المتزعمة في الناس ، المعروفة بعنجيتها وتكبرها وجبروتها وخيلائها وحسبان نفسها أنها هي الناس ، أتتها الزعامة وراثة أو عن مال كسبته ومتاع حصلت عليه .

فالحكم في مكة اذن حكم لا مركزي ، حكم رؤساء وأصحاب جاه ونفوذ ومنزلة . تطاع فيها الأحكام ، وتنفذ الأوامر ، لا لوجود حكومة قوية مركزية مهيمنة لها سلطة على أهل مكة ، بل لأن الأحكام والأوامر هي أحكام ذوي الوجه والسن والرئاسة والشرف. وأحكام هؤلاء مطاعة في عرف أهل مكة وفي عرف غيرهم من أهل جزيرة العرب . حكمت بذلك العادة وجرى عليه العرف ، ولا مخالفة للعرف والعادة . فالعرف قانون أهل الجزيرة حتى اليوم . وانتهاك أحكامهما معناه انتهاك سيادة القانون ، وتمرد على الهيأة والنظام ، وتحقير للحاكمين واهانة لهم ولأتباعهم ، وليس لأحد الخروج على أوامر سادات القوم وذوي الحسب والشرف والسن والعقل .

وتحدثنا كتب الحديث والسير عن مجلس في مكة ، كان يجتمع فيه ملأ المدينة ، أي رؤساؤها وكبارها ، للتداول في الأمور والمشورة في شؤون السلم والحرب ، وقد عرف مجلسهم هذا بـ « دار الندوة » . وهو مجلس على نمط مجالس الكبار في اليمن ، المسماة بـ « المزود » ، يجتمع فيها كبار القوم من ذوي الرأي والحل والعقد ، للتشاور في الأمور ، واتخاذ قرارات ، ويحكمون ويبدون الرأي باعتبارهم سادة قادة ، أما غيرهم من الناس فليس لهم الا الطاعة والامتثال . ليس لهم رأي في اختيار الرؤساء أي رجال المجالس وان كان هؤلاء الرؤساء يتكلمون باسمهم ويتحدثون عنهم ، فعضو المجلس في هذا الوضع مثل رئيس القبيلة في تمثيله لها وتحدثه باسمها واصدار أحكامه في أفرادها ،

ومع ذلك ليس لأفراد القبيلة رأي في إختياره وتعيينه ، إنما الرأي هو لما يسمى بالعرف والعادة ورأي الوجهاء وجهاء القبيلة أصحاب الحل والعقد .

وينسب بناء دار الندوة الى « قصي » . بناها لنفسه حوالي سنة (٤٤٠) للميلاد على تقدير بعض المستشرقين . ولكنها ما لبثت أن صارت في أيامه نادياً لقريش ، يقصدها الرؤساء ، ويلجها أصحاب الحاجات والظلامات ، حتى صـــارت قريش لا تبرم أمراً في حروبها وأمورها إلا بها ، وبها يزوجون من أراد التزويج ، ويلبسون الفتاة درعها دلالة على بلوغها سن الزواج ، ويدفع اللواء الى القادة الذين يعينهم ملأ مكة للدفاع عنها ، فيحمل عنهم رايتهم . شعارهم في الحرب وفى هذه الدار تشاورت قريش فيما تصنع فى أمر الرسول حين خافوه ، وعزمت على قتله (١) وفى هذا الدار اصطف رؤساء قريش فى السنة السابعة من الهجرة ، ليشاهدوا الرسول وقد دخل مكة معتمراً (٢) شاهدوه وهم يرتجفون حقداً وبغضاً ، ولا شك ، لما بلغه محمد من عزة فى قومه ومنعة (٣)

وقد أوصى قصي بهذه الدار لولده عبدالدار ، فصارت له ، وانتقلت الى ولده ، ولم تزل فيهم حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم من معاوية بن أبي سفيان ، فجعلها داراً للامارة بمكة (٤) .

وقانون القوم ودستورهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » (٥) فهم محافظون على كل ما وجدوه ، حريصون على ما كل وصل اليهم ، لا يريدون له تغييراً ولا تبديلاً ، مهما بدا لهم فى الجديد من منطق وحق . وفي القرآن الكريم آيات أخرى ترينا تمسك نخبة مكة ورجال الملأ بحقوقهم وبما ورثوه من عرف مكنهم من الملأ ، وفي تمسكهم بها محافظة على حقوقهم الموروثة وعلى زعامتهم فى الناس .

---

(١) ابن هشام « ٩٤/٢ » [خبر دار الندوة] ، البلاذري « ٥٢/١ » ، زاد المعاد « ٥٢/٢ » ، « قال الافشيري في تذكرته : وهي الآن مقام الحنفي » ؛ شرح القاموس « ٣٦٢/١٠ » .

(٢) ابن هشام « ٤٢٤/٣ » ، [عمرة القضاء] .

(٣) Ency. of Islam, Vol., I, P. 918, caussin de Perceval, Essai, I, 235.

(٤) البلاذري [٥٤/١] .

(٥) الزخرف : الآية ٢٢ وما بعدها .

فملأ مكة أناس محافظون لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً ، سنتهم التعلق بالماضي ، وكره الثورة والخروج على العرف والعادة مهما كانت . فالعرف جرى الناس عليه ، فلا خروج على العادة والعرف . أما المستهين بالعرف المخالف لسنة الآباء والأجداد ، فيعاقب حتى يعود الى رشده وصوابه ، وهم باستماتتهم في التمسك بالماضي كيفما كان ، وبتطرفهم في المحافظة على العرف ، إنما يراعون بذلك حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية ، فالعرف جعلهم الطبقة الحاكمة بالتقاليد ، المحافظة على مصالحها ، استناداً الى العادات . هم يحكمون بهذا القانون الموروث غير المسجل ، وعلى الناس الطاعة والانقياد . « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »«١»

ولذلك عجبت وسخرت حين سمعت محمداً يدعو أنه رسول الله ، أنه جاء اليهم والى غيرهم مبشراً ونذيراً يدعوهم الى دين الله دين الاسلام ، والى الاعتقاد بنبوته ورسالته . وكيف يعقل ظهور رجل يدعو الى دعوة عظيمة مثل هذه الدعوى . من بين طبقة لم ترث المال الكثير . ولا السيادة والعظمة في البلد . ولو كانت الرسالة التي جاء بها الرسول هي من عند رب العالمين صدقاً ، لوجب على رأيهم واعتقادهم نزولها على عظيم عن عظماء مكة أو الطائف على الاقل ، لا على رجل مثل محمد ليس منهم ، فالنبوة شرف وسن ومنزلة ومكانة ، والله لا يختار لها إلا من تتوفر فيه هذه الامور ، ويتوفر فيه العقل والنضج والكمال ، ولا يتوفر كل ذلك إلا في السادات والعظماء ، أصحاب البسطة في المال والجسم . ذلك مثلهم في الحياة ، وذلك منطقهم بالنسبة الى القدرة والعقل والعلم .

نعم كان محمد من أسرة ورثت خدمة البيت والحجيج ، ولكنه لم يرث مالاً وثروة . كان من « بني هاشم » ولم يكن لبني هاشم مال . كانت لهم مكانة ومنزلة ، ولكنهم لم يملكوا مالاً مثل مال « بني عبد شمس » منافسيهم على الزعامة في هذه المدينة الصغيرة ، والمال هو القوة والحكم . ولهذا كان خصومهم ، وهم من بيت واحد بالطبع ومن شجرة واحدة ، أقوى منهم ، واكثر نفوذاً ، وأبعد سلطاناً في مكة وفي الحجاز . ولهذا أيضا كانت مقاومة هذا البيت

«١» البقرة ، الآية ١٧٠

وأعوانه ومن التف حولهم أشد على الرسول من المقاومة التي لقيها من بني هاشم مع أنهم كانوا المشرفين على البيت الحرام . والرؤساء الروحانيين في ذلك العهد .

وقد جلبت أسفار قريش للتجارة المال لمكة ، جلبت لها الذهب من الروم والفضة من الفرس . وقد اشتهر الروم عند العرب بدنانيرهم المضروبة من الذهب الابريز ، واشتهر الفرس بدراهمهم المضروبة من الفضة . وعرف أهل بلاد الشام ومصر بـ « أهل الذهب » ، وعرف أهل العراق بـ « أهل الورق » أي الفضة . وكان هدف التاجر في حياته جمع الدنانير والحصول على الذهب وتكديسه . والذهب هو الثروة ورأس المال ، وهو الجاه والمكانة في المجتمع .

وحذق تجار مكة بنقد الدنانير والدراهم . ففي النقدين المزيف المغشوش ، والممحو والناقص ، ولهذا لجأ تاجر مكة كما لجأ سائر تجار ذلك العهد الى فحص الدنانير والدراهم حين مرورها عليهم . وكانوا يلجؤون الى الوزن في الغالب خشية النقص في مادة النقد ، ويزنون الدنانير والدراهم اذا بلغت عدة عشرات لسهولة الضبط .

ولقلة عدد النقود في العالم اذ ذلك ، صارت أثمانها في التعامل عالية . والمالك لمئات من الدنانير في جزيرة العرب ، كان يعد من كبار الاغنياء . وقد قدر رأس مال قريش الذي ساهمت به في قافلتها التي أرسلتها برئاسة أبي سفيان ، والذي سبب معركة بدر ، بنحو خمسين ألف دينار ، وعدت القافلة من قوافل مكة الكبرى . كان قوامها (٢٥٠٠) بعير ، معها عدد من الأدلاء والحراس يتراوح من مئة رجل الى ثلاث مئة رجل . ويضاف اليهم عدد آخر من الرجال ينضمون اليهم حين الحاجة لمقاومة « الصعاليك » وقطاع الطرق . واذا أخذنا بقول الاخباريين القائلين بأن ملأ مكة أو اكثره كان يسهم في هذه القوافل الموسمية الكبرى ، عرفنا إذن قوة هذا المبلغ وضخامته بالنسبة الى اهل مكة والحجاز ، بل جزيرة العرب في ذلك العهد .

ولم تكن هذه الثروة موزعة توزيعاً عادلاً ، فقد كان أبو أحيحة مثلاً قد اسهم بأكبر نصيب في هذه القافلة ، يقدر بزهاء ثلاثين ألف دينار ، وأسهم رجال آخرون من بني أمية بزهاء عشرة آلاف دينار . ومعنى هذا أن أربعة أخماس رأس مال القافلة كان أموياً . أما ملأ مكة ، وفي مقدمتهم الأسرة الكبيرة الأخرى ، فقد كان كل رأس ماله في

هذه التجارة الخمس الباقي (١). ومن هنا تدرك كيف استأثرت أسر معينة محدودة بالثروة واكتنزتها دون الآخرين.

وهناك اسر أخرى غنية ثرية في مكة، كانت تشاطر أسرة أبي أحيحة الجاه والثراء. فبنو مخزوم كانوا من أثرياء مكة، وكان عبدالله بن جدعان من كبار الأغنياء في أيامه. وقد أسهم بعض تجار مكة بآلاف من الدنانير في القافلة التي ارسلتها مكة بقيادة أبي سفيان في السنة الثانية من الهجرة، ولم تكن هذه الآلاف كل ثروتهم بالطبع وقد ذكر أن أبا لهب كان قد أقرض العاص بن هشام بن المغيرة أربعة آلاف درهم، فلما أفلس ولم يتمكن من دفع ما عليه له وللدائنين الآخرين، استأجره أبو لهب، للذهاب مع قريش في مكانه الى بدر على أن يجزي عنه بعثه، وتخلف أبو لهب (٢). وبهذه الطريقة سوي الدين. وهذا مما يحملنا على التفكير أن ثراء بعض تجار مكة كان شيئاً كثيراً. وقد بالغ بعض المستشرقين، فجعل بعض تجار قريش في منازل أصحاب الملايين.

وقد أسهمت نسوة مكة في التجارة، فكانت أم أبي جهل تاجرة تتاجر بالعطر والطيب، وكانت هند زوجة أبي سفيان تاجرة تتاجر مع «كلب» النازلين في بلاد الشام، وكانت خديجة تاجرة معروفة، وترسل الأمناء للاتجار على حسابها، وقصة ارسالها الرسول في تجارتها معروفة في السير. ولما عاد أبو سفيان من الشام دون ان تقع أمواله في أيدي المسلمين، كانت نسوة قريش التاجرات في جملة من التف حوله، لمحاسبته على أرباحهن وما صار من نصيب كل واحدة منهن (٣).

وقد عاش أثرياء مكة ووجهاؤها في بيوت حسنة مريحة، مجصصة ومزخرفة، فرشوها بالبسط وبالأثاث الحسن، ووضعوا على أبوابها الستور المصورة الموشاة، وحلى بعضهم جدر بيته بالصور والنقوش وبالتماثيل (٤)، واستعملوا الأواني المصنوعة من

---

(1) Ency. of Islam, III, P. 440.

(٢) الطبري [٢٧٢/٢].

(3) Ency of Islam, III P. 440.

(٤) جامع الأصول « ٤٤٨/٥ وما بعدها »، « الباب السابع في الصور والنقوش والستور، ذم المصورين ».

الذهب والفضة والنفائس المستوردة من الخارج . أما الأكثرون ، فكانت بيوتها من المدر، أو من أغصان الشجر ، أو من الشعر والوبر ، أو ماشابه ذلك . وهي بيوت حقيرة صغيرة لاتقي من حر ولا برد ، ذلك لأنها لم تكن تملك شيئاً ، فكانت حالتها مزرية . ووضع مثل هذا ، لابد أن يخلق شيئاً من الجفاء والحسد بين الطبقتين .

ومتع أغنياء مكة أنفسهم بمباهج الحياة المعروفة فى ذلك العهد ، ورفهوا أنفسهم بقدر الاستطاعة ، فكانوا يخرجون في الصيف الى الأماكن العالية اللطيفة ،كالطائف وغيرها من الأماكن الجبلية ، للتخلص من حر مكة وكانوا يخرجون الى « الأقحوانة » عند الليط ، يتحدثون فيها بالعشي ، ويلبسون الثياب المحمرة والموردة والمطيبة «١» وينفقون على أفراحهم وعلى المناسبات الاجتماعية الأخرى ، ويأتون بالقيان ، ويشربون الخمور والنبيذ ، يسرفون في ذلك اسرافاً كبيراً . أما الكثرة الكاثرة وسواد المدينة ، ومن يقال لهم خضراء قريش ، أي سوادها «٢» . فلم تكن تملك شيئاً ، بل كان من الصعب عليها الحصول على خبزها المصنوع من الشعير . لقد كان غني مكة قاسياً ، غليظ القلب . فظاً ، لا يفكر إلا فى نفسه . لا يعطى أحداً حقاً ، ولا يعطف على ضعيف ، ولا يرحم به . كان يأكل أموال اليتيم ومن لا حول له ولا قوة ، لا يؤنبـــه ضمير ولا يخزه ألم ، فطبيعي اذن أن يكره فقراء مكة ومواليها وأصحاب الشعور والوجدان من الأحرار هؤلاء القساة العتاة .

ونجد فى مكة طبقة لم تكن ثرية ثراء أولئك المذكورين ، ولكنها كانت ثرية غنية بالنسبة الى السواد الأعظم من السكان . يملك بعضها جملة آلاف من الدنانير أو من الدراهم . فهي من الطبقة الصغيرة الوسط « Petite bourgeoisie » فى عرف الزمن الحاضر . وتمثل المرابين أصحاب المال المستغل باقراضه للمحتاجين اليه مقابل ربا كبير يترتب عليه ، وصغار التجار الذين كانوا يتاجرون مع الخارج بأموالهم أو بأموال غيرهم أو بالاستدانة ، وأصحـــاب الأعمال الذين كانوا يستخدمون الأيدي العاملة فى الانتاج وفى ادارة حرفهم ، أي الحدادة أو التجارة أو استغلال بعض الأعمال خارج مكة «٣» والمبيعات أي الحوانيت . ولهؤلاء عدد من الخدم والعبيد ، هم فى ملكهم وفى ذات

«١» الأزرقي [ص ٤٨٦] .

«٢» جامع الأصول [٣٤٢/٩] .

«٣» Ency. of Islam, III, P. 441.

يمينهم ، اشتروهم من أسواق النخاسة لاستخدامهم استخدام الآلة في هذا الزمن ، أي في خدمة صاحب العمل ومن أجل الترفيه عنه .

وليست مكة مدينة منتجة ، تنتج ما يحتاج اليه تاجرها من حاصل زراعي أو منتوج مصنوع ، لفقرها وفقر الوادي الذي تقع فيه . ولهذا كان تاجرها وسيطاً ينقل من اليمن والعربية الجنوبية مايحتاج اليه أهل بلاد الشأم والبحر الابيض والعراق من سلع ، وينقل من بلاد الشأم والعراق ما يحتاج اليه أهل مكة واليمن والعربية الجنوبية وافريقية من تجارات . ومن هذه التجارة القائمة على الوساطة جمع أرباحه ورأس ماله الذي نماه وزاد فيه بنشاطه وبتشغيله بصورة دائمة مستمرة . جمعه من الفرق الذي حصل عليه من السعرين : سعر شرائه السلعة من مكانها بسعر منخفض ، وسعر بيعها في أسواق محتاجة اليها بسعر مرتفع . وكانت أرباحه منها مفرطة كثيرة ، تبلغ مئة في المئة في أكثر الأحيان ، فكان ربح الدينار ديناراً والدرهم درهماً . حصل أهل مكة على هذا الربح من تجارة القافلة التي تزعمها أبو سفيان فى السنة الثانية من الهجرة مثلاً ، القافلة التي من أجلها حدثت معركة بدر (١) .

وفي القرآن ذكر لرحلتين ، كانتا لقريش فى كل عام : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . « لايلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » (٢) . رحلة الشتاء الى اليمن حيث يكون الجو ملائماً ، ورحلة الصيف الى بلاد الشأم . والرحلة عبارة عن قافلة كبيرة يشترك فيها أكثر أهل مكة ، كل بما يتيسر له من مال ، تخرج بحراسة شديدة وبزعامة رجل ذي بأس شديد ، وشخصية قوية تتمكن من السيطرة على الحراس والخدم وتحسن التصرف في الشدائد والملمات . وعلى شخصية زعيم القافلة يكون نجاحها أو إخفاقها ، ونجاح أهل مكة وإخفاقهم بالطبع . وقد رأينا كيف احتال أبو سفيان حينما كان قافلاً بقافلته من بلاد الشأم فغير طريقه ، وتخلص بذلك من المسلمين الذين كانوا ينتظرون وصول القافلة من الطريق المألوف للاستيلاء عليها ، ولو تم ذلك ، لكانت خسارة قريش بذلك كبيرة بالطبع .

---

(1) Ency. of Islam , III . P- 440 .

(٢) سورة قريش .

ولكن تجار قريش لم يكونوا يكتفون بالرحلتين المذكورتين ، بل كانوا يتاجرون في قوافل صغيرة وفي تجارات خاصـــة . فكان منهم من يذهب الى العراق الى الحيرة والأنبار ، ومنهم من يتجه الى الأسواق في المواسم يشتري ويبيع باسمه وعلى حسابه ، ومنهم من يتاجر مع الحبشة ، ومنهم من يذهب الى اليمن . وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الأشخاص والأسر ، زاروا هذه الأماكن وتاجروا معها ، وكانت لـكـل من الفريقين صلات بالفريق الآخر ، وعقود ومواثيق مع المشايخ الذين تمر قوافلهم بتلك الأرضين ، كما بينت ذلك في الجزء الثامن من هذا الكتاب: تأريخ العرب قبل الاسلام .

وقد تعلم هؤلاء التجار كثيراً من البلاد التي تاجروا معها ، وحملوا منها الطرائف والتجارات النفيسة التي يقبل عليها الأغنياء وأهل المال من أهل مكة وغيرهم ونجد في كتب اللغة اسماء أثاث وأدوات ترجع الى أصول أعجمية ، فارسية ويونانية وسريانية وهندية وحبشية ، وهي بالطبع دليل واضح على ذلك الاتصال ، وبعض منه مازال حياً مستعملاً حتى الآن .

ولم يكتف بعض أغنياء مكة بالاتجار والتجارة ، بل وجهوا أنظارهم شـــطر الأرض ، فساهموا مع رؤساء الطائف في غرس الشجر مثل الأعناب والفواكه ، وفي تأجير المزارع أو رهنها ، وبذلك زادوا في ثرائهم ، وحصلوا على قوت ثمين يستوردونه لمدينتهم ، يبيعونه لمن به حاجة اليه ، واتخذوا الطائف مصيفاً لهم ، يقضون وقتاً طيباً فيه ، ويتخلصون فيه من حر مكة ولظى الحرارة المنبعثة من الصخور الجرد المتوهجة .

واستغل تجار مكة الأعراب المتصلين بهم والمزارعين ، فأقرضوهم المال بربا فاحش ، أو بشراء حاصل عند نضجه ، وقايضوهم بضاعة ببضاعة ، فربحوا ربحاً حسناً طيباً ، وبسطوا نفوذهم عليهم ، وتقربوا الى سادات القبائل بالهبات والقروض ، للتأثير فيهم وكسب ودهم وحماية قوافلهم عند مرورها بأرضهم . وبذلك وصلت قوافلهم بأمان الى الحيرة والأنبار وتكريت وهيت في العراق ، والى غزة وبصري ومواضع أخرى من بلاد الشأم ، وعقدوا اتفاقيات تجارية مع الفرس ومع الغساسنة حلفاء الروم . وهكذا صار تاجر مكة تاجراً عالمياً يقصد الأسواق البعيدة للبيع والشراء ، وعالماً بالأحوال الاقتصادية في خارج أرضه ، له خبرة ودراية بالأسعار العالمية . ومن يدري؟ فلعل فيهم من

كان يجيد اللغات الأجنبية مثل الفارسية واليونانية والسريانية بحكم مجيئهم الى بلاد يتكلم كثير من سكانها بهذه اللغات ، وبحكم تعاملهم وتعاقدهم معهم . وربما كانوا يتكاتبون معهم ويتراسلون مع أقرانهم بلغة من تلك اللغات .

واستغل تاجر مكة حرمة مدينته ووجود البيت الحرام فيها ، فحصن نفسه بتلك الحرمة،وأمن على حياته وعلى تجارته بفضل رب البيت ، فكان إذا سافر أو قام بتجارة علق بعنقه وبرقاب إبله لحاء من لحاء شجر الحرم ، فأمن بذلك حيث توجه ، إعظاماً للحرم ، فاذا رجع ودخل الحرم ، قطع ذلك اللحاء من رقبته ومن رقاب أباعره (١) . وهكذا استغل ثري مكة قدسية مدينته أقصى مافي استطاعته من استغلال ، واستفاد منها أعظم فائدة .

والعظماء أصحاب الجاه والنفوذ والمال والحسب ، هم عقلاء القوم ولسانهم ، مايقولونه جميل ،وما ينطقون به حكمة وقول مطاع . أما السواد ، فانهم ، كما يتبين من القرآن الكريم ، تبع ، لا رأي لهم ولا كلمة ولا قول مسموع ، يتبعون مايؤمرون به ، ويطيعون سادتهم وكبراءهم ، لا بسبب قلة عقل فيهم ، وغباوة طبيعية ولدت أصيلة فيهم، بل بسبب اجتماعي كان نافذاً في ذلك العهد ، نظام وصف أبلغ وصف في هذه الآيات آية الاحزاب ٦٧ : « وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعناً كبيراً » ، وآية المؤمن ٤٧ : « فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ،فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار » ، وآية سبأ ٣٢ : « وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً » .

والعظمة عندهم هي فى الحسب والنسب والمال والجاه . آباء الرجل بضاعته ، ورأس ماله فى التباهي والتفاخر فى المجتمع : يتخايل بهم على الناس ، ويتفاخر بمفاخرهم على غيره من أهل بلده . فاذا جلس فى مجلس تعاظم بتعاظم آبائه وأجداده ، وتفاخر بهم ، واذا دخل نادياً ، أجلس فى الموضع الذي يلائمه ، أي فى المكانة التي يتمتع بها عند الناس بحسب نسبه وحسبه . واذا تقدم عليه أحد دونه صيتاً وشهرة فى الآباء

---

(١) الأزرقي (ص ٤٨٩) .

والأجداد ، ثار وغضب ، عاداً ذلك اهانة له وللاعراف الموروثة المقدسة التي يجب ألا تمس بسوء . وطالما وقعت الخصومات بسبب تفاخر بعض على بعض في الآباء والأجداد والأحساب والأنساب ، حتى صار هذا التفاخر سمة من سمات الجاهلية الممقوتة ، وحتى نهى عنه الاسلام ، وذم المتباهين بآبائهم وبأجدادهم السائرين على سننهم ، المتخذين اياهم قدوة ، كما ورد ذلك في مواضع عديدة من القرآن وفي كتب الحديث (١) .

ولهؤلاء العظماء الكبراء أصحاب الجاه والمكانة والرأي مشية خاصة ، وهيأة مصطنعة في المشي ، اصطنعوها لتكون لهم علامة فارقة تميزهم عن بقية عباد الله . ولتجعلهم فوقهم حتى في السير والمشي ، فلا يشبهون غيرهم من العامة السواد . فكان أحدهم إذا سار ، شمخ بأنفه ، وسار مختالاً متبختراً ، يجر إزاره بطراً وخيلاء وكبراً وعجباً وتيها ، فكأنه يتحدى المارة في بلوغهم المقام الذي بلغه . والى هؤلاء المتعجرفين المتكبرين وردت الاشارة في الآية الكريمة في الاسراء (٣٧) : « ولا تمش في الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » . وفي آية لقمان (١٨) : « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمشي في الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور » وفي آية النساء (٣٥) : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » . وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم (٢) ، كما اشير اليهم والى عجرفتهم وغطرستهم في كتب الحديث (٣) .

وكان من سمات هؤلاء المتعجرفين المتغطرسين المتباهين بالأحساب والأنساب ، طعن بعضهم بعضاً في الحسب والنسب . فبلد بضاعة رؤسائه التفاخر والتباهي بماضي الأسر وبماضي الآباء والأجداد ، وقدر الانسان فيه بمقدار تفاخره بحسبه ونسبه لا بعمله وفعله ، لابد أن ينتهي الى تناول أحدهم الآخر وثلب أحدهم نسب الآخر وطعنه فيه . وهو وضع يؤدي الى الغيبة والنفاق والشتم ، ثم اثارة القلاقل والمشكلات . فكان أحدهم يلمز الآخر وينبزه بالألقاب هزؤاً وسخرية ليظهر نفسه على خصمه ،

---

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول لابن الأثير الجزري « ٢٤٧/١١ وما بعدها » .

(٢) راجع فهارست القرآن الكريم فيما يتعلق بهذا الموضوع .

(٣) جامع الاصول [٢٤٤/١١] (في الكبر والعجب) .

شأن المجتمعات الصغيرة الجاهلة الفقيرة في هـــذا اليوم . وقد لاحظ الرسول ذلك ، وعد هذه الحال من خلال الجاهلية وأمورها (١) ونهى عنها . ورد هذا النهي في القرآن الكريم وورد في الحديث .

ولم ينفرد السادة أشراف مكة عن الطبقة الدنيا من أبناء بلدتهم بالمشية المذكورة وحدها ، بل تميزوا عنهم بطريقة كلامهم أيضاً ، فكانوا اذا تكلموا ، تكلموا بنبرة خاصة تشير الى التعاظم والترفع ، وبصوت مرتفع عال يدل على ارتفاع منزلة المتكلم عن منازل سائر المتكلمين والسامعين . واقناعهم هو برفع الصوت . وقد أشير الى ذلك في القرآن الكريم كذلك في الآية الكريمة في سورة لقمان (١٨) : « واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

والسواد الأعظم فقير الحال ، لا يملك شيئاً ، يعيش على حساب الطبقة العالية والأثرياء ، مقابل خدمته لها وتأدية ما تطلبه منه . وهم طبقة كبيرة واسعة بالنسبة الى سادات قريش ، فقد كان في ملك بعضهم عدد كبير من الخدم والأرقاء يقومون بخدمتهم في مقابل اعاشتهم وبقائهم ، وقد كان بعض سادتهم في غاية الغلظة والقسوة والشدة عليهم ، فاذا عجز الرقيق وتقدمت به السن ولم يبق في امكانه القيام بعمله كسابق عهده ، أهمله سيده وتركه وشأنه ، وهذا مما أثر بالطبع في نفس هذه الطبقة ، وجعلها ترجو من آلهتها الخلاص من هذا الوضع ، لتتحسن حالها ، ولتتمكن من تحصيل قوتهـــا على الأقل .

وهذا الفقر أيضاً هو الذى دفع الفقراء وأصحاب الدخل المتوسط الى الركض وراء الميسر والأزلام ومضاربات القمار كما يفعل أمثالهم في الزمن الحاضر ، طمعا في الكسب والربح ، وأملا في اصلاح الحال ، والى وأد البنات خشية املاق ، وغير ذلك من عادات تكونت فيهم من فقرهم واملاقهم . وقد أشير الى بعضها في القرآن الكريم وفي الحديث . ولضررها هذا نزل الأمر بتحريمها في الاسلام .

وبلدة مثل مكة مقدسة ومتاجرة وعاصمة للثقافة وللحياة الدينية ولها اتصال بالخارج ، وبأرقى الأماكن بالنسبة الى ذلك العهد لابد أن يكون بين سكانها جماعة من

---

(١) جامع الاصول (٣٤١/١٢) .

المثقفين ومن الباحثين في أمور الدين ومن القراء الكاتبين والواقفين على أخبار العالم وعلى الحركة العلمية في الخارج. أما مانجده في كتب أهل الأخبار من أخبار تفيد قلة عدد القراء الكاتبين وتفشي الجهل في مكة وفي الاماكن الأخري من جزيرة العرب، وأمثال ذلك، فان الحديث في ذلك يخرجنا عن صلب هـذا الموضوع، ويدخلنا في موضوع لا علاقة رئيسة له بهذا البحث، على أني قد تكلمت في هذا بتفصيل وافاضة في القسم الثقافي الخاص بالجاهلية من تاريخ العرب قبل الاسلام. ثم إن أخبار الأخباريين هذه لا تتفق مع مانجده في القرآن الكريم من وقوف القوم على أساطير الأولين وعلى أخبار الماضين وعلى أحوال الدنيا في ذلك الزمان، ومن احاطتهم بالقراءة والكتابة والمعرفة، بدليل ورود مصطلحات وألفاظ فيه، لايمكن وجودها أبداً في لغة قوم ليست لهم علم ومعرفة بالقراءة والكتابة. ولا جماعة من القراء الكتاب. وكيف يعقل ورود ألفاظ ومصطلحات ذوات مدلولات علمية وثقافية في لغة العرب وخاصة في القرآن الكريم وفي معرض مخاطبة قوم ظهر الرسول بينهم وجاء لارشادهم مثل قرطاس وقراطيس وكتاب ومداد وأقلام وصحف و « يقرؤون الكتاب »، واكتتب وتملي وقرأه وتتـلى وتخطه وكتب والحكمة وبعلم والعلم وتعلمون وعلم وعالمون والعلماء، لو لم يكن لهم علم بمعاني هذه الكلمات وبمدلولاتها وادراك تام لمعانيها ومرادها؟ ثم ان في أخبار الأخباريين أخباراً تناقض زعمهم المذكور، وذلك كما شرحته في مكانه من كلامي على النواحي الثقافية للعرب قبل الاسلام.

ووجد بين الموالي والأجانب المقيمين في المدينة ومكة من كان يحسن الكتابة والقراءة بلغة قومه، ويقرأ كتبهم. فكانت في المدينة مدارس « مدراش » تفقه فيها اليهود أحكام دينهم، وتفسر لهم كتبهم، وتقص عليهم ما ورد في كتب أحبارهم من قصص وتفاسير في أحكام ديانة يهود. وقد بقيت قائمة حتى اجلائهم من الحجاز اجلاء جماعياً في خلافة عمر.

وقد كان هؤلاء يذيعون قصصهم بين أهل المدينة، ولعلهم كانوا يقومون بالتبشير في اليهودية أيضاً طمعاً لتكثير عددهم، وتقوية مركزهم، بعد أن تمكن عدد منهم من تهويد أناس من العرب في اليمن، ومن تكوين جالية يهودية قوية فيها، ومن تأسيس حكومة متهودة نكلت بنصارى نجران.

وكان اليهود ، كما تقول كتب الحديث والأخبار ، يقولون بقرب ظهور رجل منهم يعيد اليهم الملك ، وينتقم من أعدائهم ، يخوفون به العرب ، ويرجون أن يكون ذلك اليوم قريباً . وكان اليهود أصحاب ملك ومال ونفوذ في منطقة المدينة الى جنوب فلسطين .

ولابد أن يكون لأهل مكة علم بما كان يقع خارج جزيرة العرب من حوادث ، ولا سيما العراق وبلاد الشأم . وكيف لا يكون لهم علم بما كان يجري هنالك ، وتجارهم كانوا يسيرون قوافلهم الى تلك الانحاء للاتجار ، وكانت سفن الحبشة والروم تقصد سواحلهم الغربية والجنوبية للاتجار . وسفن الهند والفرس تقصد السواحل الشرقية . فلابد أن يقف هؤلاء التجار على ما كانوا يرونه من تطور هناك وعلى ما كان يحدث في تلك الأرضين من أحداث وأن يسمعوا من إخوانهم عرب العراق وعرب الشأم أخبار الفرس وأخبار الروم وتطورات الأحداث في العالم . ولابد أن يسمعوا من أصحاب السفن القادمة اليهم أخبار إفريقية وأخبار الهند والسواحل المقابلة لسواحل العربية الشرقية . وفي تذكير القرآن الكريم قريشاً بغلبة الروم في (سورة الروم) ، دليل على وصول خبر تغلب الفرس على الروم الى قريش ، وإلا لم خاطب القرآن الكريم قريشاً به ، منذراً إياهم بأن انتصار الفرس هذا لن يدوم طويلاً ، وأنه مهما طال فلابد أن يعود الروم ، فيتغلبوا على خصومهم ، ويسترجعوا ما خسروه ، ولذلك فليتدبر رجال قريش ، وليعتبروا بهذا الحادث العالمي الخطير .

ووصف القرآن الكريم الأعراب ، أي البدو سكان البادية ، بالغلظة والقسوة والشدة وبانتهاز الفرص . جاء في الآية : « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم »(١) . ووصفوا في آيات أخرى بالنفاق : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم »(٢) « وممن حولكم من الأعراب منافقون » (٣) ، كما وصفوا بالانتهازية وبالتربص : « سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلتنا أموالنا

---

(١) التوبة : الآية ٩٨ .
(٢) التوبة : الآية ٩٧ .
(٣) التوبة : الآية ١٠٢ .

وأهـــاونا ، فـــاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهـــم . قل : فمن يملك لـــكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعـــاً ؟ بل كان الله بما تعماون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بوراً » (١) . « سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل : ان تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل فسيقولون : بل تحسدوننا ، بل كانوا لا يفقهون الا قليلا » . (٢)

ولوضع الأعراب الصعب في البادية ، وفقرهم وانقسامهم على أنفسهم الى قبائل وعشائر لضيق سبل المعيشة في الصحارى دخل كبير بالطبع في تكوين هذه العادات في نفوسهم . إنها طبائع لم تخلق فيهم خلقاً ، وإنما نشأت وتكونت فيهم نتيجة لهذه الظروف التي يخلق الأعراب فيها ، وبها ينشؤون . فضيق ذات يدهم وفقر أرضهم وقلة خيراتهم ، كل ذلك جعلهم يقظين حذرين ، متهزين الفرص مع الغالب على المغلوب وراء الغنيمة ، والغنيمة هي الرزق الطيب الوحيد الذي يقع في أيديهم والذي يمكن أن يحصلوا عليه . إنهم حذرون من أهل المدر ، لايثقون بهم . وهم يحسدونهم بالطبع لما منحتهم الطبيعة من نعم وخيرات ، وقد تعود أهل المدن والقرى استغلالهم والاستفادة منهم . وهم لا يملكون من سلاح يقاومون به أهل المدن إلا سلاح الغارات إن ساعدتهم الظروف وشجعتهم عليها ، وإلا فبترضيتهم وباظهار النفاق لهم ، والقنوع بما يحصلون عليه منهم ، وليس لهم من سبيل غير ذلك. وغلاظتهم هذه وجفاؤهم وأعرابيتهم ، لم تكن خلقاً خلقوا وجبلوا عليه ، وانما هي حاصل هذه الطبيعة الصحراوية ، وحاصل الانعزال بعيداً عن الحضر في البادية ، فنشـــأ هذا الفرق بين الحضري والبدوي ولولا ذلك لما كان هنالك فرق .

ولم تشاهد مكة غزواً أو فتحاً ، قام به أجنبي ، إلا غزو الحبش لمحاولة الاتصال

---

(١) الفتح : الآية ١١ وما بعدها .

(٢) الفتح الآية ١٥ .

بالروم حلفائهم ، والسيطرة بذلك على العربية الغربية ، أو على جميع جزيرة العرب فيما بعد . ولو تم ذلك ، لكان معناه خضوع هذه المنطقة المهمة المسيطرة على أخطر منطقة مائية ذات أهمية في التجارة البحرية لسلطات نصرانية . ومؤدى هذا نزول ضربة قوية مؤثرة على رقاب اعدائهم في العقيدة وفي السياسة الفرس الساسانيين أصحاب المعسكر الشرقي في السياسة الدولية لذلك العهد . وقد مني ذلك الغزو باخفاق شديد ، ليس بسبب وقوف أهل مكه أمامه ، وبسبب جيوشهم الجرارة المزودة بالأسلحة الفتاكة التي فتكت بهم وهزمتهم ، بل بسبب قيام عامل آخر لم يكن لأهل مكة دخل فيه ، هو انتشار وباء خبيث بين الحبش ، فتك فيهم ، وأهلك أكثرهم واضطر الناجون منه المتغلبين عليه الى الفرار . وكان ذلك في السنة التي عرفت عند مكة بـ « عام الفيل » .

وكان هذا الغزو الخاسر ، كان إنذاراً لأهل مكة ، بوجوب التيقظ والتهؤ ، لا لطرد الحبش عن مكة وعن كل مكان من جزيرة العرب ، بل لطرد كل غريب عنها ، ثم لنشر رسالة عالمية بشر بها رجل من هذه القرية ، هي رسالة محمد رسول الله .

لقد حاول الاسكندر الأكبر السيطرة على العربية الغربية ، وفي ضمن هذه المنطقة الحجاز ، فلم يفلح أسطوله في التمكن من السواحل الجنوبية والتفافه نحو السواحل الغربية ، ولو تمكن من ذلك واستولت جيوشه على المواطن البعيدة عن الساحل ، لكان لجزيرة العرب تأريخ آخر . وحاول القيصر « أوغسطس » الاستيلاء عليها بعد ذلك ، للاتصال بالعربية السعيدة والسيطرة عليها وعلى المحيط الهندي بعد ذلك ، ولكنه لم يتمكن كما رأينا ، وحاول البرتغاليون الاقتداء بفعل الحبش فلم ينجحوا ، وهكذا كتب لمكة ألا تطأها أقدام الغزاة في الجاهلية وفي الاسلام .

وخلاصة ما يمكن أن يقال عن مكة في أيام الرسول أنها كانت مركزاً مهماً في الحجاز ، ذا قدسية خاصة ، وذا مكانة كبيرة في عالم المال والتجارة في العربية الغربية لذلك العهد ، تتحكم فيها مظاهر الجاهلية من التفاخر بالأنساب والأحساب والمال والجاه ، وتسيطر عليها نزعة استبداد القوي بالضعيف ، وسيطرة الغني على الفقير .

أكتفي بهذا الموجز عن أحوال مكة وسكانها ، لأدخل الى فصل جديد في ميلاد الرسول ثم في مبعثه وهو في الأربعين من عمره . وقد أؤاخذ على اهمالي البحث في أمور كثيرة كان من الواجب ذكرها عن الجاهليين بتفصيل ، وجوابي أني ذكرت في المقدمة أن هذا الكتاب باجزائه هو استمرار وصلة لأجزاء كتابي : « تأريخ العرب قبل الاسلام » ، وأني لذلك اكتفيت بما ذكرت فيه عن اعادته في هذا الكتاب . فمن أراد التوسع والتبسط ، فعليه الرجوع الى هذا الكتاب .

الفصل الثالث

من الميلاد الى المبعث

والنبي العربي هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب . وهو عبدالله ورسوله ، ونبي وبشر مثل سائر البشر . وهو لا يختلف عن البشر إلا في النبوة ونزول الوحي عليه ، فقد ورد في القرآن الكريم : « قل : إنما أنا بشر مثلكم ، يوحي الي أنما الهكم اله واحد » (١) .

وعلى هذه الآية وبوحيها يجب السير في تدوين السيرة النبوية وتاريخها ، ولو سار المؤرخ بموجبها وبموجب وحي آيات القرآن الأخرى ، لجنب نفسه الوقوع في المزالق والمآخذ ، وجعل السيرة النبوية سيرة حية : سيرة نبي مرسل بالمعنى الاسلامي الصحيح الذي نجد روحه في الآية المذكورة ، ولو جنب أصحاب السير المتأخرون سيرهم القصص الاسرائيلي الذي أدخل على السيرة وعلى الاسلام ، والذي لايتفق مع هذه الآية ومع أحكام القرآن ، لأراحوا السيرة وجنبوا الناس الأخذ بهذا القصص الذي بنى عليه بعض المستشرقين كما سنرى أحكاماً وآراء أساءت كثيراً الى الاسلام ، وأرادوا بها التشكيك بصاحب الرسالة وبالمسلمين .

ويعد المؤرخ الأرمني « سبيوس Sebeos » وهو من رجال القرن السابع للميلاد ، من أوائل المؤرخين الذين أشاروا الى الرسول . وقد ذكر أن محمداً كان من « الاسماعيليين » « Ishmaelites » ، وقد أنذر قومه بالعودة الى دين آبائهم « ابراهيم Abraham » ، ووعدهم بالفوز . وعلم هذا المؤرخ بالاسلام قليل جداً (٢) ، وهو لم يشر الى المورد الذي أخذ منه أخبار الرسول والمسلمين ، ولا يستبعد أن يكون أحد المسلمين (٣)

ولفظة محمد ، من أصل « حمد » ، ومن هذا الأصل : أحمد وحامد وحماد

---

(١) الكهف : الآية ١١١ ، البلخي ، كتاب البدء والتاريخ ، (٣١/٤) .

(٢) Chronicle of Sebeos, Petrograd, 1879, P, 104 ff., Ency. of Reli. and Ethi., 8, P, 872.

(٣) Ency, of Reli, and Ethi, Vol, 8, P, 872,

وحميد وحمد وحميد «تصغير حمد» ومحمود وما شاكل ذلك من أسماء (١) .

وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الجاهليين عرفوا بـ « محمد » ، ونصوا على أسماء سبعة أو أكثر من ذلك عرفوا به (٢) . وورد هذا الاسم في كتابة جاهلية (٣) .
وو ردت لفظة : «محمدة» اسم علم للنساء فى «كتاب الحميريين The Syrian Book of himyarites» (٤) . كما وردت فى كتابات عربية جنوبية لفظة «يحمد» فى أسماء علمية مركبة تركيباً اضافياً أو مزجياً (٥) . ولفظة « حمد » اسماً لرجال ولقبيلـــة في بعض كتابات الصفويين .

---

(١) اللسان « ٤/ ١٢٥ » ، الطبري « ٢/ ١٧٢ » .

(٢) ممن سموا بذلك : محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي ، ومحمد بن عنوازة الليثي الكناني ، ومحمد بن بلال بن « عقبة بن أحيحة » الجـلاح الأوسي أحد بني جحجبي ، ومحمد بن حمران بن مالك الجعفي المعروف بالشويعر ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري أخو بني حارثة ، ومحـــمد بن خزاعي بن علقمة ، ومحمد بن حرماز بن مالك التميمي ، اللسان (٤/ ١٢٥) ، تاج العروس « ٢/ ٣٣٩ » ، ابن دريد ؛ الاشتقاق (ص٦ ومابعدها) ، ابن سـعد : الطبقات [١/١] [ص ١١١] ، « وذكر بعضهم : أنه لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم يعني محمداً قبله إلا ثلاثة » ، السيرة الحلبية « ١/ ٩٥ » ، المحبر « ص ١٣٠ » الروض الانف « ١/ ١٠٥ وما بعدها » ، أنساب الاشـــراف ، الجزء الاول « تحقيق الدكتور محمد حميد الله » ، اخراج معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ودار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ - الصفحة ٥٣٨ ، - «وقد عد بعضهم ممن سمى بمحمد ستة عشر ، ونظمهم في قوله :

ان الذين سمـــوا باسم محمـــد — من قبل خير الخلق ضعف ثماني
ابن البراء جاشع بن ربيعـة — ثم ابن مسلم يحمدي حرمـاني
ليثي السليمي وابن أسامـة — سعدي وابن ســواءة همداني
وابن الجلاح مع الاسيدي يا فتى — ثم الفقيمي هكذا الحمـراني

قال بعضهم : وفاته آخران لم يذكرهما . وهما : محمد بن الحرث ومحمد بن عمـر بن مغفل . بضم أوله وسكون المعجمة وكسر الفاء ثم لام . ووقع النزاع الكثير والخلاف الشهير في أول من سمي بذلك الاسم منهم . اقول : وفي شرح الكفاية لابن الهائم ، ويمكن أن يكون من زاد على أولئك الاربعة أو السبعة ، سمع ذلك من بعضهم ، فاقتدى به في ذلك طمعاً فيما طمع فيه . . . . والذي أدرك الاسلام ممن تسمى باسمه عليه السلام : محمد بن ربيعة ومحمد بن الحرث ومحمد بن مسلمة ، وادعى بعضهم ان محمد بن مسلمة ولد بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم باكثر من خمسة عشر سـنة . وقد ذكر ابن الجوزي : إن أول من تسمى في الاسلام بمحمد : محمد بن حاطب . » ، السيرة الحلبية « ١/ ٩٨ » ، الآثار الباقية للبيروني « ١/ ٣٨ » .

(٣) Corpus inscriptionum Semiticarum, Pars IV, t, II, P, 104

(٤) Shorter, P, 391

(٥) Rep, Epi Semi, VII, P, 422, VII, 442

وأما النص الجاهلي الذي ورد فيه اسم رجل يدعي «محمداً»، فهو شاهد قبر، هذا نصه : « نفس محمد بن ذت وسعت . وليقمعن عثتر ذي شترنهو » (١) ومعناه : « قبر محمد بن ذات وسعة « واسعة » . وليقمعن « الاله » عثتر من « الذي » يزيله » . ولفظة « شتر » من الالفاظ الواردة في العبرانية وفي لغة بني إرم (٢) . وهي تعني القطع فى عربية القرآن الكريم (٣) .

وقد عثر على حجر حفرت فيه صورة فلاح يحرث أرضاً ، وقد كتب تحت الصورة هذه الجملة : « نصب يحمد قشفنقن وخرت وخل » (٤) . ويظهر من هذه الكتابة أن اسم صاحبها هو « يحمد » ، وأن هذا الاسم كان معروفاً فى اليمن قبل الاسلام ، وهو اسم قريب من اسم محمد .

وتذكر كتب السير أن عبدالمطلب هو الذي سمي الرسول محمداً ، سماه في يوم سابعه ، أخذه ، فدخل به الكعبة ، ثم خرج به الى أمه فدفعه اليها ، وفي هذا اليوم عق له على عادة العرب في ذلك العهد . (٥) وتذكر أيضاً أن قريشاً « قالوا لعبد المطلب ماسميت ابنك هذا ؟ قال : سميته محمداً . قالوا : ماهذا من أسماء آبائك ! قال ! أردت أن يحمد في السموات والأرض» (٦) .

و « العقيقة » من العادات التي كان يراعيها الجاهليون حين ولادة مولود لهم . وتكون عادة فى اليوم السابع من ميلاد الطفل . وفي هذ اليوم يذبحون الذبيحة التي يسمونها العقيقة ويحلقون شعر الطفل أو بعضه ، ويمسحون شعر الطفل الباقي

---

(١) C - I - S - , IV , II , P 104 , Num. 420

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تاج العروس الجزء الثالث مادة « شتر » ، وكذلك بقية معجمات اللغة .

«٤» تأريخ العرب قبل الاسلام « ١/ ١٩٤ »

Rep - Ebi - , VII , P - 422 ، VII , P • 442 •

(٥) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد فيهدي خير العباد (١٩/١) ، المواهب (٢٤١) ، الحلبية (١/ ٩٤ وما بعدها) ، الروض الأنف (١٠٦/١ وما بعدها) ،سيرة ابن هشام (١/ ١٦٦ وما بعدها) .

(٦) الاشتقاق (٦) ، تأريخ الاسلام ، للذهبي « ٧ /١٣ وما بعدها » ، تفسير روح المعاني « ٤/ ٧٣ » .

أو رأسه بدم العقيقة ، ثم يعلنون عن اسم المولود . وهي من العادات الجاهلية التي أقرها الاسلام (١) .

ومحمد بالاجماع من أسرة تعد من خيرة أسر قريش، لها الزعامة الدينية في مكة ، ولها مكانة اجتماعية في قومها بسبب توليها البيت الحرام ، ولكنها لم تكن من الأسر الغنية . وقد ظهر فيها رجال كانت لهم رئاسة قومهم ، وذكرت لهم اصلاحات عديدة وأعمال كثيرة في مكة ، لها صلة بالبيت الحرام وبالمدينة ، لم يشك في ذلك أحد من المؤرخين (٢) .

وقد ورد اسم النبي في أربع سور من سور القرآن الكريم ، هي : آل عمران ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، وكلها سور مدنية . وقد اتخذ بعض المستشرقين ذلك حجة على الرسول لم يكن يعرف قبل الهجرة بمحمد ، لكن باسم آخر ، فذهب « شبرنكر Sprenger » مثلاً الى أن لفظة « محمد » لم تكن اسم علم الرسول ، وإنما اتخذه بتأثير قراءته للانجيل واتصاله بالنصارى . وقد أيد هذا الرأي مستشرقون آخرون (٣) . حتى ذهب بعضهم الى أن الرسول كان يحسن اليونانية ، وأنه اتخذ اسمه « محمداً » من « بارقليط Parakletos » الواردة في انجيل يوحنا والمترجمة بـ « منحمانا ، منحمنا Manhamana » في الارمية . وذلك كما سنرى بعد قليل . فلما وجد البشارة بظهور « البارقليط » ، أي « المنحمنا » ، يخرج الناس من الجهالة والضلال الى الصراط المستقيم ، اخذ اللفظة السريانية وتمسك بها فادعى أنه هو « المنحمنا » وصير اللفظة محمداً ، وألقى على لسان الانجيل — كما زعموا — أنه هو الذي بشر به المسيح (٤) .

---

(١) صحيح البخاري « ٥٩٢/٣ » ، « سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : مع الغلام عقيقة ، فأهريقوا عنه دماً ، وأميطوا عنه الأذى » ، التجريد « ١٢٥/١ » .

(٢) Wellhausen, Reste, S, 174, Smith, Kinship, P, 152, Shorter, S, 34, Enc, of Reli, and Ethi, VOL, 8, P, 873,

(٣) Sprenger, I, S, 155 ff. Noldeke, I, S, 9, anm, 1,

(٤) Noldeke, I, S. 10, Hartwig - Hirschfeld, New Researches into the Composition and exegesis of the qoran, London, 1902, P, 33 f, 139, Caetani, Annali, I, 151, Bethge, Rahman et Ahmad Bonn, 1876, P, 53,

وقد تطرق « كيتاني » الى الروايات التي أوردها أهل السير والأخبار عن اسم النبي ، وتطرق كذلك الى المواضع التي ورد فيها اسم الرسول (محمد) فى القرآن الكريم ، ثم انتهى الى أن من الصعب البت فى الاسم الذي اطلق على الرسول يوم ولد وأيام طفولته . وهو فى ذلك متابع لـ « شبرنكر » ، الذي يستند الى رواية صاحب السيرة الحلبية . كما سترى فيما بعد . (١)

وقد استند هو وأمثاله من المستشرقين الى السور المدنية المتقدمة والى خبر ورد فى كتاب: « انسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون » المعروف بـ « السيرة الحلبية » هـذا نصه : « وفى الامتاع : لما مات، قثم بن عبدالمطلب قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بثلاث سنين ، وهو ابن تسع سنين ، وجد عليه وجداً شديداً . فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سماه : قثم حتى أخبرته أمه آمنة : أنها رأت فى منامها أن تسميه محمداً . فسماه محمداً » (٢) .

والخبر ضعيف، وقد اشار صاحب السيرة الحلبية نفسه الى ضعفه ، وهو لا يوثق به . ولم يعبأ به كبار الرواة ، مما يدل على عدم صحته فى نظرهم . أو عدم وقوفهم عليه .

واستندوا الى حديث آخر يتصل سنده بابن عباس ، هذا نصه : « إسمي في القرآن أي كالتوراة محمد وفى الانجيل أحمد » (٣) .

وقول مثل هذا ، لا يمكن أن يعتد به . فقد عرف الرسول بـ « محمد » فى جميع أدوار حياته . عرف بها بمكة أي قبل هجرته الى يثرب كما عرف بها بعد هجرته الى المدينة . حتى الجاهليون عرفوه بها ، ودعوه بها في مخاطبتهم وفى هجائهم له ، كما بايعه من دخل فى الاسلام بها . ووردت فى جميع كتب العهود والمواثيق . وفى كتاب الله وردت علماً ، غير معرف . ولو كانت صفة له ، لعرفت باداة التعريف . ولم يثبت أنها من النعوت المنقولة عن أصل يهودي أو سرياني . (٤)

---

(١) حسين جاهد : إسلام تأريخي « ٣٥٢/١ » « نوط ١ » استانبول ١٩٢٤ .
(٢) السيرة الحلبية [٩٥/١] ، [باب تسميته صلى الله عليه وسلم محمداً وأحمد] .
(٣) السيرة الحلبية [٩٨/١] .

Noldeke, I, S, 10,

ونجد في كتاب الصلح الذي عقد بين النبي والمشركين في أمر الهدنة بعد الحديبية، دليلاً واضحاً صريحاً يفند زعم « شبرنكر » . ولو كان هناك أدنى شك في اسم النبي ، وكان الرسول قد تسمى « محمداً » في المدينة ، لرفض « سهيل بن عمرو » ممثل قريش ومبعوثها قبول هذه التسمية الجديدة ، ولدعاه باسمه القديم . فقد اعترض « سهيل » على النبي في استعمال الجمل والمصطلحات الاسلامية ، مثل جملة بسم الله الرحمن الرحيم ، التي اعترض عليها ولم يقبل استعمالها ووافق الرسول على استعمال باسمك اللهم . ثم اعترض على استعمال جملة : « هذا ماصالح عليه محمد رسول الله » بقوله : لو شهدت انك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتب : « هذا ماصالح عليه محمد بن عبدالله » (١) .

ولم يذكر أحد من الكتبة النصارى القدماء من أمثال : « ثيوفانس البيزنطي » و « القديس يوحنا الدمشقي » وأمثالهما من الكتبة المعروفين بتهجمهم على الاسلام والذين كانوا يتلصصون الأخبار عن الرسول ، تسمية من التسميات الوثنية الخالصة من مثل : عبداللات وعبد مناف وعبدالعزى وعبد ود وما شابهها كانت للرسول ولو كان الرسول قد عرف باحداها او بأمثالها ، لاشار اليها ولا شك اولئك المتعصبون على الاسلام ، الحاقدون عليه .

وسمي كفار قريش الرسول « مذمماً » أي ضد « محمد » ، لغيظ الرسول والمؤمنين به ، مما يدل على أن قريشاً كانت تعرف الرسول بهذا الاسم ، وقد ورد في الخبر أن الرسول قال : « ألم تروا كيف صرف الله تعالى عني لعن قريش وشتمهم ، يشتمون مذمماً وأنا محمد » (٢)

وليس يضير النبي أن يكون اسمه محمداً أو أحمداً أو قثم أو غير ذلك من أسماء، فكل هذه وأمثالها هي تسميات لم يضعها النبي لنفسه ولم يبتدعها من عنده . لقد جاء الى

---

(١) ابن هشام « ٣٣٢/٣ » .

(٢) «ولما نزلت « تبت يدا أبي لهب»، وذكر الله امرأته أم جميل، قالت : قد هجاني محمد ؛ والله لأهجونه ، فقالت :

محمداً « مذمماً » قلينا ودينه أبينا

وأخذت فهراً لتضربه به وهمت» ، البلاذري « ١٢٢/١ » ، تفسير روح المعاني « ٧٣/٤، ٣٠ / ٢٦٤) ، تفسير الطبري « ٥١٤/٢ » .

هذا العالم، فدعي بها. ومحمد وأحمد وقثم وأمثالها كلها من التسميات المعروفة في الجاهلية. وقد دعي وعرف بها قبل الاسلام بالطبع.

وفي كتاب «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والاموال والحفدة والمتاع» للمقريزي: «هو سيد ولد آدم: أبو القاسم، وأبو ابراهيم، وأبو قثم، وأبو الأرامل، محمد صلى الله عليه وسلم، وأحمد، والماحي، والحاشر، والعاقب، والمقفي، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم»(١). فجعل أبا قثم بعض كناه، ولم يجعل «قثما» اسم علم له. على أن المؤرخين لم ينسبوا للرسول مولوداً باسم قثم. كما أن الغالبية لم تذكر هذه الكنية في الكنى التي عرف بها.

وفي أثناء حديث البلاذري عن عبدالله بن عبدالمطلب، أي والد الرسول، قال: «فأما عبدالله بن عبدالمطلب - ويكني أبا قثم، ويقال إنه كان يكنى أبا محمد، ويقال: كان يكنى أبا أحمد - فولد محمداً رسول الله وخاتم أنبيائه» (٢). فجعل أبا قثم كنية من كنى أبيه. والمعروف عن المؤرخين أن عبدالله لم يتزوج امرأة غير آمنة، وأنه لم يعقب ولداً غير الرسول وبه كني كما نرى من أبي محمد وأبي أحمد، وهما اسما النبي. فهل نعد قثم اسماً من أسماء الرسول، فنقول إنه اسم الرسول القديم الأول. ولذلك كني به، أو نعد أبا قثم مجرد كنية عرف بها عبدالله على طريقة العرب في تكنية الرجال على سبيل التحبب وإن لم يكن الرجل الذي أطلقت الكنية عليه من المتزوجين كما هو متعارف في بلادنا الآن. وقد عرف بها قبل زواجه الى وفاته. فلما توفي عبدالله وولد الرسول، أطلق اسم قثم عليه تخليداً لتلك الكنية القديمة ثم ماتت هذه التسمية، بتغلب اسم محمد عليه.

ومن الجائز عندي أن تكون هذه الكنية، هي التي أوهمت أولئك المؤرخين فجعلتهم يتصورون أن قثم هو اسم حقيقي، وأنه اسم الرسول الأول. ومن الجائز أيضاً أن يكون هذا الاسم، اسم ولد لعبد الله ولد من امرأة أخرى تزوجها قبل آمنة. غير

---

(١) تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة ١٩٤١ [الصفحة ٣]، ابن الجوزي: المدهش في علوم القرآن والحديث واللغة وعيون التأريخ والوعظ [ص ٤٠ وما بعدها]، بغداد ١٣٤٨، تأريخ الاسلام، للذهبي (١/٢٤ وما بعدها).

(٢) أنساب الأشراف [١/٩٢].

أن هذا الافتراض يصطدم بما يذكره أهل الأخبار وما يجزمون به من أنه لم يتزوج امرأة أخرى غير آمنة ، ومن أنه لم يولد له مولود آخر غير الرسول .

ونحن إذ نذكر هذه الافتراضات ، فانما نذكرها على اعتبار أن ماذكره هؤلاء المؤرخون هو شيء وارد وخبر جائز وقوعه ، وروايات لاداعي بحملنا على تكذيبها ورفضها، ولكننا لانستطيع على كل حال أن نؤكدها وأن نثبتها ، وأن نقول بها ، لمجرد أنها أخبار وردت في كتب قديمة مشهورة معتبرة ، وإن رواتها اناس طيبون ثقات . فليس كل مايروي وما يذكره أهل الأخبار كلاماً صحيحاً مضبوطاً ، وان ورد في كتب معتبرة محترمة مقدرة، فقد توفي عبدالله كما تذكر معظم الروايات والرسول في بطن به ، ومعنى هذا أن كنيته بأبي محمد أو أبي أحمد ، أو أبي قثم إنما هي في الواقع كنى أوجدها أهل الأخبار . ووضعوها هم له ، أطلقوها عليه لأن الرسول ابنه ، وهو محمد وأحمد فهو أبو محمد وأبو أحمد ، حتى أبو قثم على فرض الأخذ بالرواية الضعيفة التي ذكرتها إلا إذا عدنا الى الافتراضات ولجأنا الى الجادة التي يسلكها بعض الأخباريين ، في الوثوق بالأخبار من غير مناقشة ولا نقد ، فقلنا نعم : إن هذه الكنى صحيحة ، وان عبدالله عرف بأبي قثم أو بأبي محمد أو بأبي أحمد في حياته ، فلما ولد المولود سمي باسم من هذه الاسماء ، أو باثنين منها أو بثلاثتها ، تخليداً للاسم أو للأسماء الواردة في كنية عبدالله . ومعنى هذا أنه سمي باسم قديم ، ولد قبل ميلاد المولود .

وعلى كل حال ، فقد كان لعبد المطلب ولد اسمه قثم من زوجه صفية بنت جنيدب وقد هلك صغيراً (١) ، كما كان للعباس بن عبد المطلب ولد عرف بهذا الاسم كذلك وكان فيمن غسل الرسول وولي دفنه (٢) .

وقد ضرب اسم الرسول على هذه الصورة : [MAAMET] في النقود اليونانية اللاتينية التي ضربت للمسلمين قبل استقلال المسلمين بضرب سكتهم وتعريبها . وقد كان ذلك بتكليف من الخلفاء . وقد ضربت الشهادتان بالحروف اللاتينية وبلغة الروم (٣) .

---

(١) انساب الأنساب « ٩٠ »

(٢) انساب الأشراف « ٤٤٧ ، ٥٣٩ ، ٥٦٩ ، ٥٧٧ » .

(٣) Josef Von Karabacek, Zur orientalischen altiertumskunde, Wien, 1908, S. 61.

وسمى الرسول بـ « أحمد » في سورة (الصف) . وهي من السور المدنية وفي الآية : (واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل : اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين)(١) .

وأحمد من الأسماء الواردة عند الجاهليين . وقد ذكر أهل اللغة والأخبار أسماء جملة أشخاص عرفوا بأحمد ، منهم : أحمد بن ثمامة بن جدعاء بطن من طيء ، وأحمد بن دومان بن بكيل بطن من همدان ، وأحمد بن زيد بن خداش « حداش » بطن من السكاسك (٢) .

وقد اتخذ بعض المستشرقين الآية المتقدمة دليلاً على أن الرسول غير في المدينة اسمه (محمداً) فجعله (أحمد) ، وأنه فعل ذلك بتأثير أهل الكتاب . فالسورة مدنية ، وعدم ورود اسم (أحمد) في السور المكية دليل كما يقولون على أنه لم يكن يعرف به ، وأنه إنما سمى نفسه به في المدينة بعد مقدمه اليها ، متأثراً بآراء بعض الشيع من أهل الكتاب ، وأنه - كما يفهم من سياق الآية - كان قد حكى قول عيسى في بني اسرائيل ، مما يدل على أنه حكى رأياً لأهل الكتاب ؛ وجعلوا ذلك دليلهم في إثبات أنه كان يعرف اليونانية كما ذكرت ، وأنه كان وضعه في مكان كلمة «Paraclete ,Parakletos» «Paraklete». الواردة في انجيل يوحنا(٣). وذهب بعضهم الى أن بعض المترجمين الجاهليين كانوا قد استخدموا لفظة (أحمد) في ترجمتهم لانجيل يوحنا ، وأن الرسول تعلمها منهم ، فأطلقها لذلك على نفسه . وغريب جداً قولهم ان الرسول سمى نفسه (أحمد) من تلك اللفظة اليونانية ، فليس بين اللفظة اليونانية وبين التسمية العربية وهي (أحمد) شبه أو تقارب ، أو معنى ، كما أن الزعم الثاني وهو ترجمة بعض الجاهليين (انجيل يوحنا) الى العربية واستخدامهم لفظة أحمد في موضع اللفظة اليونانية ، هو زعم غريب لا يستند الى خبر تأريخي . ولو كان ذلك حقاً لما سكت عنه المؤرخون العرب أو السريان . ثم ان استعمال هذه اللفظة في تلك الترجمة معناها إفساد للترجمة ، وافتراء عليها ، وهذا ما لا يمكن السكوت عليه أو وقوعه من أحد (٤) .

---

(١) سورة الصف « ٦١ » الآية ٦ .

(٢) ابن دريد ، الاشتقاق «٧» .

(٣) انجيل يوحنا ، الاصحاح الخامس عشر الاية، ٢٦ وما بعدها .

(٤) Noldeke, s, 9, anm, I,

وقد كتب الانجيل المذكور باليونانية ، وترجمت لفظـــة (Parcletos) في الاصحاح الخامس عشر وفي الآية السادسة والعشرين وفي مواضع اخرى منه ، بلفظة (Comforter) وبـ (Advocate) وبـ (Helper) في الانـــكليزية (١) . وبـ (المعزى) في العربية (٢) . وأقرب هـــذه الكلمات الى المعنى الصحيح لفظـــة (Advocate) المقابلة للفظة (.Advocatus) في اللاتينية ، ومعناها في العربية المحامي والمعين والمدافع والنصير والمساعد والمواسي (٣) . وقد ترجمت الآيـــة على هذه الصورة في العربية : (ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا اليكم من الأب روح الحق ، الذي من عند الرب ينبثق ، فهو يشهد لي) .

وقد حافظ الأخباريون على الأصل اليوناني للفظة ، ولم يترجموها . فجاء في السيرة الحلبية : « وفي الانجيل : إن احببتموني ، فاحفظوا وصيتي . وأنا أطلب الى ربي ، فيعطيكم بارقليط . والبارقليط لا يجيئكم مالم أذهب ، فاذا جاء وبخ العالم على الخطيئة . ولا يقول من تلقاء نفسه ، ولكنه مايسمع يكلمهم به ، ويسوسهم بالحق ، ويخبرهم بالحوادث والغيوب » (٤) . وقد ذكر صاحب السيرة أن البارقليط أو الفارقليط هو الحكيم والرسول (٥) .

وقد أخذت هذه الترجمة من إنجيل يوحنا ، من الاصحاح الرابع عشر ، ففيه : « إن كنتم تحبوني ، فاحفظوا وصـــاياي . وأنا أطلب من الأب ، فيعطيكم معزياً باراقليط آخر» (٦) . ومن الاصحاح السادس عشر من الانجيل نفســه ، ففيه : « لكني أقول لكم الحق . إنه خير لكم أن أنطلق : لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم المعزي «البارقليط» ، ولكن إن ذهب أرسله إليكم . ومتى جاء ذاك ، يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة . . . وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى جميع الحق ،

---

(١) Hastings, P, 15,

(٢) راجع ترجمة التوراة الاميركانية .

(٣) Hastings, P, 15

(٤) السيرة الحلبية « ٢٤٨/١ » .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) الآية : ١٥ وما بعدها .

لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل مايسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية . ذلك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم » (١) والحديث كما نرى هو عن رجل يأتي من بعد المسيح، ليبكت العالم على الخطيئة ، وليرشدهم الى الحق .

وقد ذكر المسعودي في كتابه « التنبيه والاشراف »، أن المانوية تقول بالفارقليط، الذي وعد به المسيح ، وهو « ماني » عندهم ، وذكر أن ماني نفسه ذكر ذلك في كتابه « الجبلة» وفي كتابه المترجم بالشابرقان وفي كتاب سفر الأسفار وغيرها من كتبه (٢) . وذكر ذلك مؤلفون آخرون أيضاً (٣) ولهذه الاشارة شأن خاص في دراسة موضوع (المخلص المنتظر) . ولا أستبعد أخذ بعض العرب هذه الفكرة من القائلين بظهور الفارقليط .

وذكر بعض الأخباريين أن الرسول هو (المنحمنا) فى الانجيل ، و (المنحمنا) بالسريانية محمد (٤) . وهذه اللفظة هي « منحيم ، مناحيم Menahem »في العبرانية ، وهي من الصفات التي نعت بها العبرانيون المسيح)، وهي (Consolator) و(Comforter) فى اللغة الانكليزية ، أي المسلي والمعزي (٥) وقد وردت في مواضع من التلمود والمدراش . وهي من الألفاظ المعروفة عند ارم فلسطين النصارى (٦) ومن هذا التقارب الملحوظ بين لفظة (منحمنا) السريانية المستعملة بدلاً من لفظة (بارقليط) الواردة في انجيل يوحنا باليونانية ، ولفظة (محمد) ، استخرج أولئك المستشرقون رأيهم في أن الرسول أخذ اسمه ودعوى نبوته من ذلك الانجيل .

والذين قالوا إن(المنحمنا) بالسريانية هي محمد ، وإنها(البرقليطس) بالرومية (٧) ، قد أخذوا قولهم هذا من مسلمة يهود ومن النصارى في جملة ما أخذوه عن أهل الكتاب .

---

(١) الآية ٧ وما بعدها الى ١٧ .

(٢) (ص١١٧) ، من طبعة الصاوي ، في اثناء كلامه على الطبعة الاولى ، (من ملوك الروم ، وهم الصابئون) .

(٣) Noldeke, I, S,9, f Flugel, Mani, S, 51, 64, 162, f, Eusebius, his, Eccl, VII, 31,

(٤) « والمنحمنا بالسريانية : محمد ، وهو بالرومية : البرقليطس » ، ابن هشام (٢٤٨,١)، السيرة الحلبية (٢٤٨/١) .

(٥) Hastings, P, 15

(٦) Levy, Neuhebr, Worterbuch, III, s, 153, Noldeke,s, 9,

(٧) عيون الاثر (٦٧,١)

وهو من هذا القصص الذي نرجو أن يأتي يوم يتدارسه فيه العلماء دراسة علمية عميقة مبنية على النقد والمقابلة مع الأصول اليهودية والنصرانية القديمة ، ليكون فى الوسع البت في أمثال هذه الموضوعات فيقوم فيه العلماء بتثبيت الموارد على وفق التسلسل التاريخي ، وبمراجعة الروايات والأخبار ونقد سندها ورجالها، ومقابلة الاسرائيليات والنصرانيات بأصولها الواردة عند اليهود والنصارى . وعندئذ ستكون لدينا دراسة علمية دقيقة ترشدنا الى حقائق من صلات الأديان بعضها ببعض ، نجهلها في هذا اليوم .

وليس لبعض المستشرقين القائلين إن الرسول أخذ اسمه محمداً من لفظة (حمدث Hemdath) الواردة في سفر [حجي Haggai] في العهد القديم ، سند ودليل يؤيد هذا الزعم (١) . وتعني هذه الكلمة (المشتهى) و (الأمل)، أي أنها بمعنى له صلة بفكرة الرجل المنتظر (Messiah) . ويرى الباحثون في هذا الزعم أن ذلك مجرد مصادفة ، لأن لفظة محمد من الالفاظ المعروفة عند الجاهليين والواردة في الكتابات الجاهلية ، وليست من الأسماء المجهولة عند العرب قبل الاسلام ، فيقال إن الرسول أخذ اسمه من هذا الموضع من العهد القديم (٢) .

وذكر بعض الأخباريين أن الرسول هو [مشفح] ، و [مشفح] كلمة إرمية من أصل (شفحا) الارمية وتعني (الحمد) ، كما في هـــذه الجملة (شفحا لاها) أي (الحمد لله) (٣) . ويظهر أن أحد السريان أخبر الأخباريين أن لفظة أحمد هي فى معنى (مشفح) ، وأنها اسم علم عندهم . ومنه أخذ أولئك الأخباريون قولهم إن (مشفح) ، من أسماء الرسول .

وذكر صاحب السيرة الحلبية أن الرسول هو أيضاً (حمياطاً) ، وقيل [حمطايا]، أي يحمي الحرم من الحرام . و [قدمايا] أي الأول السابق . و [ينديند] و [احيد] ، بمعنى يمنع نار جهنم عن أمته . و [طاب طاب] أي طيب . وذكر أن كل هذه الألفاظ هي أسماء فى التوراة (٤) .

---

(١) حجي ، الاصحاح الثاني ، الآية السابعة .

(٢) Ency, of Reli, and Ethi, Vol, 8, P, 873,

(٣) تاريخ الخميس (٢٠٦/١) , Goldziher, in ZDMG., Bd, 32, 374, Noldeke, I, s, 9,

(٤) السيرة الحلبية (٢٤٨/١) .

وذكر أيضاً أنه [منحمنا] كما ذكرت ، و [حنبط] أي يفرق بين الحق والباطل، و [البارقليط] ، و [صاحب المدرعة] ، وأنه [راكب الجمل] ، وكل ذلك في الانجيل (١) .

وكل هذا المروي عن [حمطايا] و [البارقليط] و [مشفح] و [منحمنا] و [شفحا] و [حنبط] وأمثاله ، هو من الأخبار التي نقلها الأخباريون عن أهل الكتاب . وهو يتعارض مع طبيعة رواية السيرة الواردة في أقدم كتب السير والتواريخ ، ولو كان بحثنا في موارد السيرة النبوية، لكتبنا في ذلك، ولرجعنا الى المصادر التي أمدت الأخباريين، ولكن كتابنا هذا في موضوع آخر لا علاقة له بنقد الموارد والمراجع . وهو ايراد السيرة نفسها ، ولذلك نترك هذا الامر لغيرنا راجين أن يأتي يوم يتولى فيه باحث من الباحثين دراسة هذا الموضوع .

ويلاحظ أن بعض الروايات ترجع تسمية النبي [أحمد] الى يوم ولادته ،فتذكر أن [آمنة] ألهمت أن تسمى ابنها [أحمد] يوم شعرت بدنو ولادته (٢) . والمعروف في الروايات المشهورة أنه سمي بـ [محمد] . ثم إن اشتهار النبي بمحمد ، ووروده في مراسلاته مع المشركين والقبائل وفي صحف العقود والصلح والشعر في مكة ثم في المدينة ، وفي مواضع من القرآن الكريم ، كل ذلك دليل على أن اسم الرسول الاول هو محمد ، وأن التسمية الثانية ، وهي أحمد ، المذكورة في موضع واحد من القرآن الكريم إنما اشتهر بها بعد التسمية الأولى . بعد مقدمه المدينة ، وهي دون الأولى في الاستعمال .

وعرف الرسول بكنيته أيضاً ، وهي ابو القاسم ، والغالب ذكرها قبل اسمه ، فيقال أبو القاسم محمد ، وذلك في باب الاستعانة به في الغالب ، والقاسم هو ابن

---

(١) السيرة الحلبية (١/٢٤٨) .

(٢) طبقات ابن سعد (١/ ١٠٤ وما بعدها) ، « أمرت آمنة وهي حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن تسميه أحمد » .

الرسول الأكبر ، وقد توفي في حياته (١) . وهذا الاسم هو من الأسماء الواردة فى الكتابات الجاهلية . وقد ورد في بعض الكتابات الصفوية (٢) .

وليس للرسول اسم علم غير هذين الاسمين الواردين فى القرآن الكريم . غير أن أهل السير والأخبار يذكرون له أسماء أخرى لم ترد فى القرآن الكريم ، وإنما هي فى الواقع نعوت وأوصاف له مثل المتوكل والماحي والحاشر والعـاقب والمقفي ونبي التوبة ونبي الرحمة ونبي الملحمة والفاتح والأمين (٣) .

وقد اشتهر الرسـول بـ (المصطفى) كثيراً ، وإذا قيل (ديـن المصطفى) عني به (دين محمد) ، أي الاسلام . وترد لفظة (المختار) بعد « المصطفى » ، ويراد به الرسول . وترد اللفظة معرفة بأل . وقد وردت علماً بغـير أداة تعريف ، وهي تسمية الأشخاص . ومن مثال ورود لفظة المصطفى فى الشعر ما مدح به الحزين الكناني طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر .

أبـوك الذي صـدق المصطفى   وسار مع المصطفى حيث سارا (٤)

والشائع بين الناس ان « طه » و « يس » من اسماء الرسول . ولكن المفسرين لايذهبون الى ذلك ، بل هم يرون أنهما من أوائل السور ، وأن حكمهما حكم أوائل السور . وقد ذهب بعضهم الى ان « طه » بمعنى « يا رجل » فى النبطية ، وذهب

---

(١) [تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي، فاني أنا أبو القاسم] ،[لا تجمعوا بين اسمي و كنيتي] ، ابن‌سعد ، الطبقات الكبرى. (١/١٠٦ وما بعدها) . (طبعة بيروت ١٩٥٧) (دار صـادر) ، كتاب نسب قريش ، تأليف أبي عبدالله المصعب بن عبـدالله بن المصعب الزبيري ، وتحقيق (ليفي بروفينسال ، طبع دار المعارف للطباعة والنشر) (ص ٢١) .

(٢) جواد علي : تأريخ العرب قبل الإسلام (٧/٢٣٣) .

(٣) « أنا محمد وأحمد والحاشر والماحي والخاتم والعاقب » ، « أنا محمد وأحمد والحاشر والمقفي ونبي الرحمة» ، « أنا محمد وأحمد والمقفي والحاشر ونبي الرحمة والتوبة والملحمة » ، ابن‌سعد ، الطبقات الكبرى (١/١٠٤) وما بعدها « ذكر أسماء الرسول ، صلى الله عليـه وسـلم ، وكنيته » ، « طبعة بيروت ، دار صادر ١٩٥٧ » ، ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد (١/٢٠ وما بعـدها) ، المواهب اللدنية (٣/١٣٣ وما بعدها) .
sprenger, I, s, 156,

Ency., of Reli., and Ethi., Vol, 8, P, 872,

(٤) الحبر (ص ١٥٢) .

آخرون الى أنها سريانية ، وذكر غيرهم أنها بمعنى « يا إنسان » ، وأنها نبطية أو سريانية (١) وذهبوا في تفسير لفظة « يس » هذا المذهب كذلك، فذكر بعضهم أن حكمها حكم أوائل السور ، وذكر بعض آخر أنها من أسماء الله ، وذكر آخرون أنها بمعنى « يارجل » و « يا انسان» بالحبشية (٢) .

ويلاحظ أن الروايات التي تفسر اللفظتين بـ « يارجل » أو بـ « يا إنسان »، والتي ترجع أصلهما الى النبطية أو السريانية أو الحبشية ، ترتفع روايتها الى « ابن عباس » . ونرى أن أكثر القصص الاسرائيلي ينسب اليه كذلك . ومعظم من يروي هذه الروايات ويرفعها الى ابن عباس ، هم أشخاص لا يطمأن اليهم ، عرفوا بروايتهم الأخبار الضعيفة والأكاذيب ، واشتهروا بالتدليس .

وكانت قريش تنسب النبي الى أبي كبشة ، فيقولون : قال ابن أبي كبشة ، وفعل ابن أبي كبشة . ويذكر الأخباريون أنهم إنما دعوه بذلك لأن وهب بن عبد مناف أبا آمنة كان يكنى أبا كبشة ، وأن عمرو بن زيد بن لبيد النجاري كان يكنى أبا كبشة كذلك . وعمرو هذا هو جد عبدالمطلب . وكان وجز بن غالب بن عامر بن الحارث يكنى بهذه الكنية كذلك ، وهو جد النبي من قبل أمه . وكان الحارث بن عبدالعزى بن رفاعة حاضن رسول الله يكنى أبا كبشة كذلك . وامرأته حليمة بنت الحارث (٣) .

وذكر بعض أهل الأخبار أن أبا كبشة « كان قد استخف بالحرم وأهله ، في فعلة فعلها . فكانت قريش تقول للنبي ، صلى الله عليه وسلم : فعل ابن أبي كبشة كذا ، يشبهونه إذا خالف دينهم » (٤) . وذكر أن أبا كبشة كان قد عبد الشعرى، وكان أول من عبدها ، ولم تكن قريش تعبدها ، وبذلك خالف قريشاً . (٥) فقالت قريش ذلك الرسول

---

(١) تفسير الطبري (١٦ / ١٠٢ وما بعدها) ؛ « في طه قولان للمفسرين احدهما . . . . ثم قال سعيد بن جبير بلسان القبطية « النبطية » . وقال قتادة : بلسان اليونانية والسريانية . وقال عكرمة بلسان الحبشة . . . . » ، تفسير النيسابوري ، المطبوع حاشية على تفسير الطبري (١٦ / ٧٦ وما بعدها) .

(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٩٧ وما بعدها) .

(٣) المحبر (ص ١٢٩) .

(٤) انساب الأشراف (١ / ٩١) ، بلوغ الأدب (٢ / ٢٣٩)

(٥) المصدر نفسه الحاشية .

لما خالفها في عقيدتها ، تذكره بأنه لم يكن أول من خالفها ، وأنه خالفها ، كما سبق أن خالفها أبن أبي كبشة قبله .

ولم يكن أبو كبشة أول من خالف قومه قريشاً في عبادتهم ، وصبا الى عبادة أخرى . فاننا نجد في كتب أهل الأخبار أسماء رجال غضبت على وثن، فتجنبته ، أو تركت عبادة جملة منها ، كما نجد أناساً يجددون أوثانهم فيستوردون أوثاناً جديدة ، ويتقربون إليها ، ولاسيما إذا كان ذلك المجدد من الرؤساء والسادات . وقد يكون هذا التجديد لمصالح خاصة من نحو جر مغنم ، وكسب اتباع وأشياع وعبدة يستفاد منهم بما يتقربون به الى الصنم الجديد من قرابين ونذور . ولم يكن من الضروري وضع ذلك الصنم في الكعبة ، بل كانوا يضعونه في مختلف الأماكن وحتى في بيوت الشعر ، التي تتنقـــل مع الأعراب ، كما فعل العبرانيون يوم كانوا بدواً يتنقلون من مكان الى مكان . فلما ظهر الاسلام ، حطمت أصنام مكة ، كما حطمت أصنام في أماكن عديدة من جزيرة العرب، كانت معبودة هناك .

أما مولده ، فكان يوم الاثنين التاسع أو الثاني عشر أو السابع عشر من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنو شروان . ويوافق شهر ابريل سنة ٥٧١ م (١) ويجعله بعض المستشرقين السنة ٥٧٠ للميلاد (٢) . وروي أن مولده كان لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول (٣) وقيل لعشر ليال مضت من ربيع ، وقيل : لثمان مضت منه ، وقيل : لثمان عشرة ليـــلة خلت منه ، وقيل : لثمان ليال خلت من شهر رمضان ، وقيل : ولد في صفر ، وقيل في ربيع الآخر ،

---

(١) المعارف (ص ٦٥) ، ابن سعد (٦٢،١/١) ، الطبري (١٧٢/٢) ، ابن كثير (٢٥٩/٢) ، الامتاع (٣) ، جوامع السيرة لابن حزم (تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد (٥) ، تهـذيب ابن عساكر (٢٨٠/١) ، ابن سـيد الناس (٢٦/١) ، تأريخ الذهبي (٢١/١)، تنقيح الفهوم (٤) . (١) تأريخ الخضري (٦٢/١) .

(٢) sprenger, I, s, 138, shorter, P. 391, H. Lammens, L'age de Mohomet et la Chronologie de la sira, in Journal asiatique, serie, XI, t. 171, P, 109, ff,

(٣) ابن هشام (١٦٧/١) ، المحبر (ص ٨ وما بعدها .

وقيل في المحرم ، وقيل : في عاشوراء (١) .

ويظهر من دراسة هذه الروايات المختلفة أن رواية ولادته في يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، كانت هي الرواية الراجحة عند أهل الأخبار والسير في النصف الأول من الهجرة أما الروايات الأخرى التي ذكرتها فانها متأخرة عن هذه الرواية ، وقد تعددت بتعدد الرواة ، والموارد التي أخذ منها كتاب السير المتأخرون .

والغالب بين أهل السير أن مولده كان في عام الفيل ، على أن هنالك روايات أخرى تذكر خلاف ذلك . تذكر أن مولده كان بعد الفيل بعشر سنين ، وقيل : بثلاث وعشرين سنة ، وقيل: بثلاثين سنة : وقيل : بأربعين سنة ، وقيل : بسبعين سنة . وفي بعض الروايات أن مولده كان قبل عام الفيل بعشر سنين ، أو خمس عشرة سنة . وقد حاولت بعض الأخبار تعيين اليوم من عام الفيل ، فقالت إنه كان في يوم الفيل ، وفي روايات أخرى أنه كان بعد الفيل بخمسين يوماً ، وقيل بأربعين يوماً ، وقيل بخمس وخمسين يوماً ، وقيل بشهر واحد (٢) .

وقد اختلف الرواة أيضاً في الوقت الذي ولد فيه ، فقيل : ولد في النهار ، وقيل : في الليل ، كما اختلف في الوقت من النهار أو الليل : هل كان صباحاً أو سحراً ، واختلف أيضاً في اسم اليوم (٣) .

ويرى بعض المستشرقين استناداً الى دراسة كتب السير أن عام الفيل كان قد

---

(١) الحلبية (٦٧/١ وما بعدها) ، أبو عبدالله الزنجاني : تأريخ القرآن (ص ن وما بعدها) ، المقريزي ، امتاع الاسماع ، (١ / ٣ وما بعدها) (القاهرة ١٩٤١) ؛ البدء والتأريخ (٤ / ١٣١ وما بعدها) ، عبدالباسط الحنفي ، غاية السول في سيرة الرسول ، الآستانة (١٣٢٨) ، (٦) ، وسيكون رمزه : غاية .

(٢) الحلبية (١ /٧٠) ، ابن سعد : الطبقات (١٠٠/١ وما بعدها) ، « طبعة بيروت » ، والموارد المتقدمة ، اسلام تأريخي (١ / ٢٨١ وما بعدها) ، « ولد بمكة بعد قدوم ابرهة بخمسين ليلة . وكان أول يوم من المحرم ، عام الفيل يوم الجمعة . وقدم الفيل يوم الاحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم ، سنة ثماني مائة واثنين وثمانين للاسكندر الرومي ، وستة عشر ومائتين من تأريخ العرب الذي أوله حجة الغدر وسنة أربع وأربعين من ملك انو شروان بن قباذ ملك العجم فيما يروى . وكان مولده يوم الاثنين لثماني ليال خلون من ربيع الاول . وقال ابن اسحاق لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول » ، البدء والتأريخ (١٣١/٤ وما بعدها).

(٣) الحلبية (٦٧/١ وما بعدها) .

وقع قبل السنة ٥٧٠ للميلاد ، وأن ايراد عام الفيل في كتب السير هو من قبيل السهو الذي وقع فيه المؤرخون . ويرون أن السنة ٥٨٠ للميلاد أو ٥٨١ أو ٥٨٢ للميلاد هي أوفق سنة يمكن أن تكون سنة لميلاد الرسول (١) .

ومرد هذا الاختلاف الى العادة التي كانت عند الجاهليين في عدم تسجيلهم تواريخ الميلاد . وهي عادة اكثر الشرقيين حتى الآن . ولم يتقيد الناس في الوقت الحاضر بتسجيل تواريخ الميلاد إلا بسبب القوانين الحديثة لدى الدولة وبسبب التعميد عند النصارى . ثم إن الجاهليين إن أرخو . فانما أرخوا الحوادث العظيمة عندهم فقط كما قالوا عام الفيل مثلاً ، ومن قبله عام الختان ، ونحو ذلك من غير أن يقيدوه بالشهر واليوم والساعة وهكذا كانوا يؤرخون دائماً حوادثهم الكبار ، الى أن جاء الاسلام ، وتوفرت الداعية على اتخاذ التاريخ الهجري .

ولو كان أبرهة قد سجل حادث سير الحبش على مكة ، لأفادنا بذلك كثيراً ولا شك ، ولأستعطنا به تعيين تأريخ ذلك الغزو على وجه مضبوط أو قريب منه . ولكنه لم يفعل ذلك وبا للأسف ، فلم يترك لنا لا هو ولا غيره كتابة تخص هذا الموضوع ، إلا أن هذا لا يعني بالطبع ، قطع كل أمل لنا بالعثور على كتابة ما قد تكون لها صلة بهذا الحادث ، فلا يزال في باطن الأرض عدد عديد من النصوص ينتظر وصول الأيدي اليه لاخراجه من عالم الظلمات الى عالم النور ، وقد يكون من بينها ما له صلة مباشرة أو غير مباشرة بهذا الغزو . وقد تجود الأيام علينا بنص يوناني أو حبشي يرد فيه شيء عن حملة أبرهة على مكة ، يكشف القناع عن تلك الحملة الخائبة وعن غاية أبرهة منها وعن العوامل التي دفعته على القيام بها . وسوف يكون لهذا الص أهمية كبيرة ولا شك في تثبيت هـــذا التاريخ .

أما أبوه ، فهو عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، فهو من قريش . ومن أهل مكة . وقد توفي عبدالله ، والنبي في بطن أمه أو بعد ولادته بسبعة أشهر ، أو باكثر من ذلك ، توفي بالمدينة ، وكان عائداً من بلاد الشام بتجارة له ، فدفن

(١) shorter, P, 391,

فيها عند أخواله بني عدي بن النجار (١)، في دار عرفت بـ « دار النابغة » (٢). وقيل في دار من دور بني عدي بن النجار (٣).

وعبدالله من الأسماء المعروفة عند الجاهليين، وقد ذكر الأخباريون أسماء عدد من الرجال عرفوا بعبدالله (٤). كما أنه من الأسماء الواردة في الكتابات الجاهلية الشمالية (٥)، وفي النصوص النبطية (٦).

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن أبا الرسول لم يكن يعرف بهذا الاسم، وإنما كان يسمي باسم آخر من الأسماء الوثنية، وأن الرسول هو الذي سماه « عبدالله» على قاعدته في تحويل الأسماء الجاهلية الى أسماء إسلامية، أو أن المسلمين هم الذين سموه بهذا الاسم، لاثبات ان آباء النبي وأجداده كانوا جميعاً من الموحدين. وورود اسم « عبدالله » فى الكتابات الجاهلية كما ذكرت آنفاً حجة كافية فى ادحاض هذا الزعم. ثم إن الرسول حينما تفاوض مع قريش وأمر بتدوين العقود معها ومع غيرها، كان يأمر بتدوين: « محمد بن عبدالله »، ولو كان اسم أبيه شيئاً آخر، لأشار المشركون اليه، ولطلبوا منه تدوينه، ولمانعوا فى تدوين هذه التسمية الاسلاميه الجديدة التي لا يدينون بها ولا يعترفون، كما اعترضوا عليه يوم أمر بتدوين: (بسم الله الرحمن الرحيم) في صلح الحديبية، وأبو إلا كتابة جملة (بسمك اللهم)، وهي مصطلح الجاهليين فى افتتاح الرسائل والعهود.

وقد ذهب المستشرق الايطالي « كيتاني » الى أن الرسول ووالده عبدالله، لم

---

(١) « ولد رسول الله، صلى الله عليه وسلم بمكة، وعاش يتيما، اذ مات أبوه وهو عليه السلام لم يكمل له ثلاث سنين »، جوامع السيرة « ص ٥ »، الامتاع « ٥ »، ابن قيم الجوزية زاد المعاد (١/١٧)، الحلبية (١/ ٤، ٥٨ وما بعدها)، الطبري (١/٩٦٧، ٩٧٩)، ابن سعد، الطبقات (١/٥٣ وما بعدها)، سيرة ابن هشام (٩٧ وما بعدها)، اليعقوبي (٢/٨)، الحلبية (١/٥٩) سيرة ابن هشام (١/ ١٦٠ومابعدها)، طبعة القاهرة ١٩٣٦)، غاية (ص ٧).

(٢) « ويقال إنه دفن في دار النابغة في الدار الصغرى »، حاشية (٢) على سيرة ابن هشام (١/ ١٦٧) « طبعة القاهرة ١٩٣٦ » ابن سعد : (١ ٩٩، « طبعة بيروت » ؛ Frey-, I, P, 21, Sprenger, I, S. 145، عيون الاثر فيفنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس (القاهرة (١٣٥٦) « ودفن في دار النابغة »، (١ ٢٦).

(٣) عيون الأثر (١ ٢٥).

(٤) راجع كتاب الإشتقاق لابن دريد وموارد أخرى.

(٥) Rep. Epi. Semi., III, I, P. 130, Mnn. 1407.

(٦) Rep, Epi Semi, III, I, P. 132, Nnm, 1414,

يكونا من أهل مكة في الأصل ، بل كانا من أهل يثرب ، أي المدينة ، ثم حاول أن يجد مطعناً في النسب ، بابعاده عن قريش ، وبابعاد العدنانيين عموماً عن العرب ، وتحدث عن روايات أهل الأخبار في « العرب المستعربة » . والرسول كما هو معروف وكذلك بقية العدنانيين هم من هؤلاء العرب كما يذكر اولئك الرواة . بل ذهب الى احتمال وجود نسب له بالاسرائيليين . وحجته في ذلك وجودهم في يثرب ، وكون أهله من يثرب. وهذا التجاور والاتصال والسكنى في مكان واحد ، يبعث على استخراجه ورأيه الى الالتحام في النسب ، والتزاوج في الرأي والعقائد وما الى ذلك (١) .

وقد فعلت آراء هذا المستشرق وأمثاله في عقول بعض السذج السخفاء ، فظنوا أن فيها اكتشافات عجيبة غريبة ، وان فيها التفاتات نبيهة لم ينتبه إليها الناس. وإني لأعجب من اولئك الذين يأخذون بنزوات وبترهات بعض الأخباريين ، فيعدونها حجة يبنون أحكاماً وقواعد عليها ، وإذا قلنا كما قالوا إن العدنانيين لم يكونوا عرباً في الأصل ، بل هم عرب استعربوا ، وإن محمداً ليس عربياً ، بل هو أعجمي مستعرب ، ودليل عجمته نبوغه ونبوته ، فهل يكون في المنطق هراء أقبح وأشنع من هذا الهراء ؟

وسواء أكان عبدالله والد الرسول من أهل يثرب أو من أهل مكة ، فان محمداً لم يولد باجماع الرواة إلا في مكة ، وفيها نشأ وعاش أكثر عمره الى الهجرة ، ولم يرد غير ذلك في أي خبر من الأخبار التي ذكرها الأخباريون .

وغاية « كيتاني » من هذا الزعم ، الغمز والهمز واللمز للرسول ، لاظهار أن ما جاء به كان بوحي من يهود يثرب وتعلم منهم ، وبدس من عرق يهودي كان في دم الرسول . ولو فطن كمؤرخ لقيم روايات أهل الأخبار ، ووجوب مناقشة الرواية أولاً ، ومناقشة رجالها والأيام التي ظهرت فيها ، وعلم أن ماروي وقيل عن الرسول ، وما استند اليه هو مما لايقف أمام النقد والتعديل والجرح ، وأنه من النوع الذي ظهر متأخراً في بعض كتب السير والأخبار ، ثم لو أدرك أن أكثر مايرويه أهل الأخبار عن الجاهلية وأيام الرسول الأولى هو مما يجب النظر اليه بحذر وبتبصر ، لكان حكمه ، فيما أرى ، حكماً آخر ، ولكان رأيه في أكثر ماكتبه في السيرة مخالفاً لما ذهب اليه .

---

(١) إسلام تأريخي (١/١٣٦ وما بعدها) .

ولكن « كيتاني » ذو رأي وفكرة ، وضع رأيه وكونه فى السيرة قبل الشروع في تدوينها . فلما شرع بها ، استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ، ضعيفها وقويها، وتمسك بها كلها ، ولاسيما مايلائم رأيه ، لم يبال بالخبر الضعيف ، بل قواه وسنده ، وعده حجة ، وبنى حكمه عليه . ومن يدري ؟ فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة المعروفة عند العلماء ، ولكنه عفا عنها ، وغض نظره عن أقوال اولئك العلماء فيها ؛ لأنه صاحب فكرة يريد اثباتها بأية طريقة كانت وكيف يتمكن من اثباتها واظهارها وتدوينها ، إن ترك تلك الروايات ، وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل ، على أساليب البحث الحديث، فصار مسلكه في تدوين السيرة مسلك اولئك الذين قبلوا القصص الاسرائيلي من المسلمين، والقصص الموضوع المتأخر الذي يجافي روح القرآن وعمل الرسول ، لما فيه من إغراق فى رواية الخوارق وابتعاد عن حدود العقل ، لظنهم أن ذلك مما يزين السيرة ، ويكسبها رواء ، ويقربها الى أفهام الناس ، دون أن يفطنوا الى أن رواية هذا النوع من القصص مضر بالتأريخ ومضر بالحق . والطريقان بالطبع خاطئان مضللان : طريق « كيتاني » و « شبرنكر » قبله ، في قبول كل شيء ، يريان فيه تأييداً لوجهة نظرهما في الغمز واللمز، لمخالفتهما الاسلام فى العقيدة . فاستعانا لذلك بالأخبار الضعيفة التي رواها هذا الفريق من رواة السيرة من الضعفاء والمتروكين . وطريق هذا الفريق الذي استقى من معين أخباره « كيتاني » . وهو فريق ربما دفعته حسن النية والعاطفة الطيبة المناقضة لعاطفة « كيتاني » في الاسلام ، الى قبول كل رواية فيها اغراق ، كما فعل كتبة اليهودية والنصرانية القدامى فى تدوين سير الأنبياء والقديسين والشهداء ، ظناً منهم أن فى ذلك ارضاء للاسلام والرسول متأثرين باسلوب المذكورين في كتابة أخبار الرسل والأنبياء والشهداء ، ولم يفطنوا الى أن ذلك مخالف لجوهر الاسلام في الواقع ، وأن ماذكروه ورووه لا ينفع الاسلام ولا يرفع من شأنه ، كما أن اهماله لا يضره شيئاً ولا يحط من قدره . ولكنها العاطفة ، عاطفة البغض وعاطفة الحب . والعاطفة متى دخلت قلب امرئ ، أبعدته عن العقل والصواب .

ونظراً الى ما نعرفه من وجود الأوبئـــة في يثرب ، ولا سيما وباء « الملاريا » (حمى يثرب) ، فلا يستبعد أن يكون هذا المرض هو السبب في وفاة عبدالله فى المدينة ودفنه هناك .

وتذكر كتب السير أن هاشم بن عبدمناف، جدعبدالله، كان قدخرج في تجارة له ببلاد الشام فلما كان في غزة توفي هناك (١). وكانت غزة من المدن التي يقصدها تجار الحجاز، فيبيعون بها ما عندهم من تجارة، ويشترون منها ما في أسواقها من تجارة بلاد الشام أو ما ورد اليها من مصر أو من حوض البحر المتوسط. وهي من المدن الفلسطينية التي كان يقيم بها العرب قبل الميلاد.

وأما أمه، فآمنة بنت وهب، من بني زهرة من بني النجار من مدينة يثرب. تزوجها عبدالله، وهو في الرابعة والعشرين من عمره. خطبها عبدالمطلب وابنه عبدالله من أبيها وهب على رواية: أو من عمها أهيب على رواية أخرى، لوفاة والدها قبل ذلك، فكانت آمنة في كفالة هذا العم (٢).

وكان بنو زهرة من الأسر الشهيرة في المدينة. وكانت تتعاطى التجارة، فتذهب الى بلاد الشام. وهي تشبه في ذلك بني هاشم بمكة. ولعل التجارة هي التي ربطت أواصر الأسرتين برباط المصاهرة والدم.

وقد ولد الرسول في الدار التي صارت من بعد تعرف ببيت «محمد بن يوسف الثقفي» أخي الحجاج. وتقع عند الصفا في جوف مكة، على رأي أكثر الرواة، وقيل في «الردم» ردم بني جمح، وقيل: بعسفان. وقيل: بشعب بني هاشم (٣). وكانت الدار التي ولد فيها الرسول لعقيل بن ابي طالب، باعها اولاده بعد وفاته من أخي الحجاج، فادخلها في داره، وسماها البيضاء، لانها بنيت بالجص، ثم طليت به، فكانت كلها بيضاء، وصارت تعرف بدار ابن يوسف. ويقال: إن عقيلاً هو الذي باعها، وباع معها جملة بيوت من بيوت اخوته. ومن هاجر من بني هاشم، باعها كلها

---

(١) ابن هشام (١ ١٤٤)، الطبري (١ ١٠٨٢) «طبعة اوربة»، ابن سعد (١ ٤٣ وما بعدها)؛ Sprenger, I, S, 139. Ency. of Islam, II, P. 286, Caetani, Annali, I, 109.

(٢) سيرة ابن هشام (١ ١٦٤ وما بعدها) «طبعة القاهرة ١٩٣٦». طبقات ابن سعد (١ ٩٤ وما بعدها) «طبعة بيروت».

(٣) السيرة الحلبية «١/٧٤»، الروض الأنف «١/١٠٧»، حاشية «٣» على سيرة ابن هشام «١/١٦٧» «طبعة القاهرة ١٩٣٦».

وقد ولد الرسول في الدار التي صارت من بعد تعرف ببيت « محمد بن يوسف الثقفي » اخي الحجــاج . وتقع عند الصفا فى جوف مكة على رأي أكثر الرواة ، وقيل فى « الردم » ردم بني جمح ، وقيل : بعسفان ، وقيل : بشعب بني هاشم (١). وكانت الدار التي ولد فيها الرسول لعقيل بن أبي طالب ، باعها أولاده بعد وفاته من أخي الحجاج ، فأدخلها في داره وسماها البيضـــاء ، لأنها بنيت بالجص ، ثم طليت به فكانت كلها بيضاء ، وصارت تعرف بدار ابن يوسف . ويقال إن عقيلاً هو الذي باعها، وباع معها جملة بيوت من بيوت اخوته ومن هاجر من بني هاشم ، باعها في حياة الرسول قبل الفتح (٢) . وقد دعاها بعض أهل الأخبار « بدار التبابعة » (٣).

ويقال : إن الخيزران أم الرشيد اشترت تلك الدار ، وأخرجتها من دار ابن يوسف، وجعلتها مسجداً . أو أن زبيدة هي التي بنتها مسجداً لما حجت . وقيل : إن الخيزران اشترت دار الأرقم بن الأرقم، الدار التي كان يأوي اليها الرسول فى زمان تستره بالدعوة، وكانت تقع أيضاً عند الصفا فبنتها مسجداً (٤).

وباع عقيل دار خديجة زوج النبي كذلك . وهي الدار التي انتقل اليها الرسول بعد زواجه بخديجة، وعرفت بدارفاطمة . وقد اشتراها معاوية من عقيل ، أو ممن اشتراها

---

(١) السيرة الحلبية (١/٧٤) ، الروض الأنف (١/١٠٨) ، حاشية (٣) على سيرة ابن هشام (١/١٦٧) « طبعة القاهرة ١٩٣٦ ».

(٢) السيرة الحلبية (١/٧٤) ، « وهو في دار محمد بن يوسف اخي الحجاج بن يوسف . كان عقيل بن أبي طالب أخذه حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم . وفيه وفي غيره يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عام حجة الوداع حين قيل له : اين تنزل يارسول الله ؟ وهل ترك لنا عقيل من ظل ... » ، أخبار مكة للازرقي (ص ٤٢٢) (طبعة لايبزك سنة ١٨٥٨) ، ابن سيد الناس (١ / ٢٦) .

(٣) القاموس (٣/٨) ، رحلة البتانوني (ص ٥٢) ، الازرقي (ص ٤٢٢) « طبعة وستنفلد » ، رحلة العياشي (١/٢٢٥) ، ابراهيم رفعت باشا ، مرآة الحرمين (القاهرة ١٩٢٥) (١/١٨٦ وما بعدها) .

(٤) السيرة الحلبية (١/٧٤) ، أخبار مكة (ص ٤٢٢) ، (طبعة لايبزك) ، « في الأرض التي تعرف بابن يوسف بمكة ، فصيرتها الخيزران بنت عطاء امرأة المهدي مسجداً » ، البدء والتأريخ (٤/١٣٢) .

من عقيل ، فحولها الى مسجد (١) . وفتح فيها باباً من دار أبى سفيان (٢) .

ولم يبق ، ويا للأسف ، شيء من الدار التي ولد فيها الرسول. نعم ، هناك موضع يقع في شعب بنى عامر في أحياء مكة من شرقها ، يقال إنه الموضع الذي ولد فيه الرسول، أي موضع الدار التي ولد فيها . وقد بنى عليه الملوك والسلاطين أبنية تخليداً لذكرى ذلك المكان (٣) . ولكنه أهمل كما أهمل موضع سائر الأماكن الأثرية الاسلامية في الحجاز بعد استيلاء الوهابيين على الحجاز .

ويقال : إن القابلة التي سقط محمد على يديها . هي « الشفاء » ، أم عبدالرحمن ابن عوف ، وأن أم أيمن كانت دايته ، فكانت تخدمه وتعتني به ، وان مرضعته الأولى هي ثويبة (٤) .

وتذكر كتب السير من عادة أسر مكة المعروفة فى ذلك العهد أنها كانت ترسل أطفالها الى مرضعات من القبائل ، لينشؤوا نشأة صحية ، وليتعلموا فصيح اللغة . وكان النبي في جملة من طبقت عليهم هذه العادة ، فدفع الى « حليمة » من بني سعد بن بكر بنت أبي ذؤيب بن عبدالله بن الحارث وقد عرف بنو سعد التي تنتمي حليمة اليهم بفصاحة اللسان ، وقد عد لسانهم أحد الالسنة الفصيحة البليغة التي اشتهرت بين العرب (٥)

---

(١) السيرة الحلبية (٧٤/١) .

(٢) أخبار مكة (ص ٤٢٣) « طبعة لا يبزك » .

(٣) محمد حسين هيكل : في منزل الوحي (الطبعة الثانية) (١٩٥٢) (ص ٢٣٦ وما بعدها)، مرآة الحرمين (١٨٦/١ وما بعدها) .

(٤) السيرة الحلبية (٧٥/١).

(٥) « ... فعرض عليها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فجعلت تقول : يتيم ولا مال له ، وما عست أمه أن تفعل؟ فخرج النسوة وخلفنها ، فقالت حليمة لزوجها : ما ترى؟ قد خرج صواحبي وليس بمكة غلام يسترضع إلا هذا الغلام اليتيم ، فلو أنا أخذناه ، فاني اكره أن نرجع الى بلادنا ولم نأخذ شيئاً . فقال لها زوجها : خذيه عسى الله أن يجعل لنا فيه خيراً ... » ، طبقات ابن سعد (١١١/١) ، الطبري (٩٦٩/١ وما بعدها) ، ابن الاثير (١ / ٣٣٣ وما بعدها) ، تأريخ الخميس (١ ٢٥٢ وما بعدها) ؛ سيرة ابن هشام (١٦٩/١)، L. Caetani, Annali Dell Islam, Vol., I, P. 151, & 125,

وقد أرضعت النبي قبل حليمة امرأة أخرى يقال لها ثويبة مولاة أبي لهب ، أرضعته أياماً وأرضعت معه أبا سلمة عبدالله بن عبدالأشد المخزومي بلبن ابنها مسروح ، وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبدالمطلب . وقد كان حمزة مسترضعاً فى بني سعد بن بكر عند حليمة ، فكان حمزة رضيع رسول الله من جهة ثويبة ومن جهة حليمة (١) .

ولم ينس الرسول مرضعته الأولى « ثويبة »، فكان يسأل عنها ، ويبعث اليها بصلة وكسوة . بقى يفعل ذلك حتى جاءه خبرها أنها قد توفيت سنة سبع ، مرجعه من خيبر ، فقال : ما فعل ابنها مسروح ؟ فقيل : مات قبلها ، ولم يبق من قرابتها أحد (٢) .

وقد أقام محمد فى بني سعد الى الخامسة من عمره ، ترضعه حليمة ، وتحصنه ابنتها الشيماء . ويظهر أن جو البادية قد أثر تأثيراً كبيراً فيه ، وأن حليمة قد عنيت به عناية حسنة ، بدليل ما ورد عنه من أنه قال : « أنا أعربكم . أنا قرشي ، واسترضعت فى بني سعد بن بكر » ، ومن أنه كان يحتفي بحليمة ويكرمها ويسبغ عليها ألطافه ويذكرها طول حياته بالخير . وقد من على ابنتها الشيماء ، وكانت فى جملة من أسر مع بني هوازن بعد حصار الطائف ، فلما جيء بها الى الرسول وعرفها ، أكرمها ، وردها الى أهلها ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، رعاية لحقها ولحق أمها (٣) .

وقد عهدت حليمة الى محمد برعاية الغنم ، شأن الأطفال فى ذلك العهد . فكان يخرج مع أخيه من الرضاعة فى الرعي ، ثم يعودان الى بيتهما فى المساء . وقد كان الرسول يتذكر ذلك الزمان ويفتخر به ، كما اشتغل بالرعي بعد عودته الى مكة ، وكان أجره قراريط من ذلك ، يدفعها اليه أهل مكة (٤) .

ولم تذكر كتب السير عمر الرسول يوم كان يرعى الغنم لأهل مكة ، كما أنها لم تشر الى المدة التي بقي فيها راعياً . ولكن بعض الروايات تذكر أنه كان فتى في ذلك العهد ، وأنه كان يرعى مع جماعة من أقرانه الفتيان في « أجياد » ، وأنه كان يبقى

---

(١) ابن قيم الجوزية (١/١٩) ، طبقات ابن سعد (١ / ١٠٨ وما بعدها) «طبعة بيروت ».
(٢) طبقات ابن سعد (١/١٠٨ وما بعدها) .
(٣) سيرة ابن هشام (١/١٧٠ وما بعدها، ١٧٦) ، محمد حسين هيكل : حياة محمد (ص١١٢) (الطبعة السادسة سنة ١٩٥٦) .
(٤) الروض الأنف (١/١١٢) ، السيرة الحلبية (٢/١٤٩ وما بعدها) .

هناك مع غنمه لايعود الى داره ليلاً على عادة الرعاة فى ذلك العهد ، يقضي الليل مع غنمه في مواضع الرعي (١) .

هذا وكأن الأقدار كانت على علم بأن أم النبي لن تعيش طويلاً ، ولهـذا جاءت بالطفل وهو في الخامسة من البادية الى أمه ، ليعيش معها زهاء السنة ، فيذوق حنان الأم ويشهد عطفها عليه بعد أن حرم رعاية الأب ، وكأنها كانت تريد أن يشهد وفاتها وجنازتها بعد أن حرمته رؤية وجه ابيه وجنازته .

أرادت آمنة زيارة أهلها لعرض غلامها عليهم ، وكانت قد وعدت أهلها مراراً بزيارتهم ، وذهبت به وبأم أيمن جاريتها التي خلفها لها زوجها عبدالله . وبقيت وبقي ابنها معها شهراً في أهلها ، ثم قررت العودة الى مكة . وعادت بابنها وبجاريتها ، ولكن القدر كان لها بالمرصاد ، فلما كانت بـ « الأبواء » ، وهي في طريقها الى مكة ، مرضت مرضاً قضى عليها فدفنت هناك (٢) .

وقد بقي الألم من وفاة الأم كامناً في نفس الرسول ، لقد كان ألماً شديداً جداً . فلما « مر بالأبواء فى عمرة الحديبية ، قال : إن الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمه ، فأتاه وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه » (٣) . ولا يعتد المؤرخون بالروايتين القائلتين إن قبر آمنة كان في « دار رابغة » بمكة ، أو في الحجون بشعب أبى ذؤيب(٤) . « شعب أبي دب » (٥) .

وعادت أم أيمن بمحمد الى جده عبدالمطلب وقد شهد في هذه المرة بأم عينيه نهاية أمه ، والمكان الذي دفنت فيه . عاد وقد شهد فى زيارته هذه ليثرب الموضع الذي

---

(١) عيون الأثر (١/٤٤) .

(٢) الطبري (١/٩٨٠) ، ابن الأثير (١/٣٤٠) ، تأريخ الخميس (١/٢٥٩) ، البلدان (١/١٠٠) ، الروض الأنف ، (١/١١٣) ، سيرة ابن هشام (١/١١٧) ، اسلام تأريخي (١/٣٦٥ وما بعدها) ، غاية (ص ٧) ، البدء والتأريخ (٤/١٣٣) .

Life, P. 73, Annali, I, P. 156, & 131.

(٣) السيرة الحلبية (١/١٢٥) .

(٤) السيرة الحلبية (١/١٢٥ وما بعدها) ، « قال ابن سعد : وهذا غلط ، وليس قبرها بمكة ، وقبرها بالابواء » ، طبقات ابن سعد (١/١١٧) « طبعة بيروت » .

(٥) « وشعب أبي دب الذي يعمل فيه الجزارون بمكة ، بالمعلاة . وابو دب رجـل من بني سوأة بن عامر ، سكنه فسمى به » ، أخبار مكة (ص ٤٣٣) « طبعة لايبزك » .

توفي فيه أبوه ، والقبر الذي ضمه. عاد يتيم الأبوين وهو فى سن أحوج مايكون فيه الى الأم والأب . لقد أثر هذا اليتم فيه كثيراً ، وبقيت ذكراه عالقة فى ذاكرته أبداً . وقد أدرك أهميته فى حياة الانسان وما يحدثه من أثر فى نفوس من يوقعهم حظهم به ، ويتجلى ذلك فى هذه الآية : « ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجد ضالاً فهدى » (١) ، وفى الآيات الأخرى التي تحض على إنصاف اليتامى ، ومساعدتهم والترفيه عنهم ، وفي كثير من الحديث .

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاها محمد في المدينة ، فقد بقيت ذكراها باقية فى ذاكرته . فلما عاد الى يثرب ، تذكر المواضع التي كان يلعب فيها والأماكن التي كان يسلي نفسه بها ، تذكر الدار التي أقامت أمه بها ، وتذكر « أنيسة » وهي طفلة من أهل يثرب كانت تلعب معه ، وأطفال الحي الذين كانوا يقضون وقتهم معه (٢) . « فلما نظر الى أطم بني عدي بن النجار عرفه وقال : كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الاطم ، وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً كان يقع عليه . ونظر الى الدار فقال : ههنا نزلت بي أمي وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبدالمطلب وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار » (٣) .

وكانت أم أيمن هي كل ماتبقى له من إرثه من والده ومن أمه . لقد كانت امرأة حبشية ، ورثها من أبيه . وهي قد عمرت على مايظهر طويلاً ، إذ أدركت وفاة الرسول . وتذكر الأخبار أنها حزنت على وفاته وبكت ، وأن أبا بكر وعمر دخلا عليها وهي على هذه الحالة ، فقالا لها : يا أم أيمن ، مايبكيك ؟ فما عندالله خير لرسوله ! وقد كانت داية الرسول . وزوجها من زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة (٤) .

وحزن عبدالمطلب حزناً عظيماً ولا شك على ما أصاب عزيزه « محمداً » من مكروه ، وأخذ يريه كل ضروب الشفقة والعطف والحنان للتخفيف عن آلامه وأحزانه . يأخذه معه ، ويجلسه فى مجالسه فى ظل الكعبة ، ويرعاه كل رعاية ؛ فكأنه وهو جده الطاعن فى السن ، أراد أن يكون فى موضع الوالد والأم .

---

(١) الضحى : الآية ٦ وما بعدها .

(٢) ابن سعد (١/ ١١٦) « طبعة بيروت ١٩٥٧) ، Sprenger, I', S. 145.

(٣) طبقات ابن سعد (١/١١٦) « بيروت ١٩٥٧) .

(٤) ابن قيم الجوزية (١/١٩) .

قال أحد الأشخاص : « حججت في الجاهلية ، فاذا أنا بشيـخ مربوع يطوف بالبيت ، وهو يقول :

رد علـي راكبي محمداً   واصطنعن برده عندي يدا

فقلت ؛ من هذا الشيخ ؟ قالوا : عبـد المطلب بن هاشم . قلت : ما شأنه ؟ قالوا : ضل إبل له ، فخرج في طلبها بني ابنه : محمد بن عبدالله ، وقد أبطأ عليه ، فقد أخـذه ما ترى . قال : فما برحت حتى رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو غلام ، وجاء بالابل . فسمعت عبدالمطلب يقول له : يا بني ، لقد جزعت عليك جزعاً ، لا يفارقني بعده حتى أموت » (١) .

وشاءت الأقدار أيضاً أن تزيد في آلام النبي ، وفي أحزانه . فما كاد يبلغ الثامنة من عمره حتى فجع بوفاة جده وهو على أبواب الثمانين من عمره (٢) . وكانت هذه الوفاة صدمة عنيفة عليه لم تقل عن الصدمة التي أصيب بها بوفاة أمه . لقد كان عبدالمطلب على شيخوخته وتقدمه في السن يرعى محمداً رعاية الوالد القوي القدير ، وكان البقية الباقية من والده عليه . فلما توفي ، شيعه مع المشيعين الى قبره ، باكياً سـائراً خلف سريره المحمول عليه الى موضع قبره بالحجون . وظل يذكر جده طوال عمره ، ويترحم عليه (٣) .

والحجون من مقابر مكة القديمة الجاهلية ، وفيها قبر قصي زعيم قريش ، وغيره من رؤساء مكة . وقد كان أهل مكة يزورون قبر قصي ويعظمونه (٤) وربما فعلوا ذلك مـع قبور رؤساء آخرين .

هذا ونحن لا نعرف من أمر عبدالمطلب إلا القليل ، وكل ما نعرفه عنه أنه ابن هاشم ، وأن

---

(١) البلاذري (٨٢/١) ، عيون الاثر (٣٨/١) .

(٢) « فتوفي عبدالمطلب بعد الفيل بثماني سنين » ، الطبري (١٩٤/١) ، « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسبابه » ، سيرة ابن هشام (١٧٨/١ وما بعدها) ، اسلام تأريخي (٣٦٩/١ وما بعدها) ، ابن الاثير (٣٤٠/٢) .

(٣) السيرة الحلبية (١٣٤/١) ، « ومات عبدالمطلب فدفن بالحجون ، وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة ، ويقال : ابن مائة وعشر سنين » ، طبقات ابن سعد (٢١٩/١) « طبعة بيروت » ، « ومات وله من العمر مائة وعشر سنين » ، غاية (ص ٧) ، البلاذري (٨٤/١) .

(٤) البلاذري (٥٢/١) ، الأزرقي (ص ٤٨٢) « طبعة وستنفلد » .

اسمه شيبة ، وان كنيته ابو الحارث . وأما أمه فاسمها « سلمى » ، وهي من بني النجار ، أي من « يثرب » ، وأن والده كان من أصحاب التجارات : خرج متاجراً ، وتوفى فى طريقه فيتم « شيبة » وكفله خاله « المطلب » ، ورعاه وحماه ، حتى عرف به ، ونسب اليه، فقيل : عبدالمطلب . وتذكر الموارد أن عبدالمطلب كان وسيماً ذكياً ذا شخصية وقابليات ، وأنه تمكن بعد مجيئه الى مكة من تزعم قومه ومن كسب احترامهم وتقديرهم ، فكان يجلس فى صدر المجالس فى البيت، وأنه حفر بئر زمزم ، وتولى سقاية الحاج ، وأنه كان شيخ مكة فى أثناء حملة أبرهة على مكة ، كما كان مبعوث القوم اليه (١) .

ونسب اليعقوبي اصلاحات دينية الى عبدالمطلب ، أقرها الاسلام (٢) . وقد ذكر بعض الأخباريين أنه كان أول من تحنث بحراء ، وكان اذا أهل هلال رمضان دخل بحراء ، فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر ، ويطعم المساكين . وكان يعظم الظلم بمكة ، ويكثر الطواف بالبيت (٣) .

وعبدالمطلب على منزلته في قومه . ومكانته بينهم ، لم يكن غنياً ذا مال . وأسرته لم تكن أسرة ثروة وغنى . بل كان غناها غنى اجتماعياً ، أي مكانة محترمة بين أهل مكة ، لصلتها بالبيت . وعلى هذا النحو كانت حالة سائر أسرته ، تعيش من وارد البيت ، وتفتخر بخدمتها له وللحجاج الوافدين على مكة للتقرب الى الكعبة . وهي منزلة لها قيمة ، ولأصحابها مكانة روحية فى المجتمع ، وإن لم يكن صاحبها من أصحاب الثروة والمال .

وللأخباريين قصص عن سبب تسمية « عبدالمطلب » بهذا الاسم ، هو من القصص المألوف الذي ألفنا قراءته في الكتب القديمة عند وقوع الأخباريين في حرج ووقوفهم حيارى أمام مشكلة لايعرفون من أصلها شيئاً . فيلجؤون الى الابتكار والخيال لايجاد شكل من الأجوبة تحل على زعمهم تلك المشكلات ، فلا يتعرضون لنسبتهم الى الجهل والافلاس في الوقوف على أخبار الماضين .

---

(١) الطبري (١/٩٣٧) ، ابن هشام (١/٣٣) .
Shorter P. 7 ff, Sprenger, III, P. Cxliv, Caussin de Perceval, Essai Vol. I, P. 259, Muir, The Life, I. P. Celi, Caetani I, P. 110, ff.

(٢) اليعقوبي (٢/٨ وما بعدها) Shorter, P. 7. f.

(٣) البلاذري (٢/٨٤) .

وعبدالمطلب في رأيي مثل الأسماء الأخرى ، قريش وقصي وعبدالملك (١) وعبد شمس وسعدالله وعبدالله ومحمد ومسلم ويحمد وأمثالها، أسماء عربية شمالية قديمة . وقد وردت في نصوص نبطية . فهي ليست من الأسماء التي عرفت قبيل الاسلام كما ذهب الى ذلك أهل الأخبار .

وبمناسبة الحديث عن هذه الأسماء أقول : إن أكثر أسماء قريش يرد في الكتابات العربية الشمالية وفي النبطية منها بصورة خاصة ، ولكنها قلما ترد في المسند . ولهذه الظاهرة أهمية كبيرة في دراسة موضوع الفروق بين العرب الشماليين والجنوبيين. كذلك نجد أن معظم أسماء أصنام قريش يرد في النصوص المذكورة ، وقلما يرد في الكتابات العربية الجنوبية ، مما يشير الى وجود تفاوت كبير بين أهل مكة والعرب الجنوبيين ، وتقارب كبير بين قريش والعرب الشماليين . ولهذه الظاهرة أهمية كبيرة في دراسة موضوع الفروق بين العرب الشماليين والجنوبيين .

وانتقل واجب الجد عبدالمطلب الى العم أبي طالب . وكان أبو طالب وعبدالله أخوين لأب وأم ، هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم (٢) ، انتقل اليه هذا الواجب ، وإن لم يكن أكبر أبناء عبدالمطلب . فقد كان « الحارث » شقيقه أكبر منه سناً ، لكنه لم يكن موسراً ، وكان العباس أكثر منه مالاً ، لكنه كان على ماله حريصاً (٣) . أما أبو طالب ، فقد كان يحب النبي حب عبدالمطلب له ، وكان يقدمه على أولاده . ولهذا كانت رعايته وحمايته من حصته ونصيبه .

وأبو طالب هو عبد مناف ، وهو والد علي بن أبي طالب صهر الرسول . ونحن نأسف على أننا لانملك من أخباره شيئاً كثيراً . وكل مانعرفه عنه هو مما له صلة بالرسول. وقد ورد في بعض الأخبار أنه ساد قومه . وقد عاش عشر سنين مابعد البعثة ، الى أن

---

(١) Rep, Epi. Semi., II, II, P. 181, 895, III, I, P. 123, Num. 1384, III, I, P. 128, Num. 1401, III, I, P. 130, Num. 1407, 132, Num 1414, VII, 322, Num. 4693, IV, I, 55, 2117, II, II, 181, Num. 895, VII, 184, Num. 4304, VII, 422, 472.

(٢) سيرة ابن هشام (١٨٩/١) .

(٣) طبقات ابن سعد (١١٩/١ وما بعدها) ، Life, P. 79. هيكل (ص ١١٤) .

توفى قبل ثلاث سنوات من الهجرة (١) .

ونجد في كتب السير قصائد تنسب الى أبي طالب زعم أنه قالها ، وشعراً كثيراً اذا قرأه الانسان ، ووقف على أكثر هذا الشعر ، خرج جازماً بأنه من النوع الموضوع المفتعل المحمول عليه .

وذكر أن أبا طالب كان قد تزوج زوجين ، ورزق أربعة أولاد ، هم : طالب وهو أولهم وأكبرهم ، وقد كان في جملة من اشترك في معركة بدر مع المشركين ، ولم يعرف عنه أي شيء بعد بدر . وعقيل وقد ولد بعشر سنين بعد مولد طالب . وجعفر بعد عشر سنين من ميلاد عقيل ، في جملة من هاجر الى الحبشة من مهاجرة الاسلام ، وعلي وقد كان أصغر من جعفر بعشر سنين كذلك . وكانت له ثلاث بنات أو أربع . وأم هؤلاء الأولاد والبنات جميعاً هي : فاطمة بنت أسد بن هاشم .

وأما زوجه الأخرى ، فلم يذكر الأخباريون من نسلها إلا ولداً واحداً دعوه طليقاً ، لم يذكر الأخباريون اسمه ولا اسم ابنه حويرث فى جملة المسلمين (٢) .

وكان أبو طالب مثل سائر أهل مكة في زمانه تاجراً ، يقصد بلاد الشام للاتجار. ولما كان محمد في الثانية عشرة من عمره أو أقل من ذلك في رواية (٣) ، خرج عمه لتجارة الى بصري سوق التجارة مع البلاد العربية في ذلك الحين ، يقصدها تجار مكة لبيع ماعندهم من بضاعة ، ولشراء مافيها من سلع بلاد الشأم وحوض البحر المتوسط ، وأشفق أبو طالب على ابن أخيه أن يصحبه من مشقات السفر وصعوبته عليه وهو في تلك السن ، وابى محمد إلا مرافقة عمه فيها ، وكان له ماأراد . فخرج معه ووقف على حالة

---

(١) « توفى أبو طالب للنصف من شوال في السنة العاشرة من حين نبيء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ ابن بضع وثمانين سنة . . » ، طبقات ابن سعد (١/١٢٥) ، نسب قريش (ص ١٧) ، الطبري (١/١١٢٣ ، ١١٧٤) ، ابن هشام (١/١١٥ ، ١٦٧ وما بعدها) ، ابن حجر ، الإصابة (٤/٢١١ وما بعدها).

Caetani, Annali, I, P. 308, Goldzjher, Mu. Stu., II, S. 107.
Shorter, P. 12, Buhl, Das Leben, S. 115, Noldeke, in ZDMG., lii, S. 27. ff., Ency. of Islam, I, P. 108. f.

(٢) Sprenger, I, S. 147.

(٣) السيرة الحلبية (١/١٤٠) ، « وانطلق به الى بصري الشام ، وهو ابن تسع سنين » المحبر (ص ٩) .

الناس في خارج بلده، ورأى بصري، ومدين ووادي القرى ومواقع أخرى جميلة ذات زرع وضرع وعيون وآبار لاتقاس بها مكة ، ولا أي موضع آخر في الحجاز ، وشاهد رهباناً ونصارى يقيمون في تلك الأماكن . وفي بصري أوصي راهب تسميه كتب السير بحيرى أو جرجيس أو سرجيوس أبا طالب بمحمد خيرا ، لما وجده عليه من النباهة والوسامة ، ثم عاد به عمه الى مكة (١)

وكانت بصري أبعد مكان رآه الرسول في حياته ، وأقصى مكان زاره في بلاد الشأم . زارها وقد جلا الساسانيون عنها من عهد غير بعيد ، بعد أن أنزلوا بها الخراب والدمار ، مثل أذرعات في سنة ٦١٣ أو ٦١٤ للميلاد ؛ والى صاحبها أرسل الرسول رسولا يفاوضه ويرغبه في الدخول في الاسلام . والظاهر أنه كان حاكماً على بصرى ، وكانت حاضرة « المقاطعة العربية Provincia Arabiae » .

وينظر معظم المستشرقين الى قصة بحيرى على أنها أسطورة وقصة موضوعة . ليس لها أهمية تاريخية بالنسبة الى نبوة الرسول . واتخذها البعض حجة لاثبات أن الرسول كان قد تعلم منه الدين ، وأنه كان قد تلقن منه علم يهود والنصرانية ، فوضعه في الاسلام .

ويظهر أن ابا طالب لم يكسب من التجارة شيئاً ، وأن حظه في السوق لم يكن حظاً حسناً ، فلم يربح شيئاً يجعله مرتاحاً في معيشته وهو في آخر أيام حياته . ولهذا عاش عيشة ضنك وشدة ، مما حمل الرسول وقد كبر وتزوج ، على التخفيف عنه ومساعدته . ويلاحظ أن جل بني هاشم ، لم يكونوا أغنياء موسرين ، مع أنهم كانوا أصحاب تجارة وقافلة ، يخرجون الى بلاد الشأم للاتجار ، فيبيعون ويشترون . ولكنهم لم يجمعوا مع ذلك من تجارتهم هذه ثروة كافية تجعلهم في طبقة أغنياء مكة الموسرين .

ويقال إن قبر أبي طالب ، في المقبرة المعروفة اليوم باسم مقبرة المعلاة ، وهي في الشمال الشرقي من مكة ، وهي مقبرة قديمة ، يقال انها من العهد الجاهلي ، وهي لا تزال مقبرة لأهل مكة حتى اليوم . وفى هذه المقبرة قبر ينسب الى عبدالمطلب ، وقبر آخر

---

(١) الطبري (١١٢٣/١ وما بعدها) ، ابن الأثير (٢٧/٢ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (١٩١/١ وما بعدها) ، طبقات ابن سعد (١٠٩/١ وما بعدها) . Life, P. 79,
Annali, I, P. 160 S. 135.

ينسب الى عبد مناف، وقبر آخر ينسب الى خديجة. وقد سويت كل هذه القبور وأزيلت معالمها (١).

وسد الطريق المؤدى الى هذه القبور الأثرية المهمة. فأدى ذلك ويا للأسف الى ضياع آثار ترجع الى عهود مختلفة، والى ضياع معالم تاريخية مهمة. فقد كانت على هذه القبور وغيرها أبنية وشواهد تتحدث عن نوع من الريازة فى بناء المقابر، وقد كانت عليها كتابات تمثل تطوراً فى الخطوط أزيلت كلها بهذه النظرة الشديدة الى القبور.

ولما كان محمد فى الخامسة عشرة من عمره أو فى العشرين، هزت مكة حرب وقعت فى الأشهر الحرم. الأشهر المقدسة التي اتفقوا على ألا يكون فيها بغي ولا فساد، وأن تكون أمناً وسلاماً، يستصلح فيها الناس أحوالهم، ويتعهدون فيها شؤونهم دون خوف من غادر ولا وجل من مباغتة شقي. وقعت تلك الحرب بين كنانة وقيس عيلان، بسبب قتل البراض بن قيس الكناني، لعروة الرحال بن عتبة الهوازني فى هذه الأشهر. قتله من غير أن يهتم بحرمتها وبقدسيتها وبمكانتها الدينية عند الجاهليين. قتله، لأنه كان قد عرض نفسه على النعمان بن المنذر ليخفر قافلته التي كان يرسلها فى كل عام من الحيرة الى عكاظ محملة بالتجارة النفيسة لبيعها فى تلك السوق، ولتعود بالجلود وبأنسجة اليمن المزركشة وبالبضائع الأخرى الى الحيرة. وكان الأجر على ذلك على مايظهر عالياً مغرياً، والاسم الذي يناله حارس القافلة من هذه الخفارة كبيراً. وعرض عروة نفسه على النعمان كذلك، ليقوم بحماية القافلة وايصالها سالمة الى عكاظ، فاختار النعمان عروة وقدمه على البراض وهذا ما أغاضه وأزعجه وجعله يحقد عليه ويضمر الشر له، فتبعه، ووثب عليه وعلى قافلة النعمان؛ وقتل عروة، واستولى على القافلة دون مبالاة بحرمة الأيام التي قتله فيها ولا بقدسية الشهر ومنزلته فى النفوس. وهذا ما غاظ هوازن رهط عروة، وأوقع الحرب بينها وكنانة.

واستمرت الحرب متقاطعة أربع سنوات الى أن انتهت بصلح. وقد شاهدها الرسول واشترك فيها أو اشترك فى بعضها. وكان عمله يومئذ جمع السهام التي ترسلها هوازن على قومه، وتقديمها الى أعمامه لرمى هوازن بها. ويقال انه اشترك نفسه برمي

---

(١) محمد حسين هيكل: فى منزل الوحي (الطبعة الثانية) (١٩٥٢) (ص ٢٢٢ وما بعدها).

السهام فيها [1]. وعرفت هذه الحرب بحرب الفجار لان العرب فجرت فيها بحربها وخرجت على الحرمة والمقدسات بحربها في تلك الاشهر الحرم [2] .

وشهد محمد حلف الفضول : شهده في دار عبدالله بن جدعان ، وكان قد أولم وليمة منصرف قريش من الفجار ، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم وبنو أسد بن عبدالعزى ، فتعاقدوا وتعاهدوا وتحالفوا على أن يكونوا مع المظلوم حتى يؤدى اليه حقه ، وألا يتركوا مظلوماً بمكة من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه [3] . قاموا بهذا الحلف لاعادة السكينة والطمأنينة الى هذه المدينة المقدسة ، التي تعيش على التجارة وعلى دخلها من مواسم الحج وزيارة البيت والتقرب الى الأصنام والأوثان التي كانت فيها . ولم يكن من مصلحة قريش وبقية سكان مكة ، وهم حضر مستقرون ، انتشار الفتن ، وظهور الاعتداء في مدينتهم وحواليها . لقد كانوا يرون العافية في السلامة وفى الاستقرار والطمأنينة وراحة البال ، ولهذا كانوا لا يشتركون فى قتال الا اضطراراً ، ودفاعاً عن مال ونفس . وقد كانت أضرار « الفجار » وأمثالها من الحروب شديدة الوقع عليهم ولا شك .

ويذكر أهل الأخبار أن السبب فى هذا الحلف أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل وكان من أهل الشرف والقدر بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف : عبدالدار ومخزوماً وجمح وسهماً وعدي بن كعب ، فأبوا أن يعينوا على العاص ، وانتهروه . فلما رأى الزبيدي الشر ، رقى على

---

(1) الطبري (١/١١٢٧ وما بعدها) ، إبن الأثير (٣ / ٣٩ ؛ وما بعدها) ، تأريخ الخميس (١ / ٢٨٨) ، السيرة الحلبية (١ / ٥١) ، سيرة إبن هشام (١/ ١٩٥ وما بعدها) الأغاني (١٩ / ٧٤ وما بعدها) ، طبقات إبن سعد (١ / ١١٦ وما بعدها) ، « طبعة بيروت » البدء والتأريخ (٤ / ١٣٤ وما بعدها) ، هيكل (ص ١٠٦ وما بعدها) .

Life, P. 82, Annali, P. 163, weil, Das Leben Mohammed's nach Mohammed Ibn Ishaq, S. 88.

(2) « وشهد حرب الفجار الأيام سائرها إلا نخلة ؛ وكان يناول عمه ـ الزبير بن عبدالمطلب النبل » وكان عمره صلى الله عليه وسلم يومئذ عشرين سنة ؛ وقيل أربع عشرة أو خمسة عشرة سنة » ، الامتاع (١ ـ ٩) ؛ السيرة الحلبية (١ / ١٥١) .

(3) طبقات ابن سعد « ١ / ١٢٨ وما بعدها » « طبعة بيروت » ، الخضري « ١/ ٦٣ » ، هيكل « ١٧ » ؛

أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، ونادى باعلى صوته مستنجداً على عادة الناس فى ذلك العهد ، طالباً من آل فهر احقاق حقه والأخذ بناصره ، فقام الزبير بن عبدالمطلب عم النبي ، فدعا القوم الى دار عبدالله بن جدعان ، فكان من اجتماعهم عقد ذلك الحلف (١) .

وورد فى روايات أخرى أن العباس عم النبي كان هو الداعي الى ذلك الحلف ، كما ورد أن أبا سفيان كان هو الداعي اليه (٢) .

ويظهر من دراسة الأصول القديمة لروايات حلف الفضول أن الحاجة الى الأمن والاستقرار بعد تلك الحرب ، هي التي دفعت قبائل من قريش الى الاجتماع في دار عبدالله بن جدعان ، للتفاوض فى أمر إحلال الأمن والسلام فى مكة ، وحياة أهل مكة على الوافدين اليها من الحجاج والتجار ، وان الذي دعا الى ذلك نفر من قريش ، وأن الذي تزعم الدعوة وتبناها وجمع بين الرؤساء هوعبدالله بن جدعان من أثرياء مكة . أما إقحام اسم الزبير بن عبدالمطلب والعباس وأبي سفيان وغيرهم، فقد وقع فيما بعد، لغايات سياسية ودوافع عصبية تمت الى هذه السياسة العنيفة التي كانت بين آل الزبير وآل أبي سفيان وآل العباس . أدخل هذه الأسماء الرواة فى أيام بني أمية وفى أيام العباسيين ، لما كان لحلف الفضول من أهمية ومكانة ، ولما فى اقحام هذه الأسماء فى ذلك الحلف من أهمية في سياسة عالم ذلك الوقت .

ونما محمد وشب وفكر فى حياة حرة مستقلة ، وفي إعاشة نفسه ومساعدة عمه بعد أن قارب الخامسة والعشرين من العمر . وجد عمه وقد نهكته السنون ، ونضبت ثروته ، فلم تعد أمواله تكفيه لاعاشته وإعاشة أبنائه ، ورأى في نفسه حاجة الى أسرة ، ولا تكون الأسرة بغير مال . لقد قام منذ صباه برعي الأغنام ، رعى غنم أهله وغنم أهل مكة ، وقام بأعمال أخرى لمساعدة عمه ، ولكن الرعي وهذه المساعدات لن تفيده وقد بلغ هذا العمر ، ولهذا كان يفكر في رزق يسوقه الله اليه ، يكون فيه أمناً وطمأنينة له ، وكان ذلك عن طريق البيع والشراء والتجارة على عادة أغلب أهل مكة فى ذلك العهد .

---

(١) السيرة الحلبية « ١/١٥٦ » ، « وأول من دعا اليه الزبير بن عبدالمطلب . . . » طبقات ابن سعد « ١/١٢٨ » « طبعة بيروت » ، البدء والتأريخ « ٤-١٣٧ » .

(٢) السيرة الحلبية « ١/١٥٧ » .

وقد تكسب محمد بالاشتغال بالبيع والشراء مستقلاً بأعماله أحياناً ، ومشتركاً مع غيره أحياناً أخرى ، فكان يبيع ويشتري بمكة ، أو في أسواق الحجاز وبعض أسواق اليمن مثل سوق حباشة ، وهو موضع بأرض اليمن بينه وبين مكة ست ليال ، يقام لمدة ثلاثة أيام من أول شهر رجب فى كل عام (١) . تكسب من عمله هذا قبل المبعث وقبل أن يتزوج من خديجة . وقد تاجر الرسول بشراء البز وبيعه ، يشتريه من سوق حباشة ، وهي سوق مشهورة ببيع هذه البضاعة ، ويبيعه في مكة .

وكان في جملة من شارك محمداً فى التجارة السائب بن أبي السائب صيفي . تاجر معه قبل النبوة وقبل أن يتجر لخديجة ، وقد بقي حياً الى مابعد فتح مكة . فلما فتحها الرسول ، جاء السائب اليه وقال : « مرحباً بأخي وشريكي . كان لا يداري ولا يرائي ولا يماري » (٢) . وقيل : إن السائب المذكور هو السائب بن يزيد ، وقيل : إن السائب بن أبي السائب قتل يوم بدر كافراً ، وقيل : إنه كان من المؤلفة قلوبهم ، وقد أعطاه النبي يوم الجعرانة من غنائم حنين . وكان حكيم بن حزام في جملة من اشترى من الرسول ، اشترى منه بزاً من بز تهامة بسوق حباشة ، فقدم به مكة (٣) .

وقد عرف الرسول بالأمانة والصدق فى المعاملة ، ولكنه لم يكسب من عمله فى البيع والشراء مالا يذكر ، ولا ثروة تساعده وتساعد عمه أبا طالب في تمشية أموره . وقد كانت أحواله المالية قد ساءت ، ولم يعد يتمكن من اعالة أهله ، فذكر أهل الاخبار أنه فاتح محمداً في يوم من الأيام بهذا الوضع قائلا له : « يا ابن أخي ، أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان ، وألحت علينا ودامت سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة . وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في عيرانها ، فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع فلو جئتها فوضعت نفسك عليها ، لاسرعت عليك ، وفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وان كنت لأكره أن تأتي الشام

---

(١) السيرة الحلبية (١٦١/١) .

(٢) السيرة الحلبية « ٦ / ٦٦٦ » ، الامتاع « ٩/٦ » .

(٣) السيرة الحلبية (١٦٢/١ وما بعدها) ، الامتاع (٨/١) .

وأخاف عليك من يهود ، ولكن لا تجد لك من ذلك بدا » (١) فذهب الرسول اليها ، وتحدث معها ، فوافقت على أن يقوم بتجارتها الى بلاد الشأم .

ويفهم من رواية أخرى أن الذي ذهب الى خديجة فكلمها فى ذلك هو أبو طالب نفسه ، وأن الرسول كان فوضه بعد ما سمعه من عمه بالذهاب اليها وتحديثها فى الموضوع . فلما ذهب اليها وحدثها ، وافقت فى الحال لما سمعته عن محمد من العفة والصدق والأمانة والاستقامة فى المعاملات ، وقام الرسول بعمله خير قيام (٢) .

وورد فى رواية أن خديجة هي التي أرسلت الى محمد ، فكلمته فى موضوع قيامه بتجارتها ، لما سمعته من رغبته في العمل ، وخروجه مع قافلة قريش التي كانت قد أزمعت السفر الى بلاد الشأم ، وأنها قالت له لما اجتمع بها : « إنى دعاني الى البعثة اليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا اعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك . » ففعل محمد ، ولقي عمه أبا طالب ، فذكر له ذلك ، فقال : إن هذا لرزق ساقه الله اليك (٣) .

وكانت خديجة بنت خويلد ، وهي من بني أسد . امرأة ذات شرف في قومها ومال ، تاجرة ، تستأجر الرجال فى مالها يضاربون لها به بشيء تجعله لهم . وكانت قد تزوجت مرتين في بني مخزوم ، مما جعلها من أوفر أهل مكة غنى . وكان يساعدها فى تدبير مالها أبوها خويلد وبعض ذوي قرابتها ومن تثق بهم من الناس . ولثروتها هذه ولشرفها ومنزلتها فى قومها ، طمع فيها الطامعون ، فعرضوا عليها الزواج ، ولكنها رفضت لما علمته من طمع الرجال فى أموال المرأة قبل المرأة ، واقتنعت من حياتها بالتجارة تنميها وتعيش عليها ما بقيت حية حتى يقضي الله فيها أمره (٤) .

---

(١) السيرة الحلبية (١ /١٥٨) ، طبقات ابن سعد (١ /١١٩ وما بعدها) ، ابن سيد الناس (١ /٤٨ وما بعدها) .

(٢) سيرة ابن هشام « ٦ /٦٩٧ وما بعدها » ، البدء والتاريخ « ٤ /٦٦٧ وما بعدها » ، السيرة الحلبية « ٦ /٦٥٨ » .

(٣) السيرة الحلبيه « ٦ /٦٥٨ » ؛ طبقات ابن سعد « ٦ /٦٦٩ وما بعدها » .

(٤) الطبري « ٦ /٦٦٩ » « ذكر تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها » ، « خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب . وأمها فاطمة بنت زائدة بن جندب » ؛ نسب « ص ٦٦ » ؛ طبقات ابن سعد « ١ /٦٦٦٩ وما بعدها » .

وسر محمد بموافقة خديجة على تكليفها إياه هذا العمل الذي عاد عليه بأول رزق كتبه الله له ، وخرج مع ميسرة غلامها بأموالها وبتجارتها الى بلاد الشأم . ولما باع كل ماكان قد أرسلته معه ، عاد ببضاعة جديدة ، أمرت خديجة بشرائها لها ، وأعطته أجره . وكانت هذه التجارة السبب الذي وصل بين محمد وخديجة وربط بينهما برابطة الزواج (١) .

وورد في بعض كتب السير أن محمداً قام لخديجة بسفرة أو سفرتين أو أربع سفرات الى اليمن الى سوق حباشة أو الى جرش ، وذلك قبل قيامه بسفرته المشهورة الى بصري ، وأنه استصحب في احدى سفراته ميسرة غلام خديجة ، وصاحبه في سفرته الى بصري ؛ وتذكر أيضاً أنها دفعت له قلوصاً عن كل سفرة قام بها الى اليمن ، وأربع بكرات عن سفرته الى بلاد الشأم (٢) .

وورد أيضاً أنه لم يكن يتجر وحده بمال خديجة ، بل كان له معه شريك (٣) . وربطت هذه التجارة بين النبي وبين خديجة . فتذكر كتب السير أن خديجة لما رأت ما رأته من إخلاص محمد ومن أمانته وحسن تصرفه ، مالت اليه ، وفكرت في الزواج منه ، مع انها كانت أكبر سناً منه ، كانت في الاربعين من عمرها ، وكان هو في الخامسة والعشرين ، وأعربت عن رغبتها هذه لأختها على قول ، أو لصديقة لها تدعى نفيسة بنت منية على قول آخر ، وقد قامت نفيسة كما تقول هذه الكتب بوساطة الزواج . أما الذي زوجها ، فكان عمها عمر بن أسد ؛ لأن خويلداً كان قد مات قبل حرب الفجار . وتذكر

---

(١) ابن سيد الناس (٣٧/١ وما بعدها) .

(٧) « فذلك حين أرسلت خديجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعوه أن يخرج في تجارة الى سوق حباشة ، وبعث معه غلامها ميسرة . فخرجا فابتاعا بزاً من بز الجند وغيره مما فيها من التجارة ، ورجعا الى مكه فربحا ربحاً حسناً) ، الامتاع (٨ /٨٠) ، السيرة الحلبية (٧/٧٦٦) .

(٧) الروض الانف (١ /٧ ١) ؛ (فلما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغ اشده وليس له مال كبير ، استأجرته خديجة بنت خويلد الى سوق حباشة ، وهو سوق بتهامة ، واستأجرت معه رجلا آخر من قريش . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يحدث عنها ، ما رأيت من صاحبة لاجير خيراً من خديجة ما كنا نرجع أنا وصاحبي ، إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبؤه لنا) ، ابن سيد الناس (٧/ ٥٠) .

رواية أخرى أن خويلداً كان حياً ، وأنه لم يكن راضياً عن الزواج في بادىء الأمر ، ثم وافق عليه (١) . ولم تشر روايات أخرى الى معارضة خويلد لهذا الزواج (٢) .

وفي الرواية التي تزعم أن خويلداً كان حيا عند زواج النبي بخديجة ما يفيد أنه كان قد امتنع عن تزويج ابنته له ، بسبب فقر محمد ويتمه . فقد جاء في هذه الرواية أن خديجة كانت على علم بأن أبيها يرغب عن أن يزوجها له ، « فصنعت له طعاماً ، ودعت أباها ونفراً من قريش ، فطعموا وشربوا ، فلما سكر أبوها ، قالت له : إن محمد بن عبدالله يخطبني ، فزوجني إياه ، فزوجها ، فخلقته ، وألبسته ، لأن ذلك ، أي إلباس الحلة وجعل الخلوق به ، كان عادتهم . إن الأب يفعل به ذلك إذا زوج ابنته . فلما صحا من سكره ، قال : ما هـــذا ؟ قالت له خديجة : زوجتني من محمد بن عبدالله . قال : أنا أزوج يتيم أبي طالب الا لعمري! فقالت له خديجة : ألا تستحي ؟ تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبرهم أنك كنت سكران ، فلم تزل به حتى رضي» (٣) .

وفي رواية أن حمزة بن عبدالمطلب هو الذي دخل على خويلد بن أسد ، فخطبها منه ، وأنه وافق على ذلك . وذكر أن الرسول أصدقها عشرين بكرة . وفي رواية أخرى أن الذي توسط في هذا الزواج هو ميسرة غلام خديجة ، وقيل : مولاة لها مولدة (٤) .

وقد رفض محمد بن عمر الواقدي صاحب « الطبقات » خبر إسكار خديجـــة أباها من أجل أن تضمن موافقته على تزوجها بمحمد ، وقال : « فهذا كله عندنا غلط

---

(١) الطبري (١ / ١١٢٧ وما بعدها) ، ابن حجر : الإصابة (٣ / ١٣٠) ، ابن سعد (٨ / ٧ وما بعدها) ، سيرة ابن هشام (١/ ١١٩ وما بعدها ، ٥٣ وما بعدها) ، الأزرقي (ص ٤٦٣) ، سيرة ابن هشام (١ / ١٩٨ وما بعدها) « القاهرة ١٩٣٦ » ، طبقات ابن سعد (١ / ١٣١ وما بعدها .)
Shorter, P. 231 f., Sprenger, I, S. 194,
Caetani, Annali., I, 138. ff., 166, Lammens, Fatima, P. 12 Buhl, Das Leben, S. 118.

(٢) الطبري (٢ / ١٩٧) « ذكر تزويج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خديجة رضي الله عنها »، البدء والتأريخ (٤ / ١٣٨ وما بعدها) .

(٣) السيرة الحلبية (١ / ١٦٤) ، سيرة ابن هشام (١ / ١٩٨ وما بعدها) .

(٤) السيرة الحلبية (١ / ١٦٤) ، وتجد فيها معظم الروايات الواردة في هذا الباب ، سيرة ابن هشام (١/ ٢٠١) .

ووهل ، والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار ، وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » (١) . وهذا الرأي هو الراجح والصحيح عند أهل الأخبار ، وليس من الممكن ولا من المعقول لجوء امرأة بمنزلة خديجة في مثل أسرتها الى هذه الطريقة من إكراه أبيها على الموافقة على تزويجها من محمد . وقد كانت قد تزوجت من قبل وفي سن لا تؤهل والديها أو أياً كان من ذوي قرابتها للتدخل في شأن من شؤونها ، كما لا تعقل موافقة محمد وعمه أبي طالب على اللجوء الى هذه الطريقة التي تنافي آداب الأسر الكريمة (٢) .

وكان تزويج محمد بخديجة بعد مجيئه من الشام بشهرين أو خمسة عشر يوماً (٣) .

وورد أيضاً أن عمر خديجة كان يوم تزوجت خمساً وأربعين ، وقيل ثلاثين ، وقيل : ثماني وعشرين ، وقيل : خمساً وثلاثين ، وقيل : خمساً وعشرين (٤) . ولكن الأشهر والأعرف عند أهل السير هو ما ذكرته من أنها كانت في الأربعين .

كما ذكر في بعض الروايات أن عمر الرسول حين تزوج خديجة كان احدى وعشرين سنة ، وقيل : ثلاثين ، وقيل : سبعاً وثلاثين (٥) .

وكان زوج خديجة الأول أبو هالة بن زرارة التميمي ، وكان اسمه هنداً ومات في الجاهلية ، وقد ولدت له خديجة ولداً سماه هنداً كذلك ، وهو من الصحابة الذين شهدوا بدراً ، وقيل : أحداً . وهو صاحب خبر صفة الرسول . وقد قتل مع علي في يوم الجمل . وقيل : مات في الطاعون بالبصرة . وولدت له خديجة هالة بن أبي هالة ، وله صحبة أيضاً .

---

(١) طبقات ابن سعد (١ /١٣٣) ، ابن سيد الناس (١ / ٥٠) .

(٢) « وقد رد هذا القول بأن أباها توفى قبل الفجار » ، الامتاع (١ / ١١) .

(٣) السيرة الحلبية (١ /١٦٦) .

(٤) السيرة الحلبية (١ / ١٦٧) ، اسد الغابة (٥ / ٤٣٥) .

(٥) سيرة ابن هشام (١ / ١٩٨) ، حاشية رقم ٣) ، « طبعة القاهرة ١٩٣٦ » .

وبعد أن مات أبو هالة عن خديجة ، تزوجها عتيق بن عائذ «عابد» المخزومي ، وقد رزقت بنتاً منه هي هند . وقد أسلمت وصحبت [1] . وهي أم محمد بن صيفي المخزومي [2] .

وقد ولد لمحمد من خديجة جملة أولاد وبنات ، هم : القاسم ، وبه كان يكنى لأنه أكبر أولاده ، وقد مات طفلاً . وقيل : عاش الى أن ركب الدابة وسار على النجيبة . ثم زينب ، وقيل : هي أسن من القاسم . ثم رقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة . وقيل في كل واحدة منهن إنها أسن من أختيها . وروي أن رقية أسن الثلاث ، وأم كلثوم أصغرهن ، ثم ولد له عبدالله . وقد اختلف في وقت ولادته ، فقيل : ولد بعد النبوة ، وقيل : بل قبلها ، وقيل : إنه « الطيب » ، وقيل : إنه « الطاهر » ، وقيل : بل هو غيرهما . ويرى بعض أهل الأخبار أنهما لقبان له [3] .

---

(١) السيرة الحلبية (١ / ١٦٧) ، سيرة ابن هشام (١ / ١٩٨) « حاشية رقم ٤١ » ، « وكانت خديجة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت ابي هالة بن زرارة ... كل ذلك ذكره الزبير . وهذا عكس ما نقله أبو عمرو عن الزبير ، فان ابا عمر « نقل عن الزبير أنها كانت عند أبي هالة اولاً ثم بعده عند عتيق . ونقل أبو نعيم عن الزبير ، فقدم عتيقاً على ابي هالة ، وأما الذي رويناه في نسب قريش للزبير : قال : وكانت يعني خديجة قبل النبي صلى الله عليه وسلم عند عتيق بن عائد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، فولدت له جارية . وهلك عنها عتيق فتزوجها أبو هالة . . . وبعض الناس يقول : ابو هالة قبل عتيق . . . » اسد الغابة (٥ / ٤٣٤ وما بعدها) .

(٢) السيرة الحلبية (١ / ١٦٧) ، « تزوجت خديجة بنت خويلد بن أسد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين . الأول منهما : عتيق بن عايذ بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، فولدت له جارية ، وهي ام محمد بن صيفي المخزومي ، ثم خلف على خديجة بعد عتيق بن عايذ ، أبو هالة التميمي ، وهو من بني أسيد بن عمرو . فولدت له هند بن هند . كذا وقع في هذه الرواية عتيق بن عايذ . والصواب عابد بالباء . قاله الزبير . وسمى الجارية التي ولدتها منه هنداً . وأسم أبي هالة : هند بن زرارة بن النباش بن غذي بن خبيب بن صرد بن سلامة بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم فيما رويناه عن الدولابي » ، ابن سيد الناس (١ / ٥٠ وما بعدها) .

(٣) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد (١ / ٢٥) ، نسب (ص ٢١) ، « فأما القاسم والطاهر والطيب ، فهلكوا في الجاهلية » ، الطبري (٢ / ١٩٧) « ذكر تزويج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خديجة رضي الله عنها » ، الروض الأنف (١ / ١٢٣) ، سيرة ابن هشام (١ / ٢٠٢) ، طبقات ابن سعد (١ / ١٣٣ وما بعدها) ، ابن سيد الناس (٢ / ٢٨٨ وما بعدها) ، البدء والتاريخ (٤ / ١٣٩) .

وانتقل الرسول بعد زواجه بخديجة الى بيتها ، وقد عرف في الاسلام بمنزل خديجة . وكان معاوية قد اشتراه ، فجعله مسجداً يصلي فيه الناس . وكان على باب البيت عن يسار من يدخل البيت حجر كان الرسول يجلس تحته يستتر به من الرمي إذا جاءه من دار أبي لهب ودار عدي بن حمراء الثقفي خلف دار ابن علقمة . والحجر ذراع وشبر في ذراع (١) . وتقع الدار في المناطق الراقية من مكة . ولم يكن يعكر صفوه منها غير جيرته الذين أخذوا يؤذونه بعد جهر النبي الدعوة الى الاسلام (٢) .

لقد أسعد هذا الزواج الرسول وأراحه ، وعاش الزوجان عيشة هانئة : ترعاه خديجة وتهيء له كل وسائل الراحة ، مما يسر له التفكير في الخالق وفي الكون وفي حالة الناس في أيامه ، وما كانوا عليه من ضلال في الدين ، ومن فوضى في الحياة في مختلف نواحيها . يجالس مختلف الطبقات ، ولا سيما الطبقات الضعيفة الفقيرة ، وذي الفاقة والحاجات ، وهم الأكثرية والغالبية العظمى ، يسمع منهم ، ويرى سوء حالهم ، وقد خبر هو نفسه حالة الانسان حين يكون يتيماً ، وحين يولد فقيراً . ومن هنا نجد مصدر عطفه على اليتامى والفقراء ودفاعه عنهم دفاعاً لم يرد مثله في أي دين من الأديان .

كانت المدة التي قضاها الرسول مع خديجة من أحلى أيام الرسول ، ظلت ذكراها عالقة بذهنه ، فلم ينسها ، حتى انتقل الى الرفيق الأعلى . أخلصت خديجة له ، وأمعنت في خدمته ، وأحبته ، فكيف لا يتذكرها بعد وفاتها ؟ ومن دلائل حبه لها وتعلقه بها أنه لم يتزوج امرأة أخرى في حياتها ، ولم يفكر في امرأة سواها وأنه ظل يذكرها بعد وفاتها ويترحم عليها . روي عن عائشة انها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوماً من الأيام ، فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها ! فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ، ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت

---

(١) الطبري (٢ / ١٩٧ وما بعدها) « ذكر تزويج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خديجة رضي الله عنها » .

(٢) Sprenger, I, S. 152.

إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني فى مالها ، إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني اولاد النساء . قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بسيئة أبداً . . » (١) .

وكان محمد فى الخامسة والثلاثين من العمر ، أو في الخامسة والعشرين يوم أعادت قريش بناء الكعبة لتصدع حدث فى جدرانها على أثر سيل عظيم . وهو الذي وضع الحجر الأسود فى مكانه فى احتفال كبير مهيب (٢) .

وقد ورد فى بعض الروايات أن الرسول كان غلاماً حيث هدمت الكعبة ، فكان ينقل الحجارة مع الناقلين (٣) ، أي انه كان دون العمر المذكور .

هيأت خديجة لزوجها كل أسباب الراحة ، وشعر الرسول بالسعادة والراحة ، له زوج صالحة ، وله بيت ساقه الله اليه ، وله مال من زوجه هذه يكفيه . ثم إنه رجل قانع لا يميل الى متاع الدنيا ، ولا يرغب في النعيم ، لولا حادث كدر صفوه ، وأثر فيه كثيراً كما أثر في خديجة أيضاً ، هو وفاة ابنهما البكر القاسم ، مات قبل المبعث ، ثم وفاة ابنهما الآخر عبدالله قبل النبوة على رواية . وقد كانا الولدين الوحيدين اللذين رزقهما النبي من خديجة . ولما نعرفه من أهمية الولد عند العرب ، ندرك مبلغ حزن الرسول وخديجة على الحادثين ، ومقدار تأثرهما به .

والغريب أن الولد الثالث الذي رزقه الرسول من سريته مارية القبطيه ، وهو ابراهيم الذي ولد له بالمدينة سنة ثمان من الهجرة ، لم يعش أيضاً ، إذ توفي وهو طفل قبل الفطام (٤) ، وحرم محمد بوفاته كل ولد ذكر .

---

(١) أسد الغابة (٥ / ٤٣٨ وما بعدها) .

(٢) خبر هدم الكعبة واعادة بنيانها واختلاف قريش في ذلك في تاريخ الطبري (٢ / ١٩٨) ، ابن هشام (١ / ٢٠٤ وما بعدها) ، ابن سعد (١ / ١٤٥ وما بعدها) ، الروض الأنف (١ / ١٢٧) ، الحلبية (١ / ١٧٢) ، ابن سيد الناس (١ / ٥٢) .

(٣) أخبار مكة (ص ١٢٤) .

(٤) السيرة الحلبية (١ / ٢٥) ، نسب (ص ٢١) .

ولم تتحدث كتب السير عن تجارة الرسول قبيل نزول الوحي عليه ، ولم تتحدث عن قيامه برحلات تجارية الى خارج مكة كذلك في هذا الوقت . وليس في هذه الكتب أي خبر يفيد ذهاب الرسول الى الحبشة وعبوره البحـــر الاحمر أو ركوبه البحر ، لا قبل هذه الايام ولا بعدها . والظاهر أن تغلب حب الخلوة عليه قبيل نزول الوحي قد حمله على الاكتفاء بما قد جمعه هو وبما جمعته خديجة من تجارتها ، فلم يذهب الى الأسواق البعيدة النائية ، ولا الى الاسواق المحلية يقضي وقته فيها على عادة التجار ، بل اكتفى بتجارة خفيفة ، وربمـا اكتفى بالاشراف على ادارة أموال زوجـه أيضاً . وبذلك هيأ نفسه للتفكير فى الخالق وفي الكون وفي التفكير في أحوال قومه وفيما كانوا عليه . ولو انصرف الى التجارة وتعاون مع زوجه خديجة فى تنمية ثروتها والمضاربة بأموالها ، لصار له شأن يذكر بين التجار ، ولصار له مال وثراء ، ولم يذكر احد أنه حاز على هذه الثروة أو انه طمع فيها ولا سعى وراء المال والثراء ، لا قبل نزول الوحي عليه ولا بعد نزوله .

وقد كان بين من أسلم وآمن بالله نفر كانت ثروتهم تفوق ما كان عند الرسول وتزيد عليها أضعافاً مضاعفة ، فساعدوا الرسول بأموالهم في إبلاغ الناس رسالته وفي مساعدة الفقراء وفى تحرير الرقاب ، لم يبالوا بما بذلوه من جهد سابق في تحصيلها ولا من نصب فى جمعها ، ولم يفكروا فى ضياعها وفي خروجها منهم ، ذلك لاعتقادهم بعد دخولهم فى الإسلام أن الثروة عرض ، وأن الايمان جوهر أثمن من المال ومن متاع هذه الدنيا الفانية ، فجادوا بما جمعوه ، وتباروا به في نشر الاسلام .

وقد كانت قريش جماعة تجارة ، أفرادها تجار ، ومجتمعها مجتمع تجارة ومال ، حتى الكعبة وما يتعلق بها جعلتها مكسباً وتجارة تستغلها . عملت كل ما في إمكانها لتهيئة جميع وسائل الراحة لمن يقصد مكة للحج فى المواسم وللطواف فى غير المواسم المقررة . ولهذا نجد القرآن الكريم يخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها ، وبالمصطلحات التي كانوا يستعملونها ، فقد وردت فيه مصطلحات يفرط التاجر فى استعمالها في حياته التجارية ، مثل : تجارة ، وخسرت ، وخسر ، وربح ، وربا ، ويقرض ، وقرضاً حسناً ، ورحلة

الشتاء ، ورحلة الصيف ، ورزق ، وقسط ، ووزن ، وقسطاس ، وقسمة ، وأمثال ذلك وردت فى آيات يفهمها التاجر ويدركها بكل سهولة .

لم يكن في طبع محمد وسجيته ميل الى لهو وعبث ، فلم يقع له ما يقع فيه لداته من ارتياد مجالس الأنس والطرب . وقد كان ينفر من الغناء والموسيقى ، فلم يحضر حتى مجـالس الطرب التي تقام فى الأفراح وتحييها القيان ، ويغنى فيهـا المغنون . ذكر أنه أراد مرة أن يسمر بمكة كما يسمر الفتيان ، وكان بأعلى مكة يرعى الغنم ، فقال لفتى من قريش كان معه : أبصر لي غنمي ، حتي أسمر هذه الليلة كما يسمر الفتيان ، فوافق . وجاء الى مكة ، فلما بلغ أدنى دار من دور مكة ، سمع غناء وصوت دفوف ومزامير ، وكان فيها عرس ، فلها بذلك الغناء وبذلك الصوت ، حتى غلبه النعاس ، فنام ولم يوقظه إلا مس الشمس له . وأراد مرة أخرى أن يسمر ، ولكنه لم يفعل أكثر مما فعله هذه المرة . وذكر أن الرسول قال : « والله ، ما هممت بغيرهما بسوء مما يعمله أهل الجاهلية ، حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته » (١) .

ولم يكن يميل الى مخالطة الناس كثيراً . ولا الاجتماع بأقرانه طويلا : لشغفه بالوحدة وجنوحه الى الخلوة ، حتى أعياد قومه لم يكن يرغب في حضورها وشهودها . وطالما حثه عمه أبو طالب وعماته على مشاركته قومه أفراحهم في أعيادهم ، ولكنه كان يجد مشقة وصعوبة فى الاستجابة لطلبهم ويعتذر اليهم عن حضورها . ذكر عن « أم أيمن » انها قالت : كان بوانة صنماً تحضره قريش وتعظمه وتنسك له وتحلق عنده وتعكف عليه يوماً الى الليل في كل سنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ، ويكلم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يحضر ذلك العيد معهم ، فيأبى ذلك . قالت : حين رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ؛ ويقلن : ما تريد - يا محمد - أن تحضر لقومك عيداً ، ولا تكثر لهم جمعاً ؟ فلم يزالوا به ، حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع مرعوباً فزعاً ، فقلنا : ما دهاك ؟ قال : إني أخشى أن يكون بي لمم . فقلنا : ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان ، وكان فيك من خصال الخير ما كان ، فما الذي

---

(١) عيون الأثر (١ / ٤٤ وما بعدها) .

رأيت؟ قال: إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل، يصيح بي: وراءك يا محمد، لا تمسه! قالت: فما عاد الى عيد لهم، حتى تنبأ » (١).

ووصف الرسول أحد من رآه وشاهده بالكلمات الآتية: « ولم أر منه ولا ضحكا، ولا جاهلية، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون » (٢). وكذلك كان وصف الآخرين ممن شاهدوه منطبقاً على هذا الوصف: تأمل وتفكير، وهدوء، وميل الى الانزواء والابتعاد عن الأعمال التي يقوم بها لداته ممن هم في عمره، وهجر لجاهلية الجاهليين تام.

انصرف الرسول بعد زواجه الى التفكير فى خلق السماوات والأرض وفي الخالق وفي أحوال قومه، لقد تغلب هذا التفكير عليه وزاد كلما تقدم في السن، حتى دفعه الى اعتزال الناس والابتعاد عنهم خارج مكة، ليكون في خلوته هذه بعيداً عن المزعجات والمضايقات، منصرفاً الى التفكير انصرافاً تاماً، وصارت هذه الخلوة أحب شيء اليه (٣). فطالت ساعاتها واتسع وقتها، وظل يواظب عليها الى إبلاغ الناس رسالته.

وقد حمله تفكيره هذا في خلق السماوات والأرض وفي أحوال قومه على السهر في الليالي، ولاسيما في أواخرها متأملاً الخلق، ناظراً الى السماء فاحصاً مافيها، ناظراً اليها نظرة تدقيق وإعجاب، باحثاً عن القوة المهيمنة عليها والخالق الذي أوجدها والنظام البديع المسير لها. دأب على ذلك قبل الوحي، واستمر عليه مضيفاً اليه الصلاة في الاسلام.

لقد كان الرسول يشعر قبل نبوته أن عليه رسالة وواجباً تجاه قومه، وأن له رأياً يختلف عن رأي قومه فى كثير من الأمور. وكان كلما تقدم فى السن ازداد شعوره بذلك، وازداد يقيناً برسالته هذه وبوجوب هداية قومه وارشادهم، وهذا الشعور هو الذي حمله على التحنث والانزواء عن الناس والابتعاد عن عبادة الأصنام وعدم مشاركة قومه في احتفالاتهم بأعيادهم، لما لها من علاقة بالوثنية والأوثان.

---

(١) عيون الأثر (١ / ٤٥).

(٢) تفسير روح المعاني (٣٠ / ١٦١ وما بعدها).

(٣) « وحبت اليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب اليه منها »، طبقات ابن سعد (١ / ١٩٤) « طبعة بيروت ».

هذا كل مانعرفه عن حياة النبي منذ ولد الى يوم نزل الوحي عليه ، وهو يوم بلوغه الأربعين من عمره ، وهي مدة تساوي ثلثي عمر الرسول . وقد أخذنا كل ذلك من كتب الحديث والأخبار والسير . أما القرآن الكريم ، فلم يتعرض لحياته في هذه المدة إلا ما ورد في سورة الضحى :

« والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجــدك عائلاً فأغنى ؟ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث . »

وكل ماورد في هذه الموارد هو روايات شفوية بنيت على الرؤية والسماع . وطبيعة هذا النوع من الرواية ، تجعل من الصعب على الرواة المحافظة على ماسمعوه وأخذوه ، ولاسيما في الأمور التي تحتاج الى ضبط فى مثل الأيام والأشهر والسنين . ولهذا نجد في السير والتواريخ اختلافاً بين الرواة يظهر على الأكثر في ضبط الأيام والأشهر والسنين . وسنرى أمثلة عديدة من ذلك في الفصول الآتية . وما كان يقع ذلك ، ولا شك ، لو أن تلك الروايات دونت فى أيام الرسول ، أو الأيام القريبة منه .

ومرد الاختلاف الذي رأيناه فى ضبط الأيام والسنين الى عدم تدوين تواريخ الميلاد في ذلك العهد ، والى عدم اهتمام الانسان بضبط أيام طفولته وشبابه في الغالب ، ولجوء الأخباريين الى أشخاص عديدين فى معرفة أخبار الرسول . وقد أخذ هؤلاء علمهم شفاهاً ورواية ، ومن أناس متعددين رجالاً ونساء ، ولهذا تعددت الروايات واختلفت الأقوال في موضوع التواريخ بصورة خاصة ، وقلما تتمكن الذاكرة من ضبطها ضبطاً تاماً . ثم إن حياة الرسول قبل النبوة ، لم تكن ذات صلة بكثير من الناس ، وكانت ذات وتيرة واحدة ، تغلب عليها العزلة والانزواء والانطواء والتأمل ، وحياة مثل هذه . وفى هذا الدور من حياة الانسان لايمكن بالطبع أن تعي منها الذاكرة شيئاً كثيراً .

وأما مابعد ذلك ، فسيرة الرسول واضحة مفصلة ، ثبتها القرآن الكريم ، وثبتها الصحابة الذين لازموا الرسول وشهدوا معه الأحداث والمواقع ، ولاسيما اولئك الذين كانوا يلازمونه فلا يفارقونه في غالب الأحيان . وسيرة الرسول في هذا العهد هي مبدأ

تأريخ الاسلام ، وتأريخ نشوئه ، وهي في دورين بالطبع دور مكة ، ثم دور يثرب مدينة الرسول بعد هجرته ومثواه الأخير .

وسيرة الرسول هذه على ايجازها واختصارها ، أوضح وأصح صورة وردت عن حياة رسول من الرسل ونبي من الأنبياء . وردت في القرآن الكريم ، على خلاف مانجده في الكتب السماوية وفي الكتب المقدسة الأخرى . سيرة انسان ولد إنساناً كما يولد سائر الناس ، وعاش مثل غيره ، ومات كما يموت الآخرون .

الفصل الرابع

محمد رسول الله

تعد السنة الأربعون ، أو حوالي هذه السنة من حياة محمد ، سنة مهمة جداً في تأريخ العرب والاسلام والعالم . ففي هذه السنة نزل الوحي عليه ، مبلغاً اياه بأنه رسول الله رب العالمين الى العالم أجمعين ، وأن عليه إبلاغ رسالته للناس ونشر دعوته بينهم (١). وتصادف هذه السنة سنة ٦١٠ تقريباً للميلاد .

وقد كان ذلك في ملك كسرى أبرويز ، وعلى الحيرة إياس بن قبيصة الطائي (٢).

ويعد المسلمون السنة الأربعين من حياة الانسان سنة الكمال والنضج وبلوغ العقل نهايته من الصفاء والوضوح ، وهي سنة النبوة في حياة الأنبياء (٣).

وما ذكرته عن نزول الوحي عليه ، وهو في الأربعين من العمر ، هو رأي أكثر أهل السير والأخبار . غير أن هنالك روايات أخرى ذكرها الطبري وغيره ، تخالف هذه الرواية المألوفة فهناك خبر يتصل سنده بابن عباس ذكر فيه أن الرسول نبيء حين نبيء وهو ابن ثلاث وأربعين سنة (٤).

---

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، للحسين بن المبارك الزبيدي ، (١ / ٦٢) « باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم » .

(٢) البلاذري (١ / ١٠٣ وما بعدها) .

(٣) « بعثه الله على رأس أربعين ، وهي رأس الكمال . قيل : ولها تبعث الرسل . وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع الى السماء ، وله ثلاث وثلاثون سنة ؛ فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير اليه . » ، ابن قيم الجوزية : زاد المعاد (١ / ١٩) .

(٤) الطبري (٢ / ٢٠١ وما بعدها) ، امتاع الأسماع (١ / ١٣) ، تأريخ الاسلام ، للذهبي (١ / ٦٩) .

وأما كيفية ابتداء نزول الوحي عليه ، فكانت على ما تقوله رواية عن عائشة على هذا النحو :

« أول ما بدىء به صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه . وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك ، فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى « فغتنى » حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى . فقال : اقرأ : فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى ، فغطنى « فغتنى » الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ : فقلت : ما أنا بقارىء . فغطنى « فغتنى » الثالثة ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم . فرجع بها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملوني . زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع » (١). فكان هذا أول الوحي . وكانت هذه الآيات أول القرآن .

ولم تشر روايات عن ابن عباس وعن جابر بن عبدالله وعن غيره الى نزول شيء من القرآن على الرسول فى المرة الأولى التي ظهر فيها جبريل للرسول ، بل تذكر أنه « بينا رسول الله بأجياد إذ رأى ملكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى فى أفق السماء يصيح : يا محمد ، أنا جبريل ، يا محمد ، أنا جبريل . فذعر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من ذلك ، وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء ، فرجع سريعاً الى خديجة ، فأخبرها خبره ، وقال : يا خديجة ، والله ، ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط ولا الكهان ، وإني لأخشى ، أن أكون كاهناً » (٢). فطمأنته خديجة ، وهدأت من روعه ،

---

(١) التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح ، للزبيدي (١ / ٤) ، « باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، سيرة ابن هشام (١ / ٢٥٢) ، « طبعة البابي » ، الطبري (٢ / ٢٠٣ وما بعدها) ، أخبار مكة (ص ٤٢٦ وما بعدها) ، « طبعة لايبزك » ، عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، لابن سيد الناس (١ / ٨٤ وما بعدها) ، القاهرة ١٣٥٦ هـ ، السيرة الحلبية (١ / ٢٧٢) ، تأريخ الاسلام ، للذهبي (١ / ٦٩) .

(٢) طبقات ابن سعد (١ / ٩٤ وما بعدها) ، « طبعة بيروت » .

وشجعته ، ثم ذهبت الى ورقة لتسأله الخبر على نحو ما ورد فى بقية الروايات .

وهناك روايات تفيد أن الوحي نزل على الرسول ، وهو نائم فى غار حراء (١).
ولكن أكثر أهل الأخبار على أنه كان فى يقظة ، لأن الوحي بالنبوة لا يمكن أن يكون فى حالة نوم . ثم إنه لا يختلف فى هـذه الحالة عن الرؤيا التي تظهر للأشخاص فى أثناء النوم .

والوحي فى تعريف العلماء ، هو الكلمة الالهية التي تلقى الى أنبيائه ورسله وأوليائه ، وذلك إما برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبي في صورة معينة ، أي بتنزيل ، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى كلام الله ، وإما بالقاء في الروع ، وإما بالهام ، وإما بتسخير ، وإما برؤيا (٢). وعقيدة الوحي ، معروفة عند النصارى وعند اليهود قبلهم . وهو عندهم على درجات أيضاً (٣). وهو (اوحى Aohy) فى العبرانية والارمية و (وحي Wahaya) فى الحبشية (٤).

والوحي كلام الله ، انزل على رسوله ، وهو القرآن الكريم الذي حفظه الرسول عن جبريل وألقاه الى المسلمين ، فهو كتاب الله . وكذلك اعتقد اليهود أن الوحي هو كلام يهوه أوحي الى أنبيائه ، فكتبهم هي [كتب يهوه Jahve Zebaoth] (٥).

وقد كان الجاهليون كما سنرى يعتقدون بالالهام ، وبالتكليم من السماء . فقد كان الكاهن ملهماً فى نظرهم ، يتلقى إلهامه من « تابع » أو « رئي » يلقي اليه الغيب ، كما كان للشاعر شيطان يوحي اليه القول . واعتقدوا بتكليم السماء للانسان ، فقد ذكر أن قريشاً كانوا اذا مر بهم النبي « فى مجالسهم يشـيرون اليه ، ويقولون : غلام بني عبدالمطلب ، يكلم من السماء » (٦) . وان قالوها هزءاً به واستخفافاً .

---

(١) « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب.. فقرأته ، ثم انتهى ، ثم انصرف عني ، وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاباً » ، الطبري (٢ / ٢٠٧) .

(٢) المفردات (ص ٥٢٦) ، Noldeke, I, S. 21, Goldziher, Muh. Stud., II, 7. Dictionory of Islam, P. 213. f.

(٣) Hastings, P. 383.

(٤) Handwoterbuch, S. 764, Fraenkel, Aram. Fremdworter, S. 245.

(٥) Noldeke, I, S. 5.

(٦) البلاذري (١ / ١١٥) ، Noldeke, I, S. I.

ويرى بعض العلماء أن الوحي حينما نزل على الرسول ، إنما نزل عليه بادىء بدء بالنبوة فصار نبي قومه ، ثم نزل الوحي عليه في السنة الرابعه من الوحي بالرسالة ، فصار رسولاً الى الناس أجمعين . واستمرت رسالته عشرين سنة أو تسع عشرة سنة ، وتكون بذلك مدة نبوته ورسالته ثلاثاً وعشرين سنة . وهذا الرأي هو رأي العلماء المتأخرين ، وليس في القرآن الكريم وفي كتب الحديث مايشير اليه .

والذي يظهر من تتبع ورود لفظة « النبي » والألفاظ المتعلقة بها ، ولفظة « الرسول » وما يتعلق بها من ألفاظ ، في القرآن الكريم . أن لفظة « رسول » قد وردت أول مرة في سورة « المزمل » [1] ، وسورة المزمل من السور المكية القديمة التي نزلت في الدور الأول من أدوار نزول الوحي على الرسول . ولفظة الرسول هي وأخواتها في المعنى ، من الألفاظ العربية الأصيلة ، وقد وردت في هذه السورة بفكرة مبعوث ومرسل برسالة الى قوم . أما لفظة « النبي » و « نبي » وما اليها من بقية ألفاظ ، فقد جاءت في سور مكية كذلك . ولكنها لم ترد في السورة المذكورة ولا في السور الأخرى التي نص العلماء على أنها من السور المكية القديمة التي نزلت في السنين الأولى من الوحي ، بل في سور متأخرة عنها . ولهذا قلت : إن الرأي المذكور الذي يذكر أن السنين الأولى الثلاث من نزول الوحي كانت نبوة والسنين الباقية هي رسالة ، هو رأي متأخر قال به علماء متأخرون . قالوا به على مايظهر بعد توسعهم في العلوم ، ووقوفهم على معنى النبوة عند أهل الكتاب . وتخصص لفظة « نبي » عند اليهود بأنبيائهم الذين جاءوا خاصة الى بني اسرائيل . فذهبوا الى هذا التفريق ، لأن النبوة في الاسلام هي أوسع من مراد النبوة في اصطلاح أحبار يهود . فذهبوا من أجل هذا الى أن الوحي حينما نزل ، إنما نزل بالنبوة في بادىء الأمر ، ثم بالرسالة بعد توسع الدعوة وشمولها أهل مكة وغير مكة من العرب ثم شمولها العرب والعجم على حد سواء .

وقد كان الرسول نذيراً وبشيراً لقومه ، ولذلك دعي بـ « النذير » وبـ « البشير » في القرآن الكريم ، في سور مكية ومدنية . وقد عبر عن الرسل بـ « منذرين » أيضاً وبـ « مبشرين » ؛ لأن الرسول لم يكن مخوفاً ، ينذر الناس بعذاب أليم ، بل هو مبشر

(١) الآية ١٥ وما بعدها .

لهم أيضاً ، يبشرهم بالحق وبما يصلح الانسان . ومن هنا نجد فى السور المكية الأولى إنذاراً للمشركين بعذاب أليم ، وبنار لاتترك ولا تذر ، لواحة للبشر ، وذلك لعنادهم ولمقاومتهم الدعوة الى الحق . ونجد فيها تبشيراً للمؤمنين برحمة وبنعيم مقيم . وكلما قاومت قريش الاسلام واشتطت فى ايذائها للمسلمين ، اشتد الوحي في انذارها بمصير يشبه مصير ثمود وقوم لوط والعاصين الماضين ، وبعذاب فى الآخرة بعد الموت .

وذكر بعض العلماء : أن أول مانزل من القرآن ، هو « اقرأ » . وبهذا النزول ابتدأت النبوة (١) . ولم ينزل بعد آيات « اقرأ » من الآيات شيء الى ثلاث سنين (٢) . ثم نزلت المدثر ، أو المزمل ؛ بعد ثلاث سنين ، فكانت أول مانزل للرسالة (٣) . وهم يقصدون بذلك عدم نزول شيء من القرآن مدة السنوات الثلاث التي تحدثنا عنها ، أي مدة الاستخفاء ، فيجعلون بذلك فترة انقطاع الوحي وفترة الاستخفاء شيئاً واحداً . فلما نزلت المدثر ، استمر الوحي عليه ، يأتيه منجماً طيلة هذه المدة التي تلت النبوة ، ومدتها عشرون عاماً .

وقد اختلف في اليوم الذي نزل فيه « جبريل » على الرسول بالوحي ، كما اختلف في ضبط اسم اليوم ، فقيل : انه كان في ليلة السابع عشر من شهر رمضان ، وقيل : رابع عشر منه ، وقيل : لأربع وعشرين ليلة خلت من شهر رمضان ، وقيل : كان ذلك ليلة ثمان من شهر ربيع الأول ، وقيل : إنه ليلة أو يوم السابع والعشرين من شهر رجب (٤) . ثم قيل : إنه السبت ، وقيل : إنه الأحد وقيل : إنه الاثنين ، الى غير ذلك من روايات (٥) .

وإذا جاز وقوع الاختلاف في اليوم ، فانه لا يجوز الاختلاف في الشهر ، ذلك

---

(١) السيوطي الاتقان (١ / ٤٠) .
(٢) الزنجاني ، تأريخ القرآن (ص ٩) .
(٣) الاتقان (١ / ٤٠) .
(٤) « عن ابن عباس قال : نبيء نبيكم ، صلى الله عليه وسلم ؛ يوم الاثنين » ، طبقات ابن سعد (١ / ١٩٣ وما بعدها) « طبعة بيروت » ، السيرة الحلبية (١ / ٢٧٢) ، عيون الاثر (١ / ٨٨) .
(٥) الطبري (٢ / ٢٠٣ وما بعدها) ، امتاع الاسماع (١ / ١٤) .

لأن الاختلاف فيه معناه معارضة صريحة للقرآن الكريم . فقد نص في سورة البقرة عليه فى هذه الآية : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » (١) . وورد في سورة القدر : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » (٢) . وتقع ليلة القدر فى شهر رمضان (٣) . ولما كان الوحي قد نزل مع القرآن ، فيجب ان يكون نزول الوحي في شهر رمضان إذن .

ثم إن أصحاب الأخبار يشيرون الى أن الرسول كان يتحنث في غار حراء فى كل سنة أياماً أو شهراً كاملاً ، وكان ذلك الشهر كما يذكرون هو شهر رمضان يتحنث على عادة المتحنثين من أهل الجاهلية ، أو من أهل قريش . ولما كان الوحي قد نزل عليه في اثناء تحنثه كما يذكر أهل الأخبار ، فيجب أن يكون نزول الوحي عليه اذن فى هذا الشهر الذي هو شهر رمضان .

والظاهر أن الذين قالوا أنه نزل في شهر ربيع الأول أو فى شهر رجب ، إنما أخذوا قولهم هذا من أحاديث متأخرة ، رويت من دون مناقشة مع تعارضها صراحة مع ما ورد فى القرآن عن نزوله فى شهر رمضان . وقد نشأ خطؤهم هذا فيما أرى من سهو حدث من بحث أهل الأخبار والسير عن وصف كيفية نزول الوحي على الرسول في مكان ، وعن نزول القرآن في موضع آخر ، واقحامهم تلك الاحاديث فى فصل نزول الوحي على الرسول .

وأما المكان الذي سمع فيه النبي صوت الوحي ، فكان غاراً في خارج مكة ، على مسافة فرسخين من شمالها ، عرف بـ « غار حراء » . كان النبي يخرج اليه يتحنث ، يبقى فيه اياماً لا يرى أحداً ولا يتصل به انسان . وكان خروجه الى هذا الموضع عادة ظهرت له كما يفهم من الأخبار بعد زواجه بخديجة وقبل بلوغه سن الأربعين ونزول الوحي عليه (٤) .

---

(١) البقرة ، الآية ١٨٥ .

(٢) القدر ، الآية ١ .

(٣) ابن هشام (١ / ٢٥٦) .

(٤) السيرة الحلبية (١ / ٢٧١) .

وتذكر بعض الروايات أن الرسول كان يجاور فى حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنثت به قريش فى الجاهلية . وكان يطعم من جاءه من المساكين ، فاذا قضى جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة ، قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله ذلك ، ثم يرجع الى بيته ، حتى إذا كان الشهر من السنة عاد الى جواره (١) .

ويفهم من هذه الروايات أنه كان يذهب وحده الى الغار ، فلا يأخذ زوجه خديجة معه ، لينصرف الى التفكر والتأمل انصرافاً كلياً ، وأنه كان يأخذ معه من الزاد ما يكفيه لتلك المدة ، وكان زاده الكعك والزيت . وقد ينضب ذلك قبل انقضاء الشهر فيترك عندئذ الغار الى بيته ، ليأتي بزاد جديد يكفيه للمدة الباقية . وكانت هذه الخلوة من أحب الأيام اليه . ينقطع فيها عن الناس وعن اشغال الدنيا . وكان يطعم من يرد الى الغار من الناس (٢) .

وهناك روايات أخرى تفيد أنه كان يأخذ عياله معه أيضاً ، أي خديجة ، إما مع أولاده وإما بدونهم (٣) . وهي روايات تتعارض مع فكرة التحنث والانزواء والخلوة ، ومع ما ذكر من أنه كان يقصد مكة فى أيام نقص طعامه ليذهب الى خديجة ليتزود منها بالطعام ، ومع الأحاديث التي تذكر صراحة أنه كان وحيداً في الغار وعلى عادته في كل مرة يوم ، ظهر الوحي عليه ، وأنه ذهب عندئذ مذعوراً خائفاً الى خديجة حيث قص الذي حدث له عليها ، فذهبت هي الى ورقة ، فحدثته بالذي كان .

وفي بعض الروايات أن عادة التحنث فى غار حراء ، إنما سنها عبدالمطلب جد النبي ، وكان أول من تحنث فى هذا المكان شهراً من كل عام . وكان ذلك الشهر هو شهر رمضان . فكان إذا دخل هذا الشهر ، صعد حراء ، وأطعم المساكين . ثم تبعه على ذلك من كان يتأله ويتعبد ، كورقة بن نوفل وأبي أمية بن المغيرة (٤) فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر (٥) .

---

(١) الطبري (٢ / ٢٠٦) ، ابن هشام (١ / ٢٥١) « طبعة البابي » .
(٢) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٠ وما بعدها) .
(٣) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٢) .
(٤) السيرة الحلبية (١ / ٢٧١) ، « وكان « أي عبدالمطلب » أول من تحنث بحراء » ، البلاذري (١ / ٨٤) .
(٥) البلاذري (١ / ٨٤) .

وجاء في بعض الروايات : « كانت قريش إذا دخل رمضان ، خرج من يريد التحنث منها الى حراء ، فيقيم فيه شهراً ، ويطعم من يأتيه من المساكين . حتى إذا رأوا هلال شوال ، لم يدخل الرجل على أهله حتى يطوف بالبيت أسبوعاً فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يفعل ذلك » [1]. ويذكرون أن التحنث : التبرر [2].

واذا صحت روايات أهل الأخبار عن عادة التحنث في هذا الشهر ، شهر رمضان ، فانها تدل على احترام الجاهليين له ، واعتقادهم بوجود خاصية وحرمة وميزة له . أو احترام بعض الجاهليين ، وهم الأحناف ، له ، واعتكافهم فيه على عادة الناسكين والزهاد في الانزواء في أماكن خلوة ، بعيدة عن الناس ، ليكونوا بذلك في خلوة تامة ، لا صلة لهم بالعالم وبالناس ، فلا يصرفهم صارف عن التفكير في الخلق وفي العالم . ولا يعقل اختيار الجاهليين لشهر رمضان من بين سائر الأشهر عن عبث ، وعن مجرد مصادفة . بل لابد أن تكون هنالك حرمة له عندهم قبل الاسلام بزمان .

وقد تكون هذه الحرمة هي التي ميزته وفضلته على سائر الشهور ، بأن صار شهر الصيام والشهر المبارك في الاسلام ، وفضل بذكر اسمه في القرآن الكريم . ويظهر من اهمال أهل الأخبار له ، بعدم إدخال اسمه في الأشهر الحرم المعروفة المذكورة في الكتب ـ وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وهي أشهر متصلة ثم شهر رجب الفرد أو شهر رجب الأصم ـ أن الجاهليين لم يكونوا يعدونه شهراً محرماً كالأشهر المذكورة في أيام الرسول ، ولكنهم كانوا ـ أو كان بعض منهم كما ذكرت يعظمونه ـ ويحترمونه ويقدرونه تقديراً خاصاً بتحنثهم به . ومن يدري ؟ فلعله كان من الأشهر المقدسة الدينية عند الجاهليين ، في الجاهلية البعيدة عن الاسلام ، ولهذا بقيت حرمته هذه في التحنث المذكور وفي إطعام الفقراء فيه والمحتاجين .

---

(١) البلاذري (١ / ١٠٥) .

(٢) تأريخ الاسلام ، للذهبي (١ / ٧٤ وما بعدها) .

وتذكر بعض الروايات أن الرسول حينما عاد من الطائف ، بعد أن ذهب الى أهلها طمعاً في اقناعهم بالايمان به ، اختفى فيه مدة ، ثم عاد منه الى مكة . ولما لهذا الغار من مكانة في الاسلام ، عرف الجبل الذي هو فيه بجبل النور . وهو مقابل جبل آخر يسمى « ثبير » ، وما زال غار حراء باقياً يقصده الناس (١) .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن عادة التحنث هذه هي عادة يهودية نصرانية . دخلت الى الجاهليين من الرهبان الذين كانوا قد انزووا واعتكفوا في مواضع متعددة من جزيرة العرب . وقد ذهب « هرشفلد H. Hirschfeld » ، وهو من المستشرقين الذين يرجعون أصول الاسلام الى اليهودية بالدرجة الأولى لعاطفته اليهودية والى النصرانية بالدرجة الثانية ، ليرجعها بعد ذلك الى اليهودية ، أن « التحنث » معربة عن أصل عبراني ، هو « تحينوت Tehinnot » ، أو « تحينوث Tehinnoth » ، ومعناها الاعتكاف والتوجه بالصلاة الى الله (٢) .

وقد خوطب الرسول في القرآن الكريم بـ «النبي» و بـ « الرسول » . وقد سبق الرسول أنبياء ورسل . ويقال للنبي « نابي Nabi » في العبرانية . وقد وردت اللفظة في اكثر من ثلاث مئة موضع من العهد القديم (٣) . وتقابلها لفظة « نبيا Nabiia » (٤) « نبيو Nabiio » (٥) في السريانية ، وتعني الرائي ، أي الناظر والمنذر بوحي من الله بالكائنات قبل كونها في هذه اللغة (٦) . وكل رسول نبي ، غير أن من الأنبياء من هم ليسوا رسلاً . والرسل عند المسلمين أقل عدداً من الأنبياء بكثير (٧) .

---

(١) Ency. of Islam, II, P. 315, wustenfeld, Die chroniken der stadt Mekka, I, s. 426, Burckhardt, Travel in Arabia, I, P. 302.

(٢) M. watt, Muhammad at Mecca, P. 44, H. Hirschfeld, New Researches into the Composition and exegesis of the qoran, London. 1902, P, 10, C.J. Lyall, in JRAS, 1903, P. 780, Caetani Ann., P. 222.

(٣) Hastings, P. 757.

(٤) Shorter, P. 563.

(٥) برصوم (ص ١٧٥) .

(٦) برصوم (ص ١٧٥) .

(٧) Shorter, P. 611.

والرسول هو (شلحو Shliho) في السريانية ، من أصل « شلح Shlah » بمعنى أرسل وبعث ، والجمع (شليحون) (١) . وهي من المصطلحات النصرانية ، وترد في العبرانية كذلك (٢) . وقد عرفت في المؤلفات العربية بـ « السليح » . أخذت عن النصارى ، واستعملت في معنى الرسول (٣) . ولكن استعمال النصارى لها يختلف عن استعمال المسلمين ، فقد أطلقوها على رسل المسيح . فالرسول عندهم اذن هو دون المفهوم من معناها عند المسلمين . وقد وردت جملة : « شيليحه دالاها » في السريانية ، وهي في معنى « رسول الله » (٤) .

وأما الملك جبرئيل أو جبريل ، فانه الملك المكلف ابلاغ الوحي الى الرسل . وقد ذكر اسمه ثلاث مرات في القرآن الكريم (٥) . وهو من الملائكة الأربعة المقربين ، وهم : جبرائيل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وعزرائيل (٦) . ولكل واحد من هؤلاء واجب ووظيفة . وهو « Gabriel » في اليهودية والنصرانية ، ومعناها رجل الله ، وهو أحد الملائكة السبعة المقدمين المقربين من الله في هاتين الديانتين (٧) . وهو الذي حمل البشارة لزكريا في شأن ولادة يوحنا ، ولمريم في شأن ولادة المسيح (٨) .

ولم يرد اسم جبريل في القرآن الكريم إلا في سورتين ، هما : سورة البقرة (٩) وسورة التحريم (١٠) وهما سورتان مدنيتان . أما السور المكية ، فقد ورد فيها

---

(١) برصوم (ص ٨٩) .

(٢) Hastings, P. 44.

(٣) برصوم (ص ٨٩ وما بعدها) .

(٤) Shorter, P. 611.

(٥) Shorter, P. 79. Handworterbuch des Islam, s. 100 f. Noldeke, I, s. 20 f,

(٦) Shorter, P. 79.

(٧) Hastings, P. 275, J. Horovitz, Koranishe Untersuchungen, s. 107.

(٨) قاموس الكتاب المقدس [١ / ٣١١] .

(٩) الآيتان : ٩٧ و ٩٨ .

(١٠) الآية ٤ .

« الروح » و « روح القدس » « قل نزله الروح القـــدس » (١) ،« نزل به الروح الأمين» (٢) . أما في كتب الحديث فيرد فيها بكثرة ، ولا سيما في باب كيفية نزول الوحي . وقد أريد بالروح وبروح القدس ، الملك الموكل بالوحي الذي نزل بالقرآن على الرسول ، أي جبريل . وقد ورد في كتب الأخبار أن « طليحة الأسدي » المتنبي كان يزعم أن جبريل نزل عليه (٣) .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن الرسول حينما سمع الوحي ، تصور أنه إنما يسمعه من الله مستدلين على زعمهم هذا بآيات من سورة النجم : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الاعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو ادنى . فاوحى الى عبده ما اوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عند جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى » (٤) . وبشيء آخر هو عدم ورود اسم « جبريل » في السور المكية (٥) . وهو زعم يتعارض بالطبع مع ما ورد في كتب التفسير والحديث والسيرة عن نزول الوحي على الرسول .

وأما كيفية نزول جبريل على الرسول وسماعه له . فتذكر كتب الحديث أنه كان يأتيه الوحي أحياناً مثل صلصلة الجرس وهو أشده على الرسول ، وأحياناً يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه فيعي ما يقوله ، وأحياناً كان يتمثل له على هيأة ملك يكلمه من السماء . وقد كان يتأثر حين نزول الوحي عليه تأثراً شديداً ، فكان يتفصد جبينه عرقاً في اليوم الشـــديد البرد ، من شدته عليه (٦) . ويكاد يغشى عليه ، وربما غط كغطيط البكر

---

(١) السورة ١٦ ، االآية ١٠٤ .

(٢) الشعراء ، الآية ١٩٣ .

(٣) تاريخ الطبري [١ / ١٨٩٠] « طبعة ليدن » . Noldeke, s. 21.

(٤) سورة النجم ، الآيات ٣ وما بعدها .

(٥) Muhammad at MECCA, by, w. Montgomery watt, PP. 43, Karl Ahrens, Muhammad als Religionsstifter, Leipzig, 1935.

(٦) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ، [١ / ٤ وما بعدها] « باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، السيرة الحلبية [١ / ٢٩٢] وما بعدها] .

محمرة عيناه ، وتأخذه حالة تشبه البرحاء من شدة الوحي عليه . تنتابه أحياناً رعـــدة شديدة وكرب ، ويربد وجهه ، ويغمض عينيـــه . يدوم ذلك به ، على قـــدر نزول الوحي عليه (١) .

وقد رأى بعض الصحابة الرسول وقد ظهرت وبدت عليه علائم نزول الوحي ، ورأوه وقد نزل عليه الوحي واشتد به ، وقد أجمعوا كلهم على أنه كان يعاني في أثنائه شدة وصعوبة ، يبقى على ذلك ماشاء الله ، فلا يهدأ ولا يذهب عنه الروع إلا بعد انتهاء الوحي ، فيجلس عندئذ وقد تصبب عرقاً ، يجلس ليرتاح وليجفف عرقه . ثم يتلو على من عنده من أصحابه ماوعاه وما حفظه من الوحي . فاذا فصم عنه ، كان قد وعى كل ماقاله الملك له وحفظه ، لايذهب عنه حرفاً (٢) . وقد ورد في سورة « طه » ، وهي من السور المكية ، مايفيد أن الرسول كان يعجل بالقرآن من قبل أن يقضي اليه وحيه ، وذلك فى الآية : « ولا تعجل بالقرآن من قبـــل أن يقضي اليك وحيه . وقل : رب زدني علماً » (٣) ، فحث على التثبت فى السماع وعلى ترك الاستعجال في تلقيه وتلقنه (٤) .

وقد ورد فى موضع آخر من القرآن الكريم : « لاتحرك به لسانك ، لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » (٥) . وهي من سورة القيامة ، وهي سورة مكية . وقد ورد أن الرسول كان يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه استعجالاً فى الحفظ . فلما نزل الوحي عليه بذلك ، كان اذا أتاه جبريل استمع ، فاذا انطلق قرأه كما قرأه (٦) . ويدل ذلك على أن الرسول كان في بدء المبعث يسرع ويستعجل فى حفظ مايوحي اليه ، يعيده في لسانه ويحرك شفتيه خشية ذهاب الوحي عنه ،

(١) السيرة الحلبية [١ / ٢٩٢ وما بعدها] ، ابن سعد [١ / ١٩٧] .
(٢) « فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال » ، التجريد الصريح [١ / ٤ وما بعدها] .
(٣) الآية ١١٤ .
(٤) المفردات [ص ٥٢٧] .
(٥) القيامة ، الآية ١٦ وما بعدها .
(٦) التجريد الصريح [١ / ٦] .

وهو بعد لم يحفظه كله ، أو لم يعه كاملاً ، الى أن نزل الوحي عليه بوجوب التأني وترك التسرع كما جاء في الآيات السابقة .

وقد ورد في بعض الأخبار أن جبريل كان يظهر على صورة دحية الكلبي ، وفي خبر عن عمر بن الخطاب أنه قال : « بينا نحن عند رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذات يوم، طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد » (١) . ويذكر رواة هذا الخبر أن المراد به جبريل . ولكن الغالب أنه يتمثل له على هيأة دحية المذكور ، إذا تمثل له على صورة إنسان . ويذكر أيضاً أن جبريل لم يظهر للرسول على هيأته الأصلية ، أي على طبيعته الملائكية ، إلا مرات لم تتجاوز ثلاثاً (٢) .

ودحية الكلبي ، هو دحية بن خليفة الكلبي ، من الصحابة ، وأحد الرسل الذين أرسلهم الرسول الى الملوك والأمراء ، ويقال إن الرسول كلفه الذهاب الى قيصر (٣) . أسلم بعد معركة أحد في رواية ، أو بعد الخندق في رواية أخرى (٤) . وكان من الأغنياء الأثرياء ، وصاحب تجارة ، له قوافل تسير بتجارته ، وكان يتاجر مع بلاد الشام، وله صلات وثيقة بالغساسنة وبأعراب بادية الشام ، ولعله كان على صلة ببعض الموظفين الروم الذين كانوا يحكمون هذه البلاد في أيام الرسول . وقـــد كانت له أخت تدعى « شراف » ، خطبها الرسول ، ولكنها هلكت قبل دخولها عليه (٥) .

ولما كان اسلام « دحية » قد وقع بعد الهجرة ، فالمعقول أن يكون ظهور « جبريل » في هيأة « دحية » بعد الهجرة ، إذ لا يعقل تمثل الوحي برجل مازال على

---

(١) السيرة الحلبيه (١ / ٢٨٨).

(٢) (المصدر نفسه ١ / ٢٦٨ وما بعدها) « باب بدء الوحي صلى الله عليه وسلم » ، الموطـــأ (٧٠) ، مسلم (٢ / ٤٣٠) ، الترمذي (٢ / ٢٠٤) ، Noldeke, I, s. 22. f, Sprenger, I, s. 272.

(٣) البلاذري (١/٥٣١).

(٤) Ency. of Islam, I, P. 974.

(٥) البلاذري (١ / ٤٦٠) ، الاستيعاب ص ١٧٢ ، الاغاني (٦ / ٩٥) ، السمعاني ورقة ٨٥ ؛ الاصابة (١ / ٢٣٧٨) ، Ency. of Islam, I, s. 973, Noldeke, Geschichte des qorans, I, s. 22. ff., Lammens, Etudes, I, P. 292. f.

الشرك ، ولم يجد الاسلام سبيلاً الى قلبه بعد(١) .

وأما عن وقت نزول الوحي عليه وعلائمه ، فلم يكن له وقت ثابت معلوم ، بل كان يتوقف ذلك على الظروف والمناسبات . ينزل عليه مرات أحياناً في نهار واحد ، وينقطع أياماً عنه في بعض الأحايين ، ينزل عليه في النهار ، كما ينزل عليه في الليل وكان يعاني من نزوله عليه عنتاً شديداً ، وتسبق نزول الوحي عليه علائم يشعر بها ،توحي اليه أن الوحي مقبل عليه آت ، فاذا جاءه ، تفصد عرقاً ، مع أنه في البرد الشديد (٢) ، وارتعدت لحيته وأخذته الرعدة (٣) ، حتى ينتهي الوحي ، فيقرأ ما نزل عليه على من كان حاضراً عليه من أصحابه لتدوينه ولحفظه . وتذكر كتب الحديث في « باب كيف كان بدء الوحي » ، أنه كان يصاب بـ « البرحاء » ، أي الحمى الشديدة ، عند نزول الوحي عليه . وذلك من شدة نزول الوحي عليه . ففي حديث عن عائشة : « فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات » (٤) .

والرسول أمي ، لم يقرأ ولم يكتب ، فاذا أراد كتاب رسالة أو عهد أو تدوين للوحي ، أمر كتابه بالتدوين . على ذلك اجمع المسلمون . وقد وردت في القرآن الكريم آيات ، مثل : « اقرأ باسم ربك » (٥) وآية : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » (٦) . أخذها المستشرقون على أن فيها دلالة على أن النبي كان يقرأ ويكتب ، واستدلوا أيضاً ببعض ما ورد في كتب الحديث والسير ، وفيه ما يفيد أنه كان ملماً بالكتابة والقراءة ، كالذي ورد في رواية عن صلح «الحديبية» أنه « هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة . وهو ما وقع في البخاري » (٧) . وما جاء السيرة لابن هشام : « فبينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يكتب الكتاب هو وسهيل » (٨) .

---

(١) Noldeke, I, s. 24.

(٢) تفسير الطبرسي (المجلد العاشر / ٣٧٨) .

(٣) تفسير روح المعاني (٣٠ / ١٥٦ وما بعدها) .

(٤) البخاري (٢ / ٥) ، كتاب الشهادات : حديث الافك .

(٥) سورة اقرأ .

(٦) العنكبوت ، الآية ٤٨ .

(٧) الحلبية (١ / ٢٣ وما بعدها) .

(٨) Noldeke, I, s. 13.

وما جاء فى البخاري : « وأخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الكتاب ليكتب ، فكتب هذا ماقاضى عليه محمد » (١) . وقالوا إن فى هذا المذكور وفي غيره من مثل ماورد من أن الرسول « لما اشتد وجعه ، قال : ائتوني بالدواة والكتب أكتب لكم كتاباً لاتضلون معه بعدي أبداً » (٢) ، ومن انه « دعا في مرضـــه بدواة ومزبر فكتب اسم الخليفة بعده » (٣) . دلالة صريحة على قدرته على الكتابة والقراءة (٤) .

وللعلماء كلام فى الأدلة المذكورة ، حتى إن أحد علماء الأندلس هو « أبو الوليد الباجي » ، كان قد ذكر أن الرسول كتب بيده ، فرده علماء قومه « في زمانه بأن هـذا مخالف للقرآن ، فناظرهم ، واستظهر عليهم بأن هذا لاينافى القرآن . وهو قوله تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) لأن هذا النفي مقيد بما قبل ورود القرآن . وبعد أن تحققت أميته (صلى الله عليه وسلم) وتقررت بذلك معجزته لامانع من أن يعرف الكتابة من غير معلم ، فتكون معجزة أخرى ، ولا يخرجه ذلك عن كونه أمياً » (٥) . وقد فسر بعض العلماء ماورد فى البخاري عن قصة كتاب صلح الحديبية ، من أنه كتبه بيده ، أن لفظة (بيده) زائدة ليست في البخاري ، وانما أدخلت عليه ، وفسر بعض آخر كتابة الرسول للكتاب على أنه كان في تلك الساعة خاصة ، وعدوه معجزة. ولكن أكثر الروايات عن هذا الحادث لا تشير الى أنه كتب الكتاب بنفسه ، وانما تذكر انه أمر علي بن أبي طالب بأن يكتبه له ، ثم أمر محمد بن مسلمة بأن ينسخ له نسخة أخرى لتعطى للمشركين . وفي رواية أخرى أن النبي لما أمر بمحو جملة « رسول الله »، التي اعترض عليها رسول قريش ومفوضهم ، أمر علياً بمحوها . فلما قال علي : « لا أمحوك

(١) « قال لعلي عليه السلام : امح رسول الله . قال : لا والله لا أمحاك أبداً . فأخذه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وليس يحسن يكتب ، فكتب مكان رسول الله : محمد . فكتب هذا ما قاضى عليه محمد لا يدخل بالسلاح ...» الطبري (٣ / ٨٠) ، السنة السادسة ، الحلبية (١ / ٢٤) .

(٢) البلاذري (١ / ٥٦٢) .

(٣) شرح القاموس (٣ / ٢٣١) ، « ائتوني باللوح والدواة ، او بالكتف والدواة ، أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده » ، الطبري (٣ / ٩٢) « السنة الحادية عشرة » .

(٤) Noldeke, I, s. 12. ff.

(٥) الحلبية (١ / ٢٣ وما بعدها) .

أو والله لا أمحوك أبداً » ، فقال : أرنيه ، فأراه اياه ، فمحاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده الشريفة ، وقال : اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبـــدالله ، سهيل بن عمرو » (١).

والأمي في تفسير علماء اللغة من لايكتب ، أو من على خلقة الأمة لم يتعلم الكتابة وهو باق على جبلته . وقد ورد في الحديث : « إنا أمة أمية لا نكتب » (٢) . وقد بحث عدد من العلماء في موضوع أمية الرسول كما ذكرت ، منهم : أبو الفتح النيسابوري ، والباجي ، وأبو محمد بن مفوز ، والقاضي أبو جعفر السمناني ، وآخرون . وقد ادعى بعضهم أن الرسول صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها . « وقد روى ابن أبي شيبة وغيره : مامات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ،حتى كتب وقرأ . وذكره مجالد الشعبي، فقال : ليس في الآية ماينافيه . قال ابن دحية : واليه ذهب أبو ذر ، وأبو الفتح النيسابوري، والباجي وصنف فيه كتاباً، ووافقه عليه بعض علماء افريقية وصقلية . وقالوا : إن معرفة الكتابة بعد أميته ، لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة أخرى بعد معرفة أميته » (٣) .

« وقال بعضهم : يحتمل أن يراد أنه كتب مع عدم علمه بالكتابة وتمييز الحروف ، كما يكتب بعض الملوك علامتهم وهم أميون . والى هـــذا ذهب القــاضي أبو جعفر السمناني » (٤) . فأنت ترى أنهم مجمعون على أمية الرسول قبل البعث ، ولكن من العلماء من يرى أنه كتب وقرأ بعد نزول الوحي عليه ، وأن ذلك لاينافي معجزة الرسالة في الرسول .

وقد وردت في القرآن الكريم « الأمي » (٥) و « أميون » (٦) و « أميين » (٧) .

---

(١) الحلبية (١ / ٢٣) .

(٢) شرح القاموس (٨ / ١٩١) ، المفردات ص ٢٢) .

(٣) شرح القاموس (٨ / ١٩١) .

(٤) شرح القاموس (٨ / ١٩١) .

(٥) الاعراف ، الآية ١٥٦ وما بعدها .

(٦) البقرة ، الآية ٧٨ .

(٧) آل عمران ، الآية ٢٠ ; ٧٥ ، الجمعة ، الآية ٢ .

وقد أريد بالأميين قوم الرسول وجماعته الذين كانوا على الوثنية ، كالذي يفهم من آية آل عمران : «وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين » (١) . وآية الجمعة : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» (٢) . ونعت الرسول بـ « النبي الأمي » (٣) . وذكر علماء اللغة أن الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب . وقال بعض : الأمية الغفلة والجهالة ، وذلك هو قلة المعرفة . ومنه : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني » ، أي إلا أن يتلى عليهم . قال الفراء : هم العرب الذين لم يكن لهم كتاب . والنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل • قيل : منسوب الى الأمة الذين لم يكتبوا ، لكونه على عادتهم ، كقولك عامي لكونه على عادة العامة . وقيل : سمي بذلك ، لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وذلك فضيلة لاستغنائه بحفظه واعتماده على ضمان الله منه بقوله : سنقرئك فلا تنسى . وقيل : سمي بذلك لنسبته الى أم القرى » (٤) .

وقد قصد بعض العلماء بالأميين ، من لا كتاب لهم من الناس ، مثل الوثنيين والمجوس ، فورد : « أن النبي ، (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، كان يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم » (٥) ، فجعل المجوس أميين ، لأنهم ليسوا أهل الكتاب . فيظهر من ذلك أن من معاني الأمية الوثنية وعدم الاعتقاد بالرسل والأنبياء .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى أن المقصود من الأميين هنا الوثنيون ، ودليلهم على ذلك هو جملة « اموت ها عولام ، Ummot ha Olam » التي كان يطلقها العبرانيون على غيرهم . ويريدون الوثنيين ، أي غير العبرانيين . وذهب بعض آخر الى أن المراد

---

(١) آل عمران ، الآية ٢٠ .

(٢) الجمعة ، الاية ٢.

(٣) الأعراف ، الاية ١٥٦ وما بعدها .

(٤) المفردات (ص ٢٢) .

(٥) روح المعاني (٢١ / ٧ ، وما بعدها) .

من « الأمي » ، الشخص غير المتعلم . أما لفظة « أمة » ، بمعنى جماعة كبيرة وشعب ، فانها « اميثا Ummetha » في السريانية (١) .

وقد أطلق العبرانيون على الغرباء وكل من هو غير يهودي ؛ « كوي Goy » للواحد ، و « كويم Goyim للجمع » ، وتقابل هذه اللفظة لفظة « Gentile » في اللاتينية . ويقال للغريب عنهم « أخريم Ahrim » و « Nochrim » كذلك ، تمييزاً لهم عن العبرانيين الذين يذهبون الى أنهم أمة مقدسة مفضلة على العالمين « Kadosh Goy » (٢) .

وذهب بعض المستشرقين اليهود الى أن لفظة « الأميين » معربة من أصل (گوي) و (گوييم) ، المذكور (٣) .

وقد ذهب « شبرنكر » - وهو من الزاعمين أن الرسول كان يكتب ويقرأ - الى أن النبي قرأ كتاباً في العقائد والأديان وأخبار الماضين ، وقد زعم أن اسم هذا الكتاب هو : « أســاطير الأولين » (٤) والواقف على القرآن الكريم ، والمطلع على معنى « أساطير الأولين » الواردة فيه ، يرى أن القرآن الكريم قد حكى قول قريش الذين كانوا يستخفون على زعمهم بالقرآن ، فقالوا : « ان هذا إلا أســاطير الأولين » (٥) ، و « قالوا أساطير الأولين » (٦) ، و « ماهـــذا إلا أساطير » (٧) و « قال أســاطير الأولين » (٨) . وليس في هذه الآيات أيه دلالة على ماذهب اليه على العكس ، فانك

---

(١) Shorter, P. 764, Horovitz, Koranische untersuchungen, 1926, s. 51 ff., Buhl-shaeder, Das Leben Muhammeds, Leipzig, 1930, s. 56, Noldeke, I, s. 14.

(٢) The Uni. Jew. Ency., Vol., 4, P. 533.

(٣) Torrey, the Jewish foundation of Islam, New York, 1933, P. 38, Abraham I. Katsh, Judaism in Islam, New York, 1954, PP. 75.

(٤) Noldeke, I, S. 16, Ency. of Islam, Vol., IV, P. 1016.

(٥) الأنعام ، الاية ٢٥ .

(٦) الفرقان ، الايه ٥ .

(٧) الاحقاف ، الاية ١٧ .

(٨) القلم ، الاية ١٥ .

إذا قرأت الآية : « ومنهم من يستمع اليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك ، يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين » (١) فقد قالت قريش هذه المقالة استخفافاً واستهزاء ، بمعنى أن مايتلوه الرسول عليهم هو من هذا القصص الذي يقص عن الأولين، فهو خرافة وكلام هراء ، وليس فيه مايدل على وجود كتاب بالأساطير الأولين وبأخذ الرسول منه . وقد رد على هذا الرأي في كتاب « تأريخ القرآن » لنولدكه ، وعده قولاً لا أهمية اه (٢).

ويدل ورود « أساطير الأولين » في مواضع من القرآن الكريم على أن قريشاً كانت تستعمل لفظة « أساطير» وتقصد بها نوعاً معيناً من الكتب، تبحث في قصص الماضين وأحاديثم وأخبارهم ، كانت معروفة في مكة أيام ظهور الاسلام ، بدليل ماورد في هذه الآية من سورة الفرقان : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » (٣) وهذه السورة هي من السور المكية . فهي تشير الى زعم قريش في أن القرآن ، هو شيء اكتتبه الرسول ، وقد أملي عليه من الأساطير . وقد سبق أن قالوا إنه يتعلمه من أناس عاونوه وساعدوه عليه ، كما سأبحث ذلك فيما بعد . ذكروا ذلك في الآية السابقة لهذه الآية من السورة نفسها . وهي تدل دلالة واضحة على معرفة قريش بكتب عرفت عندهم بـ « الأساطير » ووجودها في مكة ، وأنهم كانوا يتداولونها ويقرؤونها .

وقد ذكر علماء اللغة أن الأساطير هي الأباطيل والأكاذيب والاحاديث لا نظام لها ، وهي جمع أسطار وأسطير وأسطور (٤). وفي اللاتينية لفظة « Historia » بمعنى الأحاديث والأساطير والتأريخ ، ومنها وردت لفظة « History » في الانكليزية بمعنى التأريخ ، وتقابلها « أستوريا Istoriya » في اليونانية ، وقد أطلقت عندهم على كتب

---

(١) الأنعام ، الآية ٢٥ .

(٢) Noldeke, I, S. 17,

(٣) الآية (٥)

(٤) شرح القاموس (٣ / ٢٩٧) ، المفردات (ص ٢٣١) .

الأساطير والتأريخ ويظهر أن الجاهليين قد وقفوا عليها ، فأخذوا اللفظة عن اليونانية ، واستعملوها بالشكل المذكور وبالمعنى نفسه .

ولا أستبعد وجود هذه الكتب باليونانية وباللاتينية فى مكة ، فقد كان فى مكة وفى غير مكة رقيق من الروم ، كانوا يتكلمون بلغتهم فيما بينهم وينطقون بها اذا تلاقوا ، كما كانوا يحتفظون بكتبهم المقدسة ، وبكتب أخرى مدونة بلغتهم . وقد ذكر علماء التفسير اسم رجل زعمت قريش أنه كان هو الذي يعلم الرسول ويلقنه القرآن . واليه الاشارة فى الآية الكريمة : « لسان الذي يلحدون اليه أعجمي » (١) . وهي فى سورة النحل وسورة النحل من السور المكية . فرد زعم قريش هذا أن الرجل المذكور الذي كان بياعاً فى مبيعة ، أي حانوت فى مكة ، وكان الرسول يجالسه ويأنس اليه ، رجل أعجمي ، ولسانه لسان أعجمي ، وهو غير متمكن من العربية . فكيف يعلم الرسول ويلقنه ولسانه على هذه الحال ؟ وقد ورد أن هذا الرجل كان يقرأ كتبهم . وقد كان أناس آخرون مثله ، كانوا رقيقاً يقرأ ويكتب بلغته ، سقط فى الأسر وبيع ، فجيء به الى مكة والى مواضع أخرى من جزيرة العرب .

ومن يدري ؟ فلعلهم كانوا يجالسون أهل مكة ، ويقصون عليهم قصصهم ، ويقرؤون عليهم ؛ فى أثناء سمرهم من هذا الذي عندهم في كتبهم . فكانوا اذا سألوهم عن هذا القصص ، قالوا لهم : إنه (أستوريا) أي تواريخ . فذهبت بين الناس ، وصارت لفظة عربية ، هي « اسطورة » .

وقد بحث المستشرقون فى هذا الموضوع ، وتعرضوا له ، وناقشوا الروايات على اختلافها . ولهم فى ذلك كلام لا يخلو بعضه من عاطفة سياسية أو دينية وبالأسف ؛ لأنه لم يناقش من أجل الوقوف على هذه الحقيقة من أجل الحقيقة والعلم .

ولا أهمية ولا معنى كذلك لقول « شبرنكر » إن محمداً قرأ وأخذ من مصدر آخر هو (صحف ابراهيم) المذكورة في القرآن الكريم - وقد رد على هذا الرأي (نولدكه) بقوله : لو فرضنا أن محمداً أخذ من هذه الصحف ، ونسبه لنفسه وادعاه ، على أنه وحي اوحى الله به اليه ، لو فرضنا ذلك ، فان من غير المعقول عندئذ ذكر محمد لتلك الصحف

---

(١) النحل ، الآية ١٠٣ .

في القرآن ، لأن ذكرها فيه معناه ارشاد الناس الى المورد الذي أخذ منه واتهام نفسه ، ولهذا لا يعقل الأخذ بكلام « شبرنكر » (١).

أما صحف ابراهيم ، فلم يصل الينا من أمرها شيء . وقد ورد في التلمود أن ابراهيم كان قد وقف على (الهلاخا Halacha) وعمل بها (٢) . وقد نسب المتأخرون اليه كتاب (يزيرا Yezira) من كتب الـ (الكبالا Kabbala) . وكتاباً آخر عرف باسم (Liber de Idolatria) (٣) .

ويراد بـ (الهلاخا) ، ما يقابل مصطلح (الحديث) في عربيتنا . ويشمل كل ما ورد بالرواية من أخبار وحديث من أقوال الأنبياء وأفعالهم . وقد جمع ذلك (يهودا هناسي Jehudah ha-Nasi) ، وعرف فيما بعد باسم (المشنا) (٤) .

وليس « شبرنكر » أول من قال بهذا القول ، فسنرى فيما بعد أن قريشاً قالت به في مبدأ نزول الوحي ، بل قالت أكثر من ذلك ، وسيأتي الحديث عنه فيما بعد بشيء من التفصيل .

وسبق الوحي كما يذكر أهل الأخبار وقت ابتدىء رسول الله فيه بالرؤيا . والرؤيا تمهيد للوحي . وقد عدت هذه الرؤيا جزءاً من الوحي ونوعاً منه . وقد عبر عنها في الحديث بـ « الرؤيا الصادقة » ، وبـ (الرؤيا الحسنة) ، وبـ (الرؤيا الصالحة) ، وقد استغرقت مدة ستة أشهر . وقد عبر عن الرؤيا بتلك التعابير احتراساً من الرؤيا الاعتيادية التي تظهر لكل إنسان . وقد ورد فى الحديث أنه كان لايرى شيئاً في المنام ، إلا كان كما رأي (٥).

---

(١) Noldeke, I, S. 17.

(٢) « عبودا زارا ، ١٤ ب » Aboda Zara, 14 b,

(٣) Noldeke, I, S. 17.

(٤) Hastings, P. 891.

(٥) « ... عن عروة عن عائشة أنها قالت : كان أول ما ابتدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي ، الرؤيا الصادقة ، كانت تجيء مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ، فيتزود مثلها ، حتى فجأه الحق.» تفسير الطبري (٣٠ / ١٦١) ، السيرة الحلبية (١ / ٢٦٨ وما بعدها) .

وعد بعض العلماء الرؤيا جزءاً من النبوة ، ولهذا عدوا رؤيا الرسول قبل نزول جبريل عليه جزءاً من نبوته وقد ذكروا أن مدتها كانت ستة أشهر ، وقد انتهت بنزول الوحي عليه (١).

وسبق الرؤيا تفكير شغل الرسول أمداً طويلاً : تفكير فى حالة قومه ، وفي أوضاعهم، وفي تقربهم من الأوثان ، وفي الكون والحياة ومصير الانسان والموت وما بعد الموت ، وفيما شاكل ذلك من أمور تطوف برأس المفكر المتصبر في هذه الحياة ، فتصرفه الى النظر فيها ، وتبعده عن التفكير في التماس ملذات الحيـــاة من متعة وأنس ، يقع فى غرامها الانسان في هذه السن على المعتاد . لم يهن ولم يضعف ، بل ازداد في التفكير فيها شغفاً وحباً وهياماً كلما تقدمت به السن . وما أخبار عزلته في الغار ، وانقطاعه فيه عن الناس ، وابتعاده عن قضاء وقته في مجالـة من في سنه وقتل وقته بالعبث واللهو على عادة الناس فى ذلك العهد وعادة كل مجتمع فيه فراغ ، إلا دلالة على هذه الفترة التي مر بها الرسول ، وهي فترة كان فيها حائراً مفكراً يريد الوصول فيها الى شيء مقنع له مطمئن ، يحل له كل هذه الأسئلة والأفكار التي كانت قد تراكمت في فكره ، وتوالت عليه .

ولا أجد وصفاً لهذه الفترة القلقة التي مرت بالرسول ، فترة التفكير والتأمل غير هذا الوصف البليغ الموجز في سورة الضحى : « ووجدك ضالاً فهدى » . انها تتحدث عن ذلك القلق الشديد الذي كان قد أصاب قلب الرسول قبل نزول الوحي عليه ، قلق جعله يسهر الليالي ، ولاسيما فى أواخرها مفكراً في تلك المشكلات ، وفي أوضاع قومه وما كانوا عليه ، انها أوضاع لم تعجبه ، وجدها ضلالاً وجهلا وحماقة لابد من تنبيه قومه عليها ومن دلالتهم على فســـادها ، ولكن كيف وبأية وسيلة ، وما طرق الاصلاح وأسبابها ، والمناهج اللازمة لذلك ، لرفع مستوى الناس من الجهالة والضلالة الى الهدى والصراط المستقيم ؟

---

(١) « واول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أمر النبوة الرؤيا ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . قيل : وكان ذلك ستة أشهر ، ومـدة النبوة ثلاث وعشرون سنة ، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً » ، زاد المعاد (١ / ١٩) .

وتقول الأخبار إن الرسول كان منذ صغره يحب الخلوة والانزواء . ولكن خلوته هذه لم تكن خلوة الأطفال والشبان والرجال الحيين ، الذين يحبون الخلوة عن مرض جسمي ، فيقضونها خلوة فارغة جوفاء ، لم يشغلها تفكير ولا تأمل ، بل كانت خلوة تفكير وتتبع . وإنه كان يختلف بها عن أقرانه ولداته ، حتى بانت عليه وعرفت ؛ اذ لم يظهر عليه ميل الى عبث ولهو ولعب وغير ذلك مما يلهي من في سنه، ويجعله يمضي وقته بها، حتى يبلغ رشده ، فعرف بين أهل مكة بالهدوء وبعدم الميل الى المعاكسة والمشاكسة والمرح والتسرع بالكلام، كما عرف بالجد وبكراهيته العدوان واهانة الناس والاستخفاف بهم ، ليتم وفقر وإملاق . كل ذلك حببه لأهل مكة ولقومه ، مما جعلهم ينظرون اليه نظرة تختلف عن نظرتهم الى الآخرين من الشبان والرجال الطائشين النزقين .

وقد كانت خديجة خير عون لزوجها في تهدئة نفسه في هذه الفترة الشـديدة الحرجة ، وفى بعث الطمأنينة والراحة اليه ، فلم تتدخل كما تتدخل النسوة في العادة في محاولة لصرف رجلها عن هذه الخلوة وذلك التفكير الذي أخذ وقته ، وتصرف فيه ، فلم يجعل لها منه إلا بعض شيء . بل تركته يتصرف على النحو الذي يحبه ويرضيه ، مقدمة له كل أمور الراحة والتسهيل ، ليفكر فيما يشغله وصرف نفسه له . بل كانت على مايظهر تؤيده فى نفرته من جهالة قومه ، وتذهب معه فى الاشمئزاز من تصرفاتهم وأعمالهم ، وتقدم اليه كل مايلزم من عون مادي وروحي يساعده في الانصراف الى هذه الرياضة ، في بيتها أو خارج بيتها في غار حراء أو في أي مكان آخر رأى فيه الهدوء والراحة ومجال التبصر والتفكير .

ذكر أن الرسول كان يسمع أصواتاً تناديه : « يامحمد » ، ولا يرى شيئاً ، غير أنه يسمع الصوت فيهرب منه فى الأرض ؛ وأنه كان مرة بأجياد ، فرأى ملكا واضعاً احدى رجليه على الأخرى في أفق السماء ، يصيح : يامحمد ، أنا جبريل . فذعر رسول الله ، ورجع سريعاً الى خديجة . فقال : إني أخشى أن أكون كاهناً ، أو خشيت أن يكون قد عرض لى أمر . فقالت : كلا ، يا ابن عم ، ماكان الله ليفعل بك سوءاً ، إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتؤدي الأمانة ، وإن خلقك لكريم (١) .

---

(١) البلاذري (١ / ١٠٤ وما بعدها) ، عيون الاثر (١ / ٨٢ وما بعدها) .

وكان أول ما فعله محمد بعد سماعه الوحي أن ترك الغار ليعود الى بيته تعباً حائراً من هذا الذي ظهر له ، وانطلق يذرع الشعاب مسرعاً ، يرتعد فرقاً من شدة مارأى . وتذكر الأخبار أنه كان كلما مشى الى بيته ازداد رعبه ، لأنه كان يسمع أصواتاً تناديه من كل جانب ، ثم أخذه الروع حين رأى رجلاً في السماء يناديه ، ولم ينفعه مافعله من وضع يده على وجهه ، ليصرف نظره عما رأى . فلما وصل الى البيت كان تعباً يكاد يسقط على الأرض من شدة تعبه . وقد أخذته رجفة تشبه الرجفة المتأتية من الحمى . وفزعت خديجة من شدة مارأت ، واستقبلها بقوله زملوني زملوني ، فزملته وصبت على رأسه ماء بارداً ليهدأ روعه ، ثم دثرته .

وتذكر بعض الروايات أن الرسول قال لخديجة : لقد خشيت على نفسي ، وفي رواية : على عقلي . فلما سمعت منه هذا الكلام ، هدأت روعه ، وطيبت خاطره ، قائلة له : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق (١) .

وورد في رواية أن خديجة قالت له : أوجه اليك من يرقيك ؟ فقال : أما الآن ، فلا . وذكر أنه كان يرقى من العين وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن ، فلما نزل عليه القرآن ، أصابه نحو ما كان يصيبه قبـــل ذلك من الاغماء بعد حصول الرعدة ، ومن تغميض عينيه وتربد وجهه ، ومن غط كغطيط البكر (٢) .

وتذكر الروايات أن خديجة ذهبت وحدها أو معه الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقصت عليه القصة . أو أن الرسول هو الذي قص عليه ما شـــاهده وظهر له ، فطمأنه ورقة ، وقال : « قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت » (٣) . وفي رواية أن ورقة قال الرسول : « يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟

(١) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٧) .

(٢) السيرة الحلبية (١ / ٢٨٧) .

(٣) « فقال : هذا الناموس الذي أنزل على موسى ، صلى الله عليه وسلم ، ليتني فيها جذع ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك . قلت : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم : إنه لم يجيء رجل... » ، تفسير الطبري (٣٠ / ١٦٢) ، في الروايات الأخرى : « وإن يدركني يومك » ، السيرة الحلبية (١ / ٢٧٨) .

فأخبره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، خبر ما رأى . فقال له ورقة : هـــذا الناموس الذي أنزل على موسى ، وهو جبريل . يا ليتني فيها جذعاً شاباً ، حتى أبالغ في نصرتها ، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ، قال رسول الله ، صلى الله عليه وســـلم : أو مخرجي هم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بما جئت به إلا عودي . قال ورقـــة : وإن أدركت يومك « وإن يدركني ذلك » ، أنصرك نصراً مؤزراً . . » . وفي رواية أنه قال لخديجـــة « إن ابن عمك لصادق ، وإن هذا لبدء نبوة . » وفي لفظ : « إنه لنبي هذه الأمة » (١) .

وفي بعض الروايات أن خديجة حينما عادت من ورقة ، وجدت محمداً وقد تصبب العرق من جبينه ، وقد نزل عليه الوحي بيا أيها المدثر ، أو يا أيهـــا المزمل . فأخبرت الرسول بما سمعته ووعته من ورقة (٢) .

وتذكر روايات أخرى أن الشخص الذي ذهبت خديجة اليه ، كان من أهل نينوى ، وكان يقال له عداس . وهو غلام عتبة بن ربيعة ، وكان نصرانياً راهباً ، وأنه كان شيخاً كبير السن ، ثقل سمعه ، وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر ، وأنه لمـــا سمع القصة من خديجة قال : قدوس قدوس ، ثم ذكر لها أنه النبي المرســـل الذي بشر به موسى وعيسى (٣) . وذكر رواة هذا الخبر أن عداساً هذا هو رجل آخر غير عداس الوارد اسمه في خبر ذهاب الرسول الى الطائف (٤) . وهو استدراك لا يمكن قبوله . وقد أخطأ اولئك الرواة في إقحام اسم عداس في هذا الموضوع . ولا سيما أنهم نسبوا اليه ما نسبوه الى ورقة من كلام ، وأن ما قالوه عن صاحب عداس المذكور في هذا الخبر هو نفس ما ذكر عن عداس الطائف .

وورقة الذي قصدته خديجة ، هو ورقة بن نوفل بن أسد القرشي ابن عم خديجة على ما يذكره أهل الأخبار ، أحد الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام ، وحرموا الخمر على أنفسهم . وكان كما يقول أهل الأخبار قد تعلم العبرانية ، وقرأ التوراة وكتبها

---

(١) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٨) ، تأريخ الطبري (٢ / ٢٠٦ وما بعدها) .

(٢) السيرة الحلبية (١ / ٢٨٠ وما بعدها) .

(٣) السيرة الحلبية (١ / ٢٧٨) .

(٤) ابن هشام (٢ / ٦٠ وما بعدها) « سعى الرسول الى ثقيف يطلب النصرة » .

بالعبرانية ، وقرأ الكتب (١) . ويذكر أن خديجة استشارته في أمر زواجها من الرسول، وأنه رحب به وشجعها عليه .

ولا نعرف من أمره شيئاً واضحاً صريحاً يلقي ضوءاً على حياته وعلى معتقده وآرائه وموقفه من اليهودية والنصرانية غير تلك الروايات المهلهلة الغامضة التي يرويها أهل الأخبار . ولم يذكر أحد منهم أنه أسلم ، أو أنه روى حديثاً عن الرسول . وتذكر الأخبار إنه عمي في أواخر أيامه ، وأنه توفي في السنة الثانية أو الثالثة من نزول الوحي على الرسول (٢) . وفي بعض الروايات أنه شاهد تعذيب بلال ، فنهى قريشاً من ذلك . فلما لم ينتهوا ، قال فى ذلك شعراً (٣) . وقد نسب اليه شعر فى رثاء عثمان بن الحويرث ابن أسد بن عبدالعزى من زعماء قريش قبل الاسلام . وتذكر كتب الأخبار أنه عرف بـ « البطريق » ، وأنه ذهب الى قيصر ليساعده فى أن يملكه على قريش . ولكن قريشاً لم توافق على تملكه ، ومنعت عثمان مما جاء له ، فمات عند ابن جفنة ، وقال ورقة الشعر الذي أشرت اليه (٤) .

وقد وردت هذه الجملة فى البخاري عن ورقة بن نوفل : « وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية . وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الانجيل ما شاء الله أن يكتب » (٥) . ووردت فى كتاب آخر هذه الجملة : « وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الانجيل بالعربية ما شاء الله » (٦) . وأرى أن المراد بالعبراني هنا السريانيـــة ، إذ لا علاقة للعبرانية بالانجيل . وقد كان بمكة قوم من النصارى يكتبون بالسريانية ، فلا يستبعد

---

(١) كتاب نسب قريش (ص ٢٠٧) .

(٢) ابن الاثير ، أسد الغابة (٥ / ٨٨) ، طبقات ابن سعد (١ / ١٣٠ ، ٥٨١) ، الإصابة (٦/٣١٧) . Ency., IV, P, 1121., f., Caetani, Annali, P. 129, 155, 180, f, Lammens, in Recherches de Science des Religions, VIII (1918) 18, Sprenger, Leben; I, S. 128 ff.

(٣) نسب قريش (ص ٢٠٨) .

(٤) نسب قريش (ص ٢١٠) .

(٥) التجريد « باب كيف كان بدء الوحي » ، (١/٥) ؛ الأغاني (٣ / ١٤) ، البلاذري (١ / ١٠٦) .

(٦) عمدة القارىء (١٩ / ٣٠٤) .

تعلمه الكتابة والسريانية منهم . وقد كان القلم الارمي هو القلم الشائع في بلاد الشأم وبين النصارى في هذا العهد . وقد تعلم نفر آخر السريانية والقلم السرياني من نصارى بلاد الشأم والساكنين في الحجاز ، كما لا أستبعد تعلمه اللغة العبرانية والقلم العبراني من اليهود . فقد كان يهود يثرب يعرفونها ويكتبون بها ، ويقرأون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ولغيرهم ، وذلك في أيام الرسول (١) . فلا يستبعد تعلم ورقة السريانية والعبرانية والقلمين العبراني والسرياني وتفسير الأناجيل أو بعض أسفار العهد القديم بالعربية لمن يعرف اللغتين .

وقد ورد في كتب السير والأخبار : أن بقية الأحناف ، كانت تعرف العبرانية أو السريانية ، وأنها كانت قد قرأت كتب أهل الكتاب ، حتى قيل إن أختاً لورقة بن نوفل كانت تقرأ تلك الكتب . واذا صح ذلك ، فانه يدل أنها كانت تعرف السريانية أو العبرانية ، أو أنها وقفت عليها مفسرة بالعربية . وللاحتمالين أهمية كبيرة بالطبع في الوقوف على الحياة الثقافية والعلمية عند الجاهليين .

وقد فسر بعض المستشرقين عدم اسلام ورقة باستنكافه من الايمان برجل أصغر منه سناً وأحدث منه دعوة في نبذ الشرك والايمان باله واحد أحد (٢) . وقد بنى حكمهم هذا على تلك الأخبار التي تشير الى أنه عاش بعد نزول الوحي على الرسول الى السنة الثانية أو الثالثة منه ، والى عدم ورود خبر يفيد أنه دخل في الاسلام . وقد ورد في الحديث أنه يحشر يوم القيامة ، وهو في ملابس بيض . ولم يرد فيه ما يفيد أنه كان من المسلمين ولو كان قد أسلم لذكر في طبقات الصحابة ومع المسلمين الأولين .

وذكر أنه كانت لورقة أخت اسمها « قتيلة بنت نوفل » ، وكانت مثل أخيها تنظر في الكتب (٣) . أي الكتب القديمة ويريدون بها كتب أهل الكتاب .

وقد ذكر الطبري أن المراد بـ « الناموس الأكبر » جبريل (٤) . ولفظة « ناموس » من الألفاظ التي ترد في اليهودية وفي النصرانية ، ولذلك يرى بعض

---

(١) التجريد (١ / ٩٦) ، « باب تفسير القرآن » .

(٢) Ency., IV, P. 1122

(٣) البلاذري (١ / ٨٠) .

(٤) تأريخ الطبري (٢ / ٢٠٧) .

المستشرقين أن ورقة إنما تعلمها من النصارى أو اليهود . وهي (نوموس Nomos) فى اليونانية . ولها معان عديدة ، منها الشريعة ، والكتب المقدسة ، وكتب الوحي (١) . وأن معنى كتب الوحي والكتب المقدسة ينسجم مع خبر ذهاب خديجة الى ورقة وقوله لها : « لقد جاءه الناموس الأكبر » الذي كان قد جاء موسى . وقد رأى هؤلاء المستشرقون أن المراد بذلك الكتب المقدسة المنزلة على موسى وعلى بقية الأنبياء والرسل بحسب الديانة اليهودية والنصرانية (٢) .

وكانت خديجة لما عرفته عن زوجها من صدق اللهجة ومن أمانته أول من صدق به وآمن ، فكانت بايمانها هذا أول المسلمين . وقد خفف ايمانها به ودخولها فى الاسلام من آلام الرسول وأحزانه ، وكانت « تثبته وتخفف عليه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس » (٣) . وتقدم اليه كل ما لديها من معونة معنوية ومادية ، لم تضن عليه بمالها وبما كان عندها من ثروة ، بل لقد اشعرته أن كل ما عندها هو ملك له ، وأنه له يتصرف به كيف يشاء . وقد كان لمساعدتها هذه ومعاونتها له قبل الرسالة وبعدها أثر كبير فى الدعوة وفى حياة الرسول .

لقد كانت خديجة في الواقع مؤمنة بالرسول معتقدة بصدقه ، لما رأته فيه من الجد فى القول والاخلاص فى دعوته وفي لوم قومه وفي تفكيره الذي استولى عليه . كانت مؤمنة به قبل رسالته . فطبيعي أن تؤمن بما قاله الرسول لها من نزول الوحي عليه ، ومن وجوب تبليغه رسالته هذه للناس . فآمنت به ، وساعدت على نشر رسالته وفي إبلاغ دعوته أبناء قومه . وقد كان لمنزلتها فى مكة ولمنزلة قومها أثر ولا شك ، في ثني اولئك المتغطرسين ملأ مكة عن الاشتداد فى ايذائهم لزوجها ومن إلحاق الأذى والشر به .

وسر الرسول بهذا الصوت الذي سمعه ، ملقياً الوحي عليه ، وحي الدعوة والرسالة ، وابتداء القرآن . وصار كل همه بعد أن هدأ واستقر رؤية صاحب ذلك الصوت ، والاستماع الى صوته ، ينزل عليه بالوحي ليبلغه للناس . فخرج ليراه ، وليسمع منه شيئاً ،

(١) تأريخ الطبري (٢ / ٢٠٧) .
(٢) M. watt, P. 51, Ency. of Islam, Vol., III, PP. 844.
(٣) سيرة ابن هشام (١ / ٢٥٧) « طبعة البابي » .

وأخذ منذ ذلك الحين ينتظر اتمام الرسالة بعد أن أبلغ بنزولها عليه من دون سائر البشر ، وبأنه نبي ورسول من عند الله رب العالمين .

وكان أول من أسلم بعد خديجة ، علي بن أبي طالب ، آمن به وهو ابن عشر سنين ، أو أقل من ذلك بقليل أو أكثر سنة ؛ وكان في بيت النبي وحجره . أخذه من عمه ليخفف عنه (١) ، فكان بمثابة الوالد الشفيق له . رأى ولا شك الرسول وهو يقص على خديجة خبر رسالته ؛ ويحدثها بنبوته ، وشاهده وهو راقد في فراشه بعد نزول الوحي عليه في غار حراء ، فآمن به كما آمنت به خديجة ، واتبعه فكان بذلك أول المسلمين الذكور .

وتذكر بعض الروايات أن علي بن أبي طالب رأى النبي وخديجة تصلي معه . « فقال : ماهذا يامحمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعلي ، هذا دين الله الذي اصطفاه واختاره ، وأنا أدعوك الى الله وحده ، وان تذر اللات والعزى ، فانهما لاتنفعان ولا تضران . فقال علي : ماسمعت بهذا الدين الى اليوم ، وأنا أستأمر أبي فيه. فكره النبي صلى الله عليه وسلم أن يفشى ذلك قبل استعلان أمره . فقال : ياعلي ، إن فعلت ما قلت لك، وإلا فاكتم ما رأيت . فمضى ليلته . ثم غدا على رسول ، الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أعده علي ماقلت . فأعاده . فأسلم ، ومكث يأتي رسول الله صلى الله عليه ، فيصلي معه على خوف من أبي طالب » (٢) .

وباسلام علي صار الرسول يصلي ومعه في صلاته خديجة وعلي ، يصلي بهما في بيته وفي خارج بيته في ضواحي مكة . وقد ذكر « عفيف الكندي» أنه كان في [منى] عند العباس بن عبدالمطلب ، فرأى الرسول وخديجة وعلياً وقد جاؤوا الى هناك واخذوا يصلون . فعجب « عفيف » من ذلك ، وقال لصاحبه وصديقه : « ويحك ياعباس ، ماهذا الدين ؟ قال : هذا دين محمد بن عبدالله ابن أخي ، يزعم ان الله بعثه رسولاً . وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه ، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه » (٣) .

---

(١) ابن هشام (١ / ٢٦٢ وما بعدها) ، « طبعة البابي » .
(٢) البلاذري (١/ ١١٢ وما بعدها) .
(٣) عيون الأثر (١ / ٩٣) .

وكان زيد بن حارثة الكلبي ثاني من آمن برسالة محمد من الذكور ، وقد عرف أمداً بـ « زيد بن محمد » ، وعاش في بيت الرسول وفي رعايته وكنفه . ذلك أن خيلا من بني القين بن جسر أصابت زيداً ، وعمره يومئذ ثماني سنين ، فساقته الى « سوق حباشة » وباعته هناك ، وصار في ملك حكيم بن حزام بن خويلد ، ثم رأته خديجة عنده فاختارته وصار لها . ثم وهبته لزوجها محمد قبل الرسالة ، فتبناه وأشهد قريشاً على ذلك على عادة العرب ، قائلاً لها : اشهدوا أن هذا ابني وارثاً وموروثاً ، فعرف فيه . وظل يعرف بزيد بن محمد ، الى أن نزلت الآية : « أدعوهم لآبائهم » (١) ، وقال : أنا زيد بن حارثة . وكان والده حارثة قد جزع على ولده جزعاً شديداً ، وفتش عنه طويلاً حتى سمع أنه عند محمد وذلك قبل الوحي ، فجاء اليه ليأخذه منه ، وكلم محمد زيداً في الذهاب مع والده قائلاً له : إن شئت فأقم عندي ، وإن شئت فانطلق مع أبيك ، وتوسل والده الى ابنه بأن يذهب معه ، ولكنه أبى وفضل البقاء في بيت محمد . فلما نزل الوحي آمن به وصدقه ، فكان ثاني المسلمين الذكور (٢) .

ولما كانت الآية : « أدعوهم لآبائهم » وهي من سورة الأحزاب ، آية مدنية ، فان هذا يعني أن حارثة بقي يدعى « زيد بن محمد » الى ما بعد الهجرة ، الى أن نزل الوحي بنسبته الى حارثة الكلبي أبيه .

وباسلام خديجة وعلي وزيد ، صار بيت محمد أول بيت دخل أهله في الاسلام ، وأول بيت مسلم عرف في التاريخ ، وأشرف مكان سكنه انسان في نظر المسلمين. سكنه الرسول وهو في أشد الأوقات حرجاً . ونزل الوحي عليه وهو فيه ، ولم يغادره إلا مضطراً فراراً من قريش ، مهاجراً الى المدينة . وفيه صلى هو وزوجه وعلي وزيد ، فكان بذلك أيضاً أول مسجد في الاسلام .

أما أبو بكر ، عتيق بن عثمان بن عامر المعروف بأبي قحافة ، فكان أول المصدقين برسول الله من غير أهل بيته . كان صديقاً للرسول ومن المتصلين به ، وكان تاجراً ذا خلق

---

(١) الاحزاب ، الآية ٥ .

(٢) ابن هشام (١ / ٢٦٤ ، ٢٦٦) ، الطبري (٢ / ٢١٥) ، امتاع الاسماع (١ / ١٥) .

معروف . فلما عرض الرسول عليه الاسلام ، وحدثه بخبر الوحي ونزول جبريل عليه بالرسالة ، استجاب له من غير تردد ، وصدق بنبوته ، وأعلن اسلامه ، فكان من السابقين . وقد ذكر أن الرسول قال : « مادعوت أحداً الى الاسلام ، إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلا ماكان من أبي بكر بن أبي قحافة ماعكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه » (١) .

وموضوع من كان أول الناس إسلاماً ، ومن كان أقدم من غيره في الاسلام ، من الموضوعات التي استغلتها العواطف والنزعات السياسيه فيما بعد ، كما استغلت أموراً أخرى ، لم يكن الصحابة من المتقدمين والسابقين في الاسلام يفكرون فيها ويقيمون لها وزناً . روى الطبري عن محمد بن سعد . قال : « قلت لأبي : أكان أبو بكر أولكم إسلاما ؟ فقال : لا . ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين ، ولكن كان أفضلنا إسلاماً » (٢) . لقد كان عمل الانسان وفعله هو الفضل ، أما الترتيب والتقدم والتأخر ، فلا قيمة لها بالنسبة الى العاملين المخلصين .

ويوم أسلم أبو بكر ، أخذ يعمل على نشر الاسلام بين أصحابه وأصدقائه ، ومن يحضرون مجلسه من خاصته . حدث من اطمأن اليه ووثق برجاحة عقله بخبر دخوله في الاسلام وايمانه بصدق دعوة الرسول وبرسالته فى الاعتقاد باله واحد ، وبهجره الأوثان . وشرح لهم ماتعلمه من الرسول ، فآمن بايمانه نفر ، هم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان (٣) ، وجاء بهم الى رسول الله ، فأسلموا على يديه ، وأخذوا منه قواعد الاسلام وشيئاً مما نزل من القرآن . فكان لهؤلاء النفر مع من سبقهم ، وعددهم جميعاً ثمانية ، شرف السبق واستحقوا بذلك شهادة السابقين الأولين الذين سبقوا الناس في الاسلام (٤) .

---

(١) ابن هشام (١ / ٢٦٨) ، جوامع السيرة (ص ٤٥) ، ابن سيد الناس (١ / ٩١) ، البداية والنهاية (٣ / ٣٧) ، تأريخ الخميس (١ / ٢٨٦) ، الإمتاع (ص ١٥) .

(٢) تأريخ الطبري (٢ / ٢١٥) .

(٣) جوامع السيرة (ص ٤٦) .

(٤) عيون الأثر (١ / ٩٥) ، ابن هشام (١ / ٢٦٩) ، جوامع السيرة (ص ٤٥ وما بعدها) .

وأسلم بعد هؤلاء الثمانية، وبتأثيرهم، جماعة هم: أبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح، وأبو سلمة عبدالله بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبدالله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر، وهي يومئذ صغيرة، وخباب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص أخو سعد، وعبدالله بن مسعود، ومسعود بن القاري، وسليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعياش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة، وعامر بن ربيعة العنزي، وعبدالله بن جحش، وأخوه أبو أحمد جحش، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث بن معمر، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه خطاب، وامرأته فكيهة بنت يسار، ومعمر بن الحارث بن معمر، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنحام نعيم بن عبدالله بن أسيد، وعامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، وخالد بن سعيد بن العاص. وامرأته أمينة بنت خلف، وحاطب بن عمرو، وأبو حذيفة مهشم بن عتبة، وواقد بن عبدالله، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان المعروف بالرومي (١)، وأبو ذر الغفاري، وأبو نجيح السلمي، وعتبة بن مسعود أخو عبدالله بن مسعود (٢). هؤلاء كانوا السابقين الى الاسلام، والحائزين على شرف التسجيل في قائمة المسلمين الثانية في قوائم قدماء المسلمين من أصحاب العقيدة والايمان بعد القائمة الأولى، وفي أولها اسم خديجة ثم الثلاثة الأولون، ثم الخمسة المذكورون.

ولا يعني ورود الأسماء المتقدمة على النحو الذي ذكرته أنها رتبت بحسب تواريخ دخول من ذكرت في الاسلام. فبين المؤرخين خلاف في تواريخ اسلام السابقين الى الاسلام والمتقدمين فيه. وقد أورد الطبري روايات تفيد أن أبا ذر وعمرو بن عنبسة «كلاهما كان يقول لقد رأيتني ربع الاسلام، ولم يسلم قبلي الا النبي وأبو بكر

---

(١) ابن هشام (١ / ٢٦٩ وما بعدها)، عيون الأثر (١ / ٩٤ وما بعدها).

(٢) عيون الأثر (١ / ٩٨)، جوامع السيرة (ص ٤٥ وما بعدها.

وبلال . كلاهما - أي أبو ذر وعمرو بن عنبسة - لا يدري متى أسلم الآخر ، كما أورد روايات تشير الى اسلام أشخاص جاء ترتيبهم متأخراً في هذه القائمة (١) . وسبب هذا الاختلاف هو ما ذكرته مراراً من أن القوم لم يكونوا يومئذ يعنون بموضوع تثبيت الحوادث وتدوين التواريخ ، وأن التدوين لم يتم إلا بعد أمد ، فلم يكن أمام المدونين الا الرجوع الى ذاكرة من تبقى من الصحابة المتأخرين الذين كانوا شباناً في عهد الرسول، أو من التابعين ولم يكن هؤلاء أسهموا في الأحداث وشهدوا مولد الاسلام ، والذاكرة لا تعي الأخبار ولا تحافظ عليها أمداً طويلاً . ثم إن المعاصرين لا يهتمون عادة بالأحداث ، لأنها في نظرهم أمور اعتيادية ، ولم يكن يأتي على بالهم أن شأنا سيكون لها ، لهذا لم يعنوا بها، وموضوع حفظ أسماء المتقدمين في الاسلام ، بحسب تواريخ اسلامهم باليوم والشهر والسنة ، موضوع من تلك الموضوعات التي لم يكن لها كبير اهمية في صدر الاسلام . فهم اذ أسلموا فانما أسلموا تقرباً الى الله وعن ايمان وعقيدة . لم يسلموا طمعاً في دنيا سينالونها ولا في ملك أو كسب أو سياسة يستغلونها .

وبين الذين أسلموا أناس عرفوا بالوجاهة في قومهم وبالثراء وبتملكهم المال . ومن بين الأغنياء : أبو بكر ، وعثمان بن عفان ، وعبدالرحمان بن عوف وكان تاجراً كثير الأسفار بالتجارة . وقد وضع هؤلاء منذ أسلموا كل ما في أيديهم في خدمة دينهم وعقيدتهم ، وفي نشر الاسلام ومساعدة المسلمين المحتاجين ، وفي شراء رقاب الرقيق لفك أسره . وبهذه المساعدات المادية القيمة قووا الاسلام وثبتوه ونصروه ودعموه . فكان لها - بالطبع - تأثير كبير في الانتصار على الوثنيين .

(١) الطبري (٢/ ٢١٥) ؛ « عن عمرو بن عنبسة . قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وهو بمكة مستخفيا، فقلت من أنت؟ قال نبي ، قلت وما النبي؟ قال رسول الله ،قلت الله أرسلك؟ قال نعم ، قلت بم أرسلك ؟ قال بأن نعبد الله ونكسر الأوثان ونصل الأرحام ، قلت نعم ما أرسلت به ، فمن تبعك ؟ قال حر وعبد، يعني أبا بكر وبلالا. فكان عمرو يقول : لقد رأيتني وأنا رابع أربعة ، فأسلمت وقلت أتبعك يا رسول الله . قال: لا ، ولكن الحق بقومك » ، تأريخ الاسلام، للذهبي (١ / ٨١) ، جوامع السيرة (ص ٤٥ وما بعدها) .

كما كان بين المسلمين أناس عرفوا بالشجاعة وبعدم المبالاة في القتال وباجادتهم الرمي. ومن الرماة المعروفين مسعود بن ربيعة القاري (١). وأناس عرفوا بتحمل الشدائد والصبر على التعذيب مهما كان شديداً، فصبروا ورابطوا، لم تضعف عزيمتهم، وقد صار تحمل هؤلاء العذاب سبباً في إسلام من قام بتعذيبهم أو شهده، فتراجعوا عن وثنيتهم، واستغفروا وتابوا، ودخلوا في دين من عذبوا في سبيل الله.

وبين الذين ذكرت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، كان من السابقين في التوحيد، ومن بيت عرف التوحيد ودعا اليه وحارب الأوثان. وكان أبوه زيد بن عمرو من الداعين الى التوحيد قبل رسول الله، ومن العائبين على قومهم تقربهم الى حجارة لا تسمع ولا تجيب. وكان من القارئين الكاتبين، الواقفين على كتب اليهود والنصارى، ولكنه لم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وانما كان يدعو الى التوحيد الخاص، التوحيد الذي ينادي به الابراهيميون، أو الحنفاء، فأولع به عمه الخطاب من سفهاء مكة، وسلطهم عليه، فآذوه، ثم أخرجوه من بينهم، ونفوه عن بلده، وهاجر الى بلاد الشام. وتوفي هناك في زمن غير بعيد عن الاسلام (٢).

وقد اسلمت باسلام سعيد امرأته فاطمة بنت الخطاب، بنت ذلك الرجل الذي كان السبب في إيذاء زيد بن عمرو بن نفيل وفي هجرته عن مكة، والتي صارت من جملة الأسباب في دخول أخيها عمر بن الخطاب في الاسلام فيما بعد (٣).

وكان بين هؤلاء المسلمين نفر كانوا مملوكين، أسروا أو نهبوا فبيعوا في الأسواق، فصاروا ملكاً لمن اشتراهم. منهم: عامر بن فهيرة، وهو مولد من مولدى الأسد، وكان أسود، اشتراه أبو بكر، وأعتقه. ومنهم: واقد بن عبدالله حليف بني عدي بن كعب، جاءت به باهلة فباعوه من الخطاب بن نفيل، فتبناه. وعرف بواقد بن الخطاب، فلما نزلت الآية: «ادعوهم لآبائهم» (٤). قال: أنا واقد بن عبدالله. ومنهم صهيب بن

---

(١) ابن هشام (١ / ٢٧٠).

(٢) مروج الذهب (١ / ٥٦ وما بعدها)، جوامع السيرة (ص ٤٧)، Shorter, P. 817.

(٣) جوامع السيرة (ص ٤٧)، طبقات ابن سعد (٣ / ١ ص ٢٧٥ وما بعدها) «طبعة سخو»، Ency. of Islam, Vol., IV, P. 67.

(٤) الاحزاب، الآية الخامسة.

سنان المعروف بالرومي ، مولى عبدالله بن جدعان ، ذكر انه كان أسيراً في أرض الروم ، فاشترى منهم ، ومنهم عمار بن ياسر (١) . شاركوا إخوانهم الذين سبقوهم فى الاسلام من الأحرار ، وأسهموا معهم فى الدفاع عن دين الله ، والتفوا حول الرسول الذي جاء الى العرب والعجم والغني والفقير ، والذيعابت عليه قريش اهتمامه بالفقراء ، والتفاف الضعفاء حوله . والعناية بالفقير والضعيف ، عيب ومنقصة في نظر زعماء قريش .

ويلاحظ أن معظم من أسلم كان من أحداث الرجال ، أو من لدات الرسول أو ممن لا يكبره فى السن كثيراً . أما الشيوخ المسنون ، فلم يستجيبوا لدعوته استكباراً وأنفة ، فللسن عند العرب منزلة ، وهي حكمة وتجارب ، فيقدم المسن على الحدث ، ثم إن العرف أرسخ جذوراً وأعمق أصولا فى نفوس المسنين . كان من العار على المسن تغيير ما هو عليه وما ورثه من آبائه وأجداده . وقد كان جواب أبو طالب للرسول حين دعاه الى الايمان به وهجر الأوثان وترك عبادة الأصنام : « أما دين آبائي ، فان نفسي غير مشايعة على تركه ، وما كنت لأترك ما كان عليه عبدالمطلب ، ولكن انظر الذي بعثت به فأقم عليه ، فوالله لا أسلمتكما مـــا كنت حياً حتى يتم الذي تريد » (٢) . وهكذا سنة الانسان فى زمن الشيخوخة تكره التطور وتأبى التغيير ، ولا تأنس إلا بالمحافظة على القديم ، وعلى تراث جمعته الشيخوخة من حكم السنين .

عثر أبو طالب على ابن أخيه النبي ومعه علي بن ابي طالب ، خارج مكة ، يصليان فى مكان هادىء بعيد عن الناس ، فقال للرسول : « يا أبن أخي ، ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا ابراهيم ، بعثني الله به رسولاً الى العباد ، وأنت ، أي عم ، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابني اليه وأعانني عليـــه . فماذا كان جواب عمه أبو طالب ؟ كان جوابه : أي ابن أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه . ولكن ، والله ، لا يخلص اليك بشيء تكرهه ما بقيت » (٣) .

---

(١) ابن هشام (١ / ٢٧٢ وما بعدها) .

(٢) البلاذري (١ / ١١٣) .

(٣) ابن هشام (١ / ٢٦٢ وما بعدها) ، عيون الأثر (١ / ٩٣ وما بعدها) .

أو هو قال : «هذا حسن، ولكن لا أفعله أبداً . إني لا أحب أن تعلوني استي» (١) .

وليست لدينا تواريخ ثابتة مؤكدة لتواريخ ترتيب اسلام من ذكرنا . ومهما يكن من أمر ، فقد كان إسلامهم جميعاً فى الفترة الأولى من تاريخ الاسلام، ومدتهـا ثلاث سنين أو أربع من ابتداء نزول الوحي ، ولم يكن اسلامهم في زمن واحد ،ولكن كان فى أزمنة مختلفة انحصرت كلها فى المدة المذكورة .

لم يكن عدد المسلمين قد جاوز الأربعين شخصاً فى هذا الزمن ، هم كل من أسلموا خلال هذه المدة : ثلاث أو أربع سنين . وكل ذخيرته وعدته للمستقبل . وهي مدة طويلة كان من الممكن اسلام اضعاف اضعاف هذا العدد لو أن الرسول قام بالدعوة فيها جهاراً . ولكنه لم يكن يومئذ قد كلف وجوب الجهر بالاسلام وبالتبليغ ، إلا لمن وجد فى قلبه ميلاً الى الاسلام ، ولهذا لم يتجاوز المسلمون يومئذ العدد المذكور .

والعدد المذكور قليل اذا قيس الى عدد سكان مكة ، الذين كانوا عدة آلاف . لكنه كان في الواقع قوة وكثرة . قوة ، لأن المسلمين كانوا كتلة واحدة متحدة ، أسلموا عن إيمان وعقيدة ، وبذل الغني منهم كل ماملكه في سبيل الله ، وجعل نفسه في خدمة رسوله ، يخدمه خدمة المولى لسيده ، يرى هذه الخدمة شرفاً له وقربى الى الله . وقـد تنافسوا في ذلك وتباروا ، وساووا أنفسهم برقيقهم الذي أعتقوه في سبيل الله ، وعاملوه معاملة الأخ لأخيه . وكانوا كثرة ، لأنهم كانوا يداً واحدة لايفرقهم طمع ولا حسد ، وكلهم سامع مطيع لكل أمر يصدر من الرسول ، على حين كان أهل مكة زعماء متفرقين متنافسين متحاسدين، تسيرهم أهواء وعواطف ،ليست لهم كلمة واحدة ولا عقيدة واحدة يدينون بها ، ويتبارون في البذل من أجلها . ثم ان المسلمين عازمون على المضي فى الإسلام ونصره واعلائه ، فأما النصر في الدنيا وإعلاء دين الله ، وفي ذلك ثواب الدنيا والآخرة ، وإما الاستشهاد ونيل الجنة . أما أهل مكة ، فلم يجمع بينهم هدف ومثل أعلى ودين يدينون به ، يجعل لهم ثواباً في آخرة وجنة يذهبون اليها إن استشهدوا في سبيل تلك الأصنام والأوثان ، وليس لهم رئيس واحد مطاع ، فهم قلة في العمل ، وإن كانوا كثرة في العدد .

---

(١) السيرة الحلبية (١ / ٣٠٦) .

وكلهم كان يتكتم ويتستر ولا يتظاهر باسلامه ، ولا يعان عنه ، خشية استفزاز قريش ، وقيامها على المسلمين ، وهم بعد قلة ، لاقوة لها ولا عدة ولا قبل لها في مقابلة الكفار . وقد كانت أوامر الرسول اليهم أن يلتزموا هذا الكتمان ، وان يتمسكوا بالصبر ، وألا يدعوا أحداً علناً وجهاراً الى دين الله حتى يأذن الله لهم بذلك . فكانوا امتثالاً لأمر الرسول يأخذون بالحيطة ، ولا يجاهرون أحداً بدين الله إلا بعد تثبت وتأكد من استعداده لتقبل الدعوة ، ومن نفرته من عبادة قومه ، ومن سمو مداركه ، ولا يقيمون شعاراً يفصح عنهم فيؤدي بهم الى التهلكة . وبقوا على ذلك مدة ثلاث سنين أو أربع ، حتى أذن الله لمحمد بانذار عشيرته ودعوة قومه ، وسمح للمسلمين بالاعلان عن أنفسهم والجهر بالدعوة الى الاسلام .

وكان الأمر للرسول أن يقتصر في التبليغ على خاصته ، وعلى من يجد في قلبه ميل الى الاسلام ، لهذا لم يعرض نفسه للناس ، ولم يبلغ رسالته لأهل مكة عامة . بقي على ذلك ثلاث سنين أو أربعاً يدعو الى الله مستخفياً (١) ، ويجتمع بمن آمن به سراً وفي أماكن آمنة داخل مكة في بعض الأحيان ، وفي خارجها في الغالب في الشعاب المنزوية التي لا يرتادها الناس . وكذلك كان أمره الى المسلمين بالتزام الحيطة والحذر والتخفي ، وعدم الاعلان عن الاسلام الى ان يقضي الله أمره . فكانوا اذا أرادوا الصلاة خرجوا فرادى أو ثنى الى الشعاب والبرية ، يصلون على حذر ، ولهم عيون ترى القادم لتنبه المصلين عليه ، فلا يؤخذوا على غرة ، ويظهر أمرهم للناس ، بقوا على ذلك طوال مدة الاستخفاء .

لم تكن قريش في غفلة عن الرسول ، فقد عرفته مجانباً أصنامها بعيداً عن أوثانها ، لا يشاركها أعيادها وأفراحها ، عازفاً عن عبادة قومه ، غير راض عنها . ورأته خارجاً أول نهار كل يوم الى الكعبة ليصلي صلاة الضحى ، وكانت تلك صلاة لا تنكرها قريش . أما في الأوقات الأخرى ، فلم يكن من المألوف عندها رؤية شخص يصلي في الكعبة فيها . فكان اذا صلى في سائر اليوم بعد ذلك ، قعد علي أو زيد يرصد له . وسمعت بخبر نزول الوحي عليه وايمان نفر به من أهله وذوي قرابته ، فلم تنكر عليه لما يقول . « فكان

(١) زاد المعاد (١ / ٢٠) .

اذا مر عليهم فى مجالسهم ، يشيرون اليه ، ويقولون : إن غلام بني عبدالمطلب ليكلم من السماء » (١) . وفقد أبو طالب ابنه عاياً ، فقالت له فاطمة بنت أسد أمه : قد رأيته يلزم محمداً ، وأنا أخاف أن يأتيك من قبل محمد في أمر ابنك مالا تطيقه ، فقال : ماكان ابني ليغتاب علي بأمر . واتبع أبو طالب أثر النبي وأثر علي ، فوجدهما ورسول الله يصلى العصر فى شعب أبي دب أو غيره ، وعلي ينظر له ، فقال لرسول الله : ماهـذا الدين يامحمد ؟ قال : دين الله الذي بعثني به . فدعاه الى التوحيد ، وترك عبادة الأوثان .
فقال أبو طالب : أما دين آبائي ، فان نفسي غير مشايعة على تركه ؛ وما كنت لأترك ماكان عليه عبدالمطلب ، ولكن أنظر الذي بعثت به فأقم عليه ، فوالله لا أسلمتكما ماكنت حيا ، حتى يتم الذي تريد . وقال لعلي : أما أنت يابني ، فما بك رغبة في الدخول فيما دخل فيه ابن عمك . وأتى أبو طالب منزله ، فقالت له امرأته : اين ابنك ؟ قال : وما تصنعين به ؟ قالت : أخبرتني مولاتي أنها رأته مع محمد وهما يصليان في شعب بأجياد؛ أفترى ابنك صبا ؟ . قال أبو طالب : أسكتي ، ودعي عنك هذا ، فهو ـ والله ـ أحق من آزر ابن عمه . ولولا ان نفسي لا تطاوعني على ترك دين عبدالمطلب ، لا تبعت محمداً ، فانه الحليم الأمين الطاهر . فسكتت وبلغ قريشاً ، فراعهم ، وكبر عليهم (٢) .

ونجد في كتب التفسير والسير والتواريخ أخباراً أخرى على هذه الشاكلة ، تفيد علم قريش ووقوفها على دعوة الرسول الى الاسلام ، وأخباره بنزول الوحي عليه لبعض الناس ، وإيمانهم به وتصديقهم رسالته ، وأنه كان يخرج بهم الى الشعاب خارج مكة ، فيصلي بهم صلاة تنكرها قريش ، لأنها ليست من مألوفهم وعرفهم . وكل ماهو خارج عن عرف أهل مكة ومألوفهم ، فانه منكر في نظرهم لا يرضون به . وهي متفقة على أن قريشاً وإن تنكرت لهذه العبادة الجديدة . وانزعجت منها ، ورأت فيها خروجاً على إجماع قريش ، لكنها لم تنزعج منها انزعاجاً شديداً دعاها الى ايذاء الرسول ومن اتبعه ومعاقبتهم . فقد ألفت خروج بعض المكيين بين الفينة والفينة على عبادة قومهم واعتزالهم أصنامهم واوثانهم ، ودعوتهم الى ديانات غريبة عن مكة لم تكن معروفة فيها . ولاسيما

---

(١) ابن سعد (١ / ١٩٩) « طبعة بيروت » ، البلاذري (١ / ١١٥) .
(٢) البلاذري (١ / ١١٣) .

أولئك الذين كانوا قد خالطوا اليهود والنصارى ، ووقفوا على أرائهم وديانتهم ، وسافروا الى الخارج ، فزاروا العراق وبلاد الشأم ، واختلطوا بالأعاجم ، ووقفوا على ثقافاتهم وعلى مختلف الآراء . فلما جاؤوا الى مكة جاؤوا بآراء جديدة وبأفكار غريبة عنهم استوردوها ، فأرادوا نشرها وإدخالها بين قومهم . فلما جوبهوا بالأمر الواقع وباعراض الناس عنهم ، عادوا الى حظيرة قومهم ، ونسوا مادعوا اليه . أما الذين ثبتوا ، ودعوا عن عقيدة وايمان ، وأصروا على رأيهم ، فقد اضطروا الى الانزواء والاعتكاف وعلى تجنب قومهم ، واعتزالهم للانصراف الى عبادة الله ، فلم تتحرش بهم قريش أيضاً ولم تؤذهم ، بل تركتهم وشأنهم لهم دينهم ولقريش شأنها ودينها ، إلا الذين أبوا إلاعيب آلهة قريش والاستخفاف بها ، وبعقيدتها وبعرفها ومألوفها ، فقد آذتهم بعد محاولات قامت بها لنهيهم عن التعرض بمعتقداتهم وآلهتهم وأخرجتهم من أرضها ، وكان آخر من اخرجته ، وكان من هذا النوع زيد بن عمرو بن نفيل . فلما كان الاسلام ، ظنت أنه حركة من تلك الحركات ودعوة من تلك الدعوات ، ثم لا تلبث أن يمل صاحبها ويتغلب عليه اليأس ، فيقطع أمله ، ويتراجع كما تراجع من ذكرنا . أو يقبع في كهف أو زاوية ، متنسكاً تنسك الأحناف .

ثم إن من سجايا العربي وطبائعه ، التسامح فى الاختلاف فى الرأي ، وبغض التقاتل والتخاصم على خلافات لا تؤذي الشرف ولا تخدش مكانة الانسان في مجتمعه . ولذلك هضم مجتمعه اليهودية والنصرانية ومختلف أنواع الوثنية اضافة الى عقائد أخرى كان اتباعها قلة ، بل أقل من القلة . ولكن أصحابها عاشوا مع ذلك فى إخاء ووئام مع المخالفين لهم في عقيدتهم ، وكأنهم ذوو أكثرية ، لا فرق بينها وبين غيرها فى شيء . وما قيل عن اضطهاد نصارى نجران أو يهود يثرب ، لم يكن من فعل العرب ، بل من صنع وعمل التعصب السياسي العالمي الذي وبأ جزيرة العرب ، ودخل عليها من الروم والساسانية ، وكانوا قد تباروا فى اضطهاد الأقليات ، ونقلوا عدوى مرضهم هذا الى جزيرة العرب لعوامل سياسية بحثت عنها فى الأجزاء السابقة من تأريخ العرب قبل الاسلام ، ولعوامل أخرى لا مجال للبحث فيها في هذا المكان .

وللعربي سجية أخرى ، هي فى نظره إيمان ودين . وأريد بها رابطة الدم ، فعلى العربي نصرة من يرتبط به برابطة الدم ومساعدته ، ظالماً كان ذلك الشخص المراد نصرته أو مظلوماً . وإلا عرض قريبه المتمكن نفسه للعار والشنار . وقد أثرت هذه الرابطة تأثيراً كبيراً فى السياسة العربية فى الجاهلية وفى الاسلام . لذلك لم يكن من السهل على قريش إيذاء الرسول في هذا العهد وهو من أسرة كريمة معروفة لها فى مكة مركز ومقام، ولم يكن من السهل عليها ايذاء المسلمين وبينهم من كان من أرقى الأسر وأشرفها حسباً ونسباً . ثم ـ لم ـ تؤذي قريش الرسول والمسلمين . ولم يبدر من الرسول ولا من المسلمين مايستوجب الايذاء ؟ ولم يصدر من النبي مافيه عيب بعقيدة قريش ودينها ، بل كان الرسول كما قلت حريصاً على الدعوة الى دين الله بسلام وبالتي هي أحسن كما يظهر ذلك من أقدم السور التي نزلت بمكة ، وكلها حث وأمر للمسلمين أن يتخلقوا في الدعوة الى دين الله بالتعقل وبأخلاق الاسلام .

وقد عاد أهل مكة فاستعملوا اللفظة التي سبق أن اطلقوها على كل خارج على عبادة قومه ودينهم هي لفظة « صبأ » ، فقالوا : « صبأ محمد » ، يريدون بذلك خروجه عن دينهم وكل خارج عن دينه فهو « صابىء » ، ويسمون من يدخل في دين الاسلام مصبوا، وكلهم صباة (١) .

وكانوا اذا أرادوا الاشارة الى الرسول ، قالوا عنه : « هذا الصابىء » (٢) . ولما أسلم عمر بن الخطاب ، قالت قريش : صبأ عمر (٣) وكان عمر نفسه قد قال يوماً عن الرسول وذلك قبل دخوله في الاسلام : « أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرق قريشاً ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله » (٤) .

واذا صحت العبارة التي نسب أهل الأخبار قولها الى أبي طالب ، وهي : « ماهذا الدين يامحمد؟ » ، فانها تدل على أن الجاهليين استعملوا لفظة « الدين » بالمعنى الاصطلاحي

---

(١) المفردات (ص ٢٧٥) ، شرح القاموس (١ / ٨٦) .

(٢) الروض الأنف (١/١١٦) « الهامش » « سيرة ابن هشام » ، « فقلت : أين هذا الذي تدعونه الصابيء ؟ فأشار إلي . فقال : الصابيء ... قالتا : الصابيء بين الكعبة وأستارها ... » ، صحيح مسلم (٧/١٥٢ وما بعدها) .

(٣) الروض الأنف (١/٢١٦) الهامش سيرة ابن هشام ، (١ / ٣٦٦) .

(٤) المصدر نفسه : الهامش ، سيرة ابن هشام (١/٣٦٦) .

المفهوم منها عند أهل الأديان، وبالمعنى الذي يحدده العلماء (١)، أي في مقابل لفظة « Religion » في الانكليزية (٢). وللفظة معنى آخر هو يوم الحشر، وذلك في آية «مالك يوم الدين» (٣). وأما الديان، فانها بمعنى: القاضي. وقد مدح الأعشى « الأعشى الحرمازي » الرسول بقوله:

ياسيد الناس وديان العرب (٤).

وقد زعم بعض المستشرقين أن لفظة « الدين » من أصل أعجمي، وأنها من الألفاظ المعربة، أصلها فارسي هو « دينا Daena » (٥). وقد دخلت في العربية بمدة طويلة قبل الاسلام. وترد لفظة «.دين» بمعنى الحشر في الارمية والعبرانية كذلك. وهي « دينو Dino » في الارمية، وتقابل لفظة « Daino » الارمية لفظة الديان في العربية. والله هو الديان، وهي بمعنى القاضي في هذه اللغة. وتعني لفظة « دين » القضاء في اللغة البابلية. وتعني « بل ديني Beldini » معنى سيد القضاء (٦).

وسارت الأمور سيراً لا بأس به بين المسلمين وقريش، لم يعكر صفوها نزاع ولا قتال. المسلمون حذرون خائفون، يخشون جهال قريش وحمقاها، وقريش تنظر الى المسلمين متعجبة، ترى ماذا يفعل هؤلاء الذين يتركون الأرض ويناجون السماء، يبتعدون عن الأصنام وهي قريبة منهم تلمس وتسمع، وينظرون الى رب في السماء، وهو بعيد عنهم. لا يسمع ولا يجيب. أليس هؤلاء مجانين؟ وظل كل يراقب الآخر، وهو لا يضمر له شراً، ولا يريد أن يقع بينهما شر. وقد كانت قريش تكره الفتن، وتنفر من الخصومة، وتبتعد جهد إمكانها عن الفوضى، لأثرها في الأمن، وفي استقرارها، وعلى الاستقرار تتوقف حياتها، فهي مدينه تجارة ودين. ومن طبيعة التاجر ومصلحته حب الاستقرار والأمن. ومن طبيعة المدن المقدسة ومصلحتها، المحافظة على الأمن

(١) المفردات (١٧٥).

(٢) Dictionary of Islam, P. 84.

(٣) سورة الفاتحة، الآية ٣.

(٤) برصوم (ص ٦٠)، الفائق (ص ٤٢٣) شرح القاموس (٩ / ٢٠٨).

(٥) Handworterbuch des Islam, S. 98, Grundriss der Iran. Philol., I, I, S. 107, 270, I. 2, S. 26, 170, II, S. 644, Juynboll, Handbuch des Islamischen Gesetzes, S. 40, 58.

(٦) برصوم (ص ٦٠).

وتقديسه ، وضمان الراحة والاستقرار للمؤمنين القادمين من مختلف الأنحاء ، والمسلمون يكرهون الشر ويبتعدون عنه وينهون عنه ويحاولون جهدهم عدم اثارة قريش . ولكن هل كان من الممكن استمرار الحال على هذا المنوال الى أجل بعيد ؟

الجواب : لا . فسكوت قريش ، إنما كان عن استصغار وعدم مبالاة وعدها الاسلام شيئاً غريباً ، وحركة طائشة لا خطر لها ، لا تلبث أن تذهب كما يذهب الزبد جفاء . ولم تكن لتسكت لو علمت أن الاسلام دين جاء لأهل مكة ولغير مكة ، وأنه جاء لاجتثاث الأصنام والأوثان وكل ما يتعارض مع عبادة الله الواحد الأحد ، وأنه سيزيل الأصنام البشر وكل من يدين بالجبروت والطاغوت ويمشي على الأرض مختالاً فخوراً ، فكان لابد من مجيء يوم تظهر فيه الخصومة ، ويقع فيه الشر ، فاما الوثنية ، وإما الاسلام.

وقد جاء ذلك اليوم حين أخذت قريش تقتص آثار النبي والمسلمين ، إما على سبيل الاستطلاع للوقوف على حالة هذه الشيعة الغريبة التي اعتزلت عبادة قومها ولجأت الى ديانة غير معروفة لديها ، وإما على سبيل الوقوف على أهدافها وعلى مدى انتشار حركتها والخطر الذي سيتولد منها على قريش . مهما يكن من أمر ، فقد أخذ نفر من أهل مكة ، وأكثرهم من الجهال الفحاش ، يتعقبون أثر المسلمين ، ويتسقطون أخبارهم ويتقصون مواضع اجتماعاتهم وأوقاتها ، ليراقبوا حركاتهم وليروا ماهم فاعلون . فكان عملهم هذا الشرارة التي أضرمت نيران الفتن بين المسلمين وقريش . جاء في رواية : بينا طليب بن عمير وحاطب بن عمرو يصليان في شعب بأجياد الأصغر ، إذ هجم عليهما ابن الأصداء وابن الغيطلة وكانا فاحشين ، فباطشوهما ، ورموهما بالحجارة ساعة حتى خرجا فانصرفا» (١) .

وفي خبر آخر : خرج جماعة من المسلمين الى شعب أبي دب للصلاة ، فيهم سعد ابن أبي وقاص ، فظهر عليهم نفر من المشركين ، وقد كانوا يرصدونهم ويتبعون آثارهم ، وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى بطشوا بهم . فأخذ سعد لحي

---

(١) البلاذري (١/١١٧) .

جمل ، فضرب به رجلاً من المشركين ، فشجه شجة أوضحت ، وانكسر المشركون ، وقوي أصحاب سعد ، فطاردوهم حتى خرجوا من الشعب . فكان هـذا الدم أول دم أهريق في الاسلام (١) .

هذان الحادثان وأمثالهما وان بدوا وكأنهما عبث من عبث الصبيان ، لكنهما تركا أثراً في نفوس جهال مكة . وحمل الرسول على نصح المسلمين بالتخفي والتزام البيوت مدة من الزمن حتى تستقر الأحوال وتهدأ الأعصاب ، ودخل هو وجماعة من أصحابه بيت الأرقم بن الأرقم ، وبقي فيه مختفياً مع جماعته لا يخرج ، الى أن أذن الله له بالخروج . وقد كان بعض المسلمين الذين بقوا خارج البيت يراجعون دار الأرقم لتلقي أوامر النبي ، وتنفيذ ما يحتاج اليه . وفي هذه الدار أيضاً أسلم بعض المسلمين . قال عمار بن ياسر : لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ، والنبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فقلت له : ما تريد ؟ فقال : ما تريد أنت ؟ قلت : أريد أن أدخل على محمد ، فأسمع كلامه . قال : وأنا أريد ذلك . فدخلنا عليه ، فعرض علينا الاسلام ، فأسلمنا . ثم مكثنا يومنا على ذلك ، حتى أمسينا ، ثم خرجنا مستخفين . فكان إسلام عمار وصهيب بعد إسلام بضعة وثلاثين رجلاً (٢) .

وتقع دار الأرقم هذه على الصفا ، وقد عرفت بدار الخيزران أيام العباسيين ، إذ اشتراها المنصور ، ثم اعطاها ولده المهدي ، ثم أعطاها المهدي الخيزران أم ولديه الهادي والرشيد (٣) . أما قبل ذلك ، فقد عرفت بدار الأرقم وبدار الاسلام . وقد احتفظ بنو الأرقم بها الى أن اشتراها منهم المنصور (٤) .

وليس في كتب الأخبار والسير والتواريخ تأريخ مضبوط للوقت الذي استخفى فيه الرسول والمسلمون في دار الأرقم . فالروايات في ذلك متضاربة مضطربة ، ولكن

---

(١) البلاذري (١١٦/١) ، ابن هشام (٢٧٥/١) ، الطبري (٢١٦/٢) .
(٢) البلاذري (١٥٨/١)
(٣) الحلبية (٣١٩/١) ، أخبار مكة (ص ٤٢٤) ، « طبعة لايبزك » ، امتاع الأسماع (١٨/١) .
(٤) Ency. of Islam, Vol. I, P. 435.

المرجح ، على ما يبدو من غربلتها ونخلها ، أنه كان في اواخر السنة الثالثة من النبوة أو في السنة الرابعة ، أي في أواخر العهد الذي تحدثت عنه ، بمعنى المدة التي أخفى الرسول فيها أمره ، وصار يدعو الناس فيها خفية بعد نزول : (يا أيها المدثر) ، ولم يكن الرسول فيها قد أنذر قومه علانية بالدخول في الاسلام (١) .

وقد اتخذ المسلمون الأولون استخفاء الرسول في دار الأرقم حادثاً أرخوا به ، فقالوا : « أسلم فلان قبل دخول دار الأرقم » (٢) ، وقالوا : « إسلام فلان في دار الأرقم » (٣) ، وقالوا مثل ذلك في توقيت إسلام الطبقة الأولى من الصحابة .

والروايات متضاربة في مدة الاستخفاء في دار الأرقم ، فهناك من يجعل مدتها شهراً فقط (٤) . ثم انها متضاربة كذلك في كيفية الاستخفاء ، هل كان استخفاء تاماً عن الناس في تلك الدار فلا يخرج منها احد من المسلمين ولا يظهرون لأحد ، أو كان استخفاء في أوقات قصيرة من النهار ، وذلك في أوقات اجتماعهم بالنبي مثلاً لأجل الصلاة وتوضيح الاسلام . والتبشير بدين الله وقبول أحد فيه ؟

والأرقم بن أبي الأرقم ، مخزومي من آل مخزوم المعروفين بالثروة والغنى في أيامهم بمكة . وأما أمه ، فهي من خزاعة ، دخل في الاسلام شاباً ، فكان من المسلمين الأولين المكافحين المناضلين عن الاسلام ، مع أن أهله كانوا من أشـــد الناس في وقت إسلامه عداوة للاسلام ولمحمد (٥) . ولما وجد حراجة موقف المسلمين بعد تلك الحـادثة المذكورة ، ووجوب الالتجاء الى مكان أمين لا تجرؤ قريش على انتهاك حرمته ، عرض بيته على الرسول ، فكان أول معقل وملجأ أمين له ولأتباعه . وعددهم حتى هذا الوقت لم يكن قد بلغ الأربعين ، فكان في ذلك شرف عظيم في الاسلام . وبفضل مكانة الأرقم في بيته ، وبحكم العنعنات الاجتماعية وعصبية الدم ، تمكن المسلمون من التحصن في هذه الدار بأمان وسلام ، بالرغم مما وقع فيما بينهم وبين جماعة المشركين المذكورين .

(١) الحلبية (١/٣١٩) ، الطبري (٢/٢٠٦)
(٢) البلاذري (١/١٧٦)
(٣) البلاذري (١/١٨٠) .
(٤) السيرة الحلبية (١/٣١٩) .
(٥) امتاع الاسماع (١/١٨) ، Ency. of Islam, Vol., I, P. 434. f.

وإذا استثنينا دار الرسول التي شرفت بسكنى الرسول فيها وبنزول الوحي عليه فيها مراراً وباسلام اول المسلمين فيها ، فصارت بذلك أشرف دار على وجه الأرض في نظر المسلمين ، فان من حق « دار الأرقم » أن تتباهى على سائر الدور الأخرى بكونها « دارالاسلام » ، والمنزل الأول الذي اختاره الرسول ليكون مقراً ومسكناً له وللمسلمين الى حين . مكان أدى ما القى عليه من واجب خير أداء ، فله الحق إذن في أن ينال تلك الدرجة العالية عند المسلمين .

وبخروج الرسول ومن كان معه من دار الأرقم ، اختتم عهد ، وابتدأ عهد . اختتم عهد الاستخفاء والدعوة الى الاسلام سراً وتخفياً ، وابتدأ عهد الدعوة اليه علناً ، دعوة عشيرة الرسول وآله أولاً ، ثم دعوة أهل مكة عموماً وغير أهل مكة للدخول في الاسلام ، وقد أثارت هذه الدعوة العلنية قريشاً بالطبع ، فجاهرت بعداوتها للنبي ولما دعا اليه .

ولا نعلم متى كان خروج الرسول من دار الأرقم ، فكتب السير والتواريخ ساكتة عن ذلك . كذلك لا نعلم عن كيفية اختفائه فى هذه الدار ولا عن عمله وعمل بقية المسلمين فيها شيئاً ، فكتب السير والتواريخ ساكتة عنها أيضاً ، لم تذكر هل كان الرسول يخرج من هذه الدار بين الحين والحين فيذهب الى الكعبة أو الى بيته ، أو أنه كان مختفياً فيها اختفاء تاماً ، فلم يغادرها الى آخر يوم ، وهو اليوم الذي غادرها بأمر نزل عليه ، ولم تتحدث تلك الموارد عن الوحي ، هل نزل عليه فى دار الأرقم أو لا .

إن سكوت هذه الموارد عن هذه الامور شيء مؤسف حقاً ، جعلنا فى جهل عن هذه الحقبة الأولى من تأريخ الرسالة .

وهكذا اختتمت هذه الفترة ، فترة انقطاع الدعوة الى الاسلام إلا للمختصين بالرسول ومن وجد الرسول فيه استعداداً لتقبل الدعوة والايمان به ، بمرحلة جديدة هي المرحلة التي بدأ فيها الصراع الفعلي بين الرسول وقريش . وفيها أخذ رؤساء مكة يقاومون الاسلام ، ويدركون خطره على كيانهم وعلى عاداتهم الموروثة عن آبائهم وأجدادهم انتهت مرحلة التخفي بعد ان دامت ثلاث أو أربع سنين (١) ، وبدأت مرحلة الدعوة العلنية والجهر بها رضي المشركون أو غضبوا .

---

(١) امتاع الاسماع (١/١٥) .

ان علمنا عن مدة الاستخفاء ليس على ماينبغي ويرام من التحقق ، اذ لم تتحدث كتب السير والأخبار عنها كثيراً . مع أنها مهمة ، لأنها تكون أول عهد النبوة ومبدأ نزول الوحي على الرسول ، والمرحلة الأولى من مراحل انتشار الاسلام ، والأساس الذي قام عليه بناء الأمة الاسلامية ، ولهذه الأسباب يطمع المؤرخ في الحصول على معلومات مفصلة مسهبة عنها . وقد كان لقلة عدد المسلمين في هذه المدة وضعف حالهم ، وتخفيهم ، وخشيتهم من افتضاح أمرهم لدى قريش ، وعدم مجاهرة الرسول الملأ بالاسلام وانزوائه مع أصحابه للعبادة والتأمل دخل ، ولا شك فى قلة ما سجل عن هذه المدة في كتب الحديث والسير والتواريخ .

وأود أن أشير الى خبر ورد فى كتب السير يفيد أن الوحي انقطع عن الرسول بعد رجوعه من حراء الى خديجة ، أي في أثناء مدة الاستخفاء هذه ، ومكث ماشاء الله أن يمكث لا يرى شيئاً ، وفتر عنه الوحي ، فاغتم لذلك ، وذهب مراراً ليتردى من رؤوس الجبال شوقاً منه الى ماعاين أول مرة من حلاوة مشاهدة وحي الله اليه . وقد قيل: إن فترة الوحي كانت قريباً من سنتين ، وقيل : كانت سنتين ونصفاً ، وقيل : كانت أربعين يوماً ، وقيل خمسة عشر يوماً وقيل ثلاثة أيام (١) ، ثم تبدى له الملك وثبته ، وبشره أنه رسول الله حقاً . فلما رآه ، فرق منه ، وذهب الى خديجة ، فقال : زملوني زملوني . فأنزل الله «ياأيها المدثر قم فأنذر» (٢) .

وذكر بعض العلماء أن الرسول لما قلق واغتم وكرب من إبطاء جبريل عليه وانقطاعه عنه ، قالت له خديجة : «ماأرى ربك إلا قد قلاك» . فأنزل الله عز وجل : «والضحى والليل اذ سجى . ماودعك ربك وما قلى» (٣) . وذكر بعض آخر أنها نزلت بعد قول المشركين فيه إن ربه قد قلاه وودعه . وذكر بعض الرواة أنها نزلت بعد تبت يدا أبي لهب ، ذلك أن الوحي انقطع عنه بعد نزولها ، فذهبت العوراء أم جميل اليه ، وهي امرأة أبي لهب ، فقالت : ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك . وذكر أن الرسول رمى بحجر

(١) إمتاع الاسماع (١/١٤) ، ابن سعد (١/١٩٦) ، السيرة (١/٢٩٦) .
(٢) إمتاع الاسماع (١/١٤) .
(٣) تفسير الطبري «٣٠/١٤٨» ، الطبري «٢/٢٠٦» .

في إصبعه ، فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم ، فقالت له امرأة : ماأرى شيطانك إلا قد تركك ، وقيل : إن اليهود سألوه عن أصحاب الكهف وعن الروح وعن قصة ذي القرنين ، فقال الرسول : سأخبركم غداً ، ولم يستثن . فاحتبس عنه الوحي . فقال المشركون ماقالوا فنزلت . وورد غير ذلك (١) .

ورأى أكثر العلماء أن سورة الضحى إنما نزلت تكذيباً لزعم قريش المذكور ، ومعنى هذا أن نزولها كان بعد مدة الاستخفاء ، لافي أثنائها ، أي في المدة التي ظهرت فيها عداوة قريش للرسول . ومعنى هذا أن مدة انقطاع الوحي إنما كانت في هذه المدة أيضاً ؛ في هذه المدة التي اشتدت فيها خصومة الكفار له ، فأثر هذا الانقطاع عنه وأحزنه ، فقالت قوالها ، فنزل الوحي بعد مقالتهم هذه تكذيباً لها ، وأفرج عنه .

أما ماورد من أن نزول سورة « الضحى » كان جواباً لقول خديجة من أن « ربه قد قلاه » ، فانه يخالف ماعرف عنها من تشجيعها له ، وتهدئتها له وتثبيته ، وتصديقها به وبكل ماكان يقوله لها ، فلا يعقل صدور هذا القول منها ، لما فيه من تشكيك وإثارة . وقد ورد في خبر آخر أن الرسول قال لخديجة لما ابطأ الوحي عليه : « ان ربي ودعني وقلاني » يشكو اليها ، فقالت : « كلا ، والذي بعثك بالحق ، ما ابتدأك الله تعالى بهذه الكرامة إلا وهو سبحانه يريد أن يتمها لك » فنزلت (٢) . وهو خبر شاذ في نظر كثير من العلماء يضعفونه ، ولا يأخذون به . وأكثرهم على ماذكرت من أن نزول سورة الضحى كان بسبب تهكم المشركين بالرسول ، وادعائهم أن ربه قد ودعه وقلاه على سبيل السخرية والهزء . ويعني هذا نزول هذه السورة بعد الاستخفاء .

لقد كان الايمان بالله واحد وبوجود رب واحد وبنزول الوحي على الرسول ، أول علامة فارقة ميزت المسلمين عن الكفار . ولهذا كانت الشهادتان شهادة : الا إله إلا الله ، وشهادة ان محمداً رسول الله ، هما أول مافرض في الاسلام .

وإذا سألتني عن أهم ماشرع وفرض من أحكام في هذه المدة ، فسيكون جوابي : الصلاة ولا شك ، والصلاة كما هي معلومة ركن من الأركان الخمسة في الاسلام .

---

(١) « ٣٠/١٥٦ وما بعدها » ، القسطلاني « ٧/٤٢٥ وما بعدها » .

(٢) روح المعاني « ٣٠/١٥٨ » .

وقد ذكرت كتب السير والتواريخ أن الصلاة كانت هي التي تجمع بين المسلمين، فكان المسلمون في هذه المدة إذا حان وقت الصلاة خرجوا الى الشعاب خارج مكة متخفين ليصلوا فيها، كما كانوا يصلون متخفين في بعض البيوت خشية وقوف قريش عليهم. وترجع كتب الحديث والسير تأريخ فرض الصلاة الى المرة الأولى التي نزل فيها الوحي، فتذكر أن جبريل كان أول مافعله يوم نزل في غار حراء هو أن علم الرسول كيفية الوضوء وأصوله ثم الصلاة، فصلى الرسول بصلاة جبريل (١).

بل يظهر من بعض الأخبار أن قريشاً كانت لاتنكر الصلاة وقت الضحى، فذكر أن الرسول كان يخرج الى الكعبة أول النهار، ويصلي صلاة الضحى. وكانت تلك صلاة لا تنكرها قريش. أما في الأوقات الأخرى، فلم تكن قريش ترضى بها (٢). ولم يفصح هذا الخبر عن كيفية تلك الصلاة وشكلها، وماذا كان يقال فيها، ومن كان يصليها، قريش كلها أو نفر منها؟ وهل كانت بركوع وسجود، أم كانت مجرد وقوف؟ ولست استبعد صلاة قريش في وقت آخر في البيت الحرام أو في معابد العرب الأخرى.

وقد ورد في خبر عن عبدالله بن الصامت أن أبا ذر الغفاري قال له: «يا ابن أخي، صليت سنتين قبل مبعث النبي، صلى الله عليه وسلم. قال: قلت فأين كنت توجه؟ قال: حيث وجهني الله» (٣). وهذا إن صح يدل بالطبع على أن العرب كانت تعرف الصلاة قبل الاسلام.

أما الصلاة في هذه المدة، فكانت أول ما فرضت على الرسول ركعتين ركعتين كل صلاة (٤). ولما رجع الرسول بعد نزول الوحي عليه وأخبر خديجة بنزوله عليه، صلى بها ركعتين على نحو ما علمه جبريل (٥). وكانوا يصلون الضحى والعصر، ثم نزلت الصلوات الخمس قبل الهجرة. وكانت الصلاة ركعتين ركعتين، ثم نزل تمامها بالمدينة للمقيم، وبقيت صلاة المسافر ركعتين (٦). هكذا كانت الصلاة في بادىء

---

(١) البلاذري «١/١١١»، الطبري «٢/٢١٠».

(٢) البلاذري «١/١١٣»، إمتاع الاسماع «١/١٦ وما بعدها».

(٣) صحيح مسلم «٧/١٥٣» «باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه».

(٤) ابن هشام «١/٢٦٢ وما بعدها».

(٥) البلاذري «١/١١١».

(٦) البلاذري «١/١١٧».

الأمر صلاتين : صلاة فى الضحى وصلاة فى العصر ، وكل صلاة بركعتين .

وقد كانت الصلاة فى هذه المدة صلاة من غير أذان ، ثم أمر به فى السنة الاولى أو الثانية من الهجرة ، أي فى المدينة ، حينما ائتمر رسول الله وأصحابه أن يجعلوا شيئاً للاجتماع للصلاة (١) . ولم تكن الحكمة تشريع الأذان بمكة ، فالأذان اعلان وقوع وقت الصلاة ، ولم يكن من الممكن إعلانها فى مكة ، فالمسلمون قلة ، وكانوا يتخفون من قريش ، والأذان هو ضد الأمر بالتخفي والابتعاد عن كل ما يثير غضب قريش ، ولهذا لم يكن من الممكن الأمر به فى هذا العهد بمكة .

والصلاة من العبادات المعروفة المستعملة فى كل الأديان ، وهي من أركان الدين فى معظمها تقريباً ، وإن اختلفت فى شكلها ومفهومها . ويرى المستشرقون أن لفظة « الصلاة » من الألفاظ المعربة . عربت عن الارمية قبل الاسلام بأمد ، وقد وردت لفظة « صلوات » فى القرآن الكريم بمعنى المصلى والمعبد (٢) . وقد كان السريان يطلقون على كنيستهم « صلوتا » ، ف « صلوات » جمع مصلى ومعبد وما زال نصارى شرقي الاردن يطلقون على كنائسهم « صلوات » (٣) . والظاهر أن أهل الحجاز استعملوا هذه اللفظة استعمال نصارى العرب لها . وقد ذكر « الجواليقي » ، أن « صلوات » الواردة فى القرآن الكريم ، هي كنائس اليهود . وهي بالعبرانية « صلوتا » (٤) . وتقابل لفظة « صلوتا » جملة : « بيت صلوتو Beth Sloutho » فى السريانية ، ومعناها « بيت الصلاة » . وقد أطلق العبرانيون على كنيستهم « صلوتا » أي موضع الصلاة . أخذوا ذلك من السريان (٥) . والصلاة بالمعنى المفهوم منها عند المسلمين هي « صلوتا Selota » فى الإرمية (٦) . و « صلوت » فى الحبشية و « صليتو » فى الاكدية (٧) . أما فى العبرانية ، فيقال لها « تفيله Tephillah » (٨) .

---

(١) البلاذري « ١/٢٧٣ » .

(٢) الحج ، الآية ٢٤ ، الكشاف « ٣/٣٤ ومابعدها » المفردات « ص ٢٨٧ » .

(٣) مرمرجي « ص ١١٩ » .

(٤) الحج ، الآية ٤٠ ، الجواليقي ، المعرب [ص ٢١١] .

(٥) برصوم « ص ١٠٥ ومابعدها » .

(٦) Shorter, P: 636.

(٧) مرمرجي ص ١١٤ وما بعدها .

(٨) Hastings, P. 444.

أما القرآن الكريم ، فليس فى استطاعتنا حصر ما نزل منه فى أثناء هذه المدة على وجه ثابت مضبوط ، اذ اختلف فى ذلك العلماء . فذهب فريق منهم الى ان سورة (اقرأ باسم ربك) هي أول ما نزل من القرآن ، وذهب فريق ثان الى ان سورة (يا ايها المدثر قم فانذر) كانت أول ما نزل ، وذهب فريق ثالث الى ان (سورة الفاتحة) هي أول ما نزل به الوحي من القرآن الكريم (١) . والعلماء فى ذلك كلام وبحوث لا مجال للتعرض لها فى هذا المكان . على أن اكثرهم يميلون الى الرأي الاول ، مستندين الى خبر مروي عن عائشة زوج الرسول (٢) .

والذين يذكرون أن سورة (يا أيها المدثر) هي أول ما نزل من الذكر الحكيم ، يستندون الى رواية لا تشير الى نزول شيء من القرآن الكريم فى غار حراء ، بل تجعل نزوله بعد ذلك . وتذكر هذه الرواية ان الملك الذي جاء الرسول بحراء ، جاءه بعد ذلك فأوحى اليه بـ « يا أيها المدثر ، قم فأنذر » (٣) ، فكانت على هذه الرواية أول ما نزل من القرآن .

وقال معظم العلماء إن سورة (ن والقلم وما يسطرون) هي أول ما نزل بعد (اقرأ) ، وإن (المزمل) نزلت بعد (ن) ، ثم نزلت (المدثر) بعد (المزمل) ، ثم نزلت (تبت) بعد (المدثر) ، وقدم بعضهم (الفاتحة) على (تبت) (٤) . ولا يعني قولهم هذا نزول السورة كلها من أول آية فيها الى آخر آية على هذا الترتيب ؛ ففي بعض السور آيات متأخرة ألحقت بالآيات القديمة المذكورة ، وقد عينها ونص عليها العلماء ، وأشاروا اليها فى أسباب النزول (٥) .

على أن هناك من قال إن سورة (الضحى) هي أول ما نزل بعد سورة (اقرأ) . نزلت بعد إبطاء التنزيل على الرسول بعد نزول (اقرأ) عليه ، فقال كفار قريش :

(١) السيوطي : (الاتقان ٣٩/١ وما بعدها) ، البلاذري (١٠٧/١) .
(٢) راجع المراجع المذكورة .
(٣) الاتقان (١ /٤٠)
(٤) الفهرست (ص٣٧) ، الاتقان (١ / ٤٢ وما بعدها) ، روح المعاني (٣٠ / ١٧٨).
(٥) راجع كتب التفاسير ومباحث أسباب النزول وما كتب في ترتيب نزول السور ، البلاذري (١٠٨/١) .

ودعه ربه وقلاه ، فنزلت (والضحى) . ومنهم من قال : إن أول ما نزل (اقرأ باسم ربك) : ثم (نون) ، ثم (المدثر) ، ثم (المزمل) . ومنهم من قال : أول ما نزل من القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ، حتى بلغ الى (الرجعي) ، ثم نزلت (يا أيها المدثر) ، ثم ثلاث آيات من (ن) (١) .

ولم يدون العلماء - وا أسفاه - تواريخ نزول الوحي ، بالشهور والسنين . وإنما اكتفوا بذكر أسباب النزول ، أي المناسبات التي نزلت فيها الآيات ، وذلك باستثناء سورة (اقرأ) التي نص أكثر العلماء على أنها نزلت فى اليوم الأول من نزول الوحي وفى غار حراء . ومعنى ذلك أنها نزلت فى السنة الأولى من النبوة ، فهي اذن أقدم السور والآي . أما (ن) ، فقد ذكر العلماء أنها نزلت فى كفار قريش وعلى رأسهم أبو جهل والوليد بن المغيرة . وقد كانوا ينسبون الى الرسول الشعر مرة والسحر مرة ثانية ، والجنون مرة ثالثة . فبدأ جل شأنه هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه اليه من الجنون ، وتعظيم أجره على صبره على أذاهم ، وبالثناء على خلقه (٢) . وأما المزمل فذكر بعض العلماء أنها نزلت بعد يا أيها المدثر (٣) . وذلك حينما ذهب الرسول فزعاً الى خديجة ليخبرها بخبر الوحي ، فقال : زملوني زملوني ، فنزلت (يا أيها المدثر) . وعلى أثرها نزلت يا ايها المزمل (٤) . وذكر بعض آخر أنها نزلت لما اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا : « سموا هذا الرجل اسماً تصدر الناس عنه ، فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر . قالوا : يفرق بين الحبيب وحبيبه . فتفرق المشركون على ذلك . فبلغ ذلك النبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها ، فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال يا أيها المزمل يا أيها المدثر » (٥) . وذكر فى سبب نزول (المدثر) ما ذكرته عن

(١) البلاذري (١ / ١٠٧ وما بعدها) .
(٢) روح المعاني (٢٩ / ٢٣ وما بعدها) .
(٣) البلاذري (١/١٠٩ . الطبرسي ١٠/ ٣٧٧) .
(٤) روح المعاني (٢٩ / ١٠١) .
(٥) روح المعاني (٢٩ / ١٠١) .

نزول (يا ايها المزمل) (١) . وأما (تبت) ، فيذكر العلماء ، أنها نزلت بعد صعود رسول الله الصفا لانذار قريش على ما سأتحدث عنه فيما بعد (٢) ؛ أي أنها نزلت بعد خروج الرسول من دار الأرقم وبعد انتهاء مدة الاستخفاء التي نتحدث عنها .

هذا هو كل ماذكره العلماء عن أقدم ماورد من القرآن الكريم : ولكننا لو درسنا أسباب النزول المدونة فى كتب التفسير والحديث بعناية ودقة ، نجد أنها باستثناء «اقرأ» تشير في الواقع الى أن نزولها كان بعد مدة الاستخفاء وبعد تحرش قريش به وتعرضها بالاسلام . إذ لا يعقل نزولها فى تلك المدة ؛ ولم تكن العلاقات قد ساءت بعد بين الرسول وقريش فى هذا العهد . ولعل هذا هو الذي جعل بعض العلماء يذهبون الى أن النبوة أتت الرسول وهو ابن اربعين سنة ، ثم استمرت على رأيهم ثلاث سنوات ، حتى بلغ الرسول الثالثة والأربعين ، فانتهت بنزول جبريل بالقرآن عليه . أما في السنين الثلاث المذكورة سني النبوة ، فقد قرن به إسرافيل ، كان يعلمه الكلمة والشيء ، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه ، لأن ذلك لم يكن من واجب إسرافيل . ثم إن هذه المدة كانت تمهيداً للرسالة . وهذا الخبر ضعيف على رأي أكثر علماء السيرة والتواريخ (٣) .

ولابد لي هنا من التنبيه على أهمية دراسة موضوع ترتيب نزول الآي والسور فى تدوين السيرة ، فان الوقوف على أسباب النزول ووقته ومكانه يساعدنا مساعدة قيمة فى تثبيت الحوادث وتوضيح ماورد مجملاً أو غامضاً في كتب السير والتواريخ . ويقتضي ذلك بالطبع الرجوع الى كتب التفاسير والى كتب أسباب النزول والى كتب الحديث ، لتكوين رأي واضح موحد في الموضوع . وهذا يوجب على العلماء المختصين المحدثين دراسة الموارد القديمة المذكورة ونشرها بأسلوب حديث ، وترتيبها وتبويبها ، ليتمكن المؤرخ من الاستفادة منها أكبر فائدة ، ومن التوفيق بين الروايات العديدة التي ترد عن حادث واحد ، ليكون له بذلك رأياً علمياً عميقاً في البحوث التي يتطرق اليها في هذا الباب .

---

(١) الطبرسي (١٠ / ٣٨٧) .

(٢) الطبرسي (١٠ / ٥٥٩) ، روح المعاني (٣٠ / ٢٦٠) .

(٣) الاتقان (١ /٧٧) ، ابن سعد (١ / ١٩١) .

هذا كل مابلغه علمي من أمر هذه السنين الثلاث أو الاربع الأولى من النبوة ، سني التحفظ والاستخفاء ، ان مرت هادئة ناعمة لم يتخللها عنف ولا اعتداء ، فقد كانت ولا شك شديدة عنيفة على الرسول . لا يعرف شدتها وعنفها إلا أصحاب الرسالات والرأي . الرسول في شوق شديد الى سماع الوحي ورؤية الملك الموكل به ، ليتلقى منه أوامر الله ونواهيه ، متلهفاً الى سماع الأمر الذي سيصدر اليه بتبليغ الرسالة لعشيرته ولقومه . كل لحظة بالنسبة اليه هي سنة أو قرن ، يريد ابلاغ رسالته واتمام كلمة الله فى أقرب وقت واقصره . والوحي لم يصدر اليه فيها إلا بالتريث والانتظار والصبر ، ثم هو قليل . بين النزول والنزول مدة طويلة هي دهور فى نظر المتيم المشتاق الشاعر بعظم رسالته وبوجوب ابلاغها للناس . ثم هو قلق حائر كيف يبلغ رسالته لقومه ، وهم على هـذا الحال من التمسك بالأصنام والأوثان وبسنة الآباء والاجداد ، وليس له قوة ولا مال ، يتغلب بهما على عدوه وعدو الله . ان الله قد اختاره لرسالته وهو ملزم مكلف أداءها ونشرها بين الناس حتى يقولوا نشهد الا إله الا الله ونشهد أن محمداً رسول الله . إنه لا يرضى ولا يقنع ولا يقبل إلا بالايمان بالله وبالقول بالشهادتين ، أما المال والملك ، فليس لها مكانة عنده . وليس للمشركين من سبيل إلا الايمان والدخول في الاسلام . قضى الرسول وقته هذا وهو بين التفكير في الله والتهجد والتعبد له ، وبين التفكير فيما ذكرت وفي حال من بايعه وصدق به ، وهم كلهم جماعة لم تتجاوز في خلال هذه المدة الأربعين شخصاً . ثم نزل عليه الوحي فجأة يأمره بانذار قومه وبتبليغهم رسالة رب العالمين ، لايبالي ولا يداري ولا يفكر في خطر ، فانها رسالة ، ومن شرفه الله باختياره رسولاً ، فعليه ألا يبالي ولا يخشى من الناس أحداً ، وأن يعتمد عليه ، ولا يخيب من اعتمد عليه . أما كيفية ذلك ، وكيف أبلغ الرسول قومه رسالة الله اليه ، فهذا ماستراه في الفصول التالية من هذا الكتاب .

الفهرست

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفصل الرابع

الصفحة

الصفحة

